د. تامر إبراهيم

الطبعة 2



مجموعة قصصية

حكايات الموتى

سبارك للنشر والتوزيع



عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

مجموعة قصصية

حكايات الموتى

حكايـــات الموتـــى

•

مجموعة قصصية من أدب الرعب

•

إن جميع ما تقدمه (سبارك) هو مصنفات عربية مائة في المائة لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس أو النقل عن أي قصص أوروبية أو أمريكية.

•

إشراف

م. سند راشد

محمود بهباني

•

تصميم الغلاف

أحمد مراد

•

الإخراج الفني

م. أحمد محمد أحمد

•

بقلم

د. تامر إبراهيـم

•

سبـارك للنشــر والتوزيــع

•

•

رقم الإيداع: 3262/2012



www.spark-books.com

مجموعة قصصية

حكايات الموتى

د. تامر ابراهيم



مقدمة

في أحد خطاباته لي، يقول د. (تامر إبراهيم): "أشعر نحو هذه المجموعة القصصية بشعور مختلف؛ فقد كنت فيما سبق مما كتبته أدرك أنني قادر فعلاً على كتابة الرعب.. في هذه المجموعة أدركت أنني فعلاً أعشق هذا الأدب".

هذا يلخص الموقف في رأيي.. (تامر) يعشق هذا النوع من الأدب فعلاً، وهو واسع الثقافة لا يكف عن استكشاف الجديد في الأدب والسينما حول العالم.. طبعًا ليس لينقله، ولكن ليتمثله في ذلك المفاعل الغامض الموجود داخل كل فنان.. المعجزة التي تحيل جولات عشوائية دءوبًا على الأزهار عسلاً سائغًا.

تابعت (تامر) منذ قصته المنشورة الأولى (٣٠٠ دقيقة) والتي شهدت له فيها بأنه جعل أنفاسي تحتبس.. إنه يعبر بسلاسة ذلك الحاجز الفاصل بين التشويق والرعب، ليبرهن على أنه لا يوجد حاجز أصلاً، وأن هرولة الوقت ذاتها قد تكون مرعبة أكثر من قبو يعج بالتوابيت. في الوقت ذاته هو قادر تمامًا على ارتياد عوالم رعب لا أجرؤ على ارتيادها، ولقد وصفته بالسادية مرارًا، لهذا عندما خطرت لي فكرة كتيب (قوس قزح) كان (تامر) هو الاسم الأول والأخير الذي سألته أن يشاركني هذا المشروع، وحددت له الألوان التي يكتب عنها، وكما توقعت جاءت قصصه محكمة ممتعة وإن كانت أكثر دموية بكثير من قصصي، وما زال كثيرون يعتبرون بعض القصص من تأليفي أنا لأنهم وجدوها أفضل، وبالتالي افترضوا أنها لي بحكم الخبرة!..

طلب مني (تامر) أن أقدم له هذه المجموعة، فكان ردي أنني أرحب بشدة، لكني أجدها فكرة غريبة أن يقدم أديب أديبًا آخر.. المنطقي أكثر أن يكتب التقديم ناقد أو ناشر.. لكنه كان متمسكًا بهذا الطلب، لذا كتبت هذه المقدمة الموجزة لأقول إنني قرأت المجموعة ليس كناقد ولا ككاتب منافس، وإنما كقارئ يستمتع بما يقرؤه..

تحرر (تامر) تمامًا من قوالب الرعب التقليدية، وارتاد تيمات مختلفة كثيرة.. فكرة الهاتف الذي يتصل به المجرمون قبل إعدامهم.. ما الذي نفعله (نحن)؟.. هذه قصة تبعث الكثير من الانقباض في النفس.. أسطورة سلتية مخيفة عن (الأنكو) تنقله لعالمنا طبقًا لأسلوب (غير الطبيعي في عالم طبيعي).. ثم هو يقدم كذلك تجربة للسيناريو الكامل في ذات المجموعة..

أفكار كثيرة طازجة، وحبكات لا يمكن التنبؤ بها.. دعك من صفة تروق لي كثيرًا وهي الجرعة الأدبية العالية.. لا يمكن أن تقارن هذه القصص بالأسلوب الخبري المسطح لكتاب رعب كثيرين. بهذا احتفظ بسحر الرعب وإثارته، لكنه كذلك أعطى القارئ سحر الأدب وتعبيرات يتوقف عندها كثيرًا..

سوف تروق لك هذه المجموعة فعلاً، وتمضي معها ساعات ممتعة.. وكما قال (تامر) في خطابه لي: هو كاتب يعشق الرعب ويرى فيه ذات السحر الرومانسي الذي رآه لافكرافت وادجار آلان بو وماري شيلي..

هل أطلت الكلام؟.. أعرف هذا.. لهذا انسحب وأتركك تطالع هذه القصص وحدك.

د. أحمد خالد توفيق



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

مسابقة العصر

(1)

ربما لو أخبرتك اليوم أننا وفي عصرنا هذا أصبحنا نمتلك النانو روبوت، لسخرت مني أو اعتقدت أنني أهذي، لكنها الحقيقة مهما رفضتها..

لا تعرف ما هو النانو روبوت أصلاً؟.. لا بأس.. إنه وببساطة روبوت شديد الصغر، بل هو أقرب لحجم الذرة، لكنه روبوت متكامل قادر على تنفيذ المهام وتسجيل وتخزين المعلومات، كما يمتلك شريحة ذكاء صناعي تمكنه من التصرف في بعض المواقف، وفقًا لنوع برمجته.. وهذا كله لا يؤثر في حجمه الذي لا يرى إلا بالمجاهر الحديثة..

مرة أخرى لا تسخر من الفكرة أو ترفضها، وتذكر..

أنت الآن تعيش في عصر الهواتف المحمولة بالغة الصغر، والشاشات التي تعمل باللمس، وكاميرات الإنترنت التي لا يتجاوز حجمها السنتيمترات، وكلها اختراعات لو تحدثت عنها قبل وجودها بعشر سنوات، لأخبرك الكل وبصراحة أنك مجنون وأحمق!

ثم إن مشروع النانو روبوت هذا، هو امتداد لأبحاث النانو تكنولوجي التي بدأت قبل أن تقرأ أنت هذه الأسطر، وتقدمت في عصرنا هذا، لتصبح النانو روبوتات حقيقة واقعة، تعيش في أجسادنا وتحافظ عليها من كل ما يتعرض له جسدك الآن ويتلف بسببه..

اليابانيون من فعلوها وهذه حقيقة أخرى اعتدناها من زمن طويل..

دائمًا ما تأتي التكنولوجيا الحديثة من اليابان ليصنعها العالم كله بعدهم، وكان العالم (ياكاشي هوراشاكي) يردد وهو يتسلم جائزة نوبل عن إنجازه في هذا المجال:

من اليوم.. ستحظى أجسادنا بالاحترام الذي تستحقه..

وفي هذه النقطة كان محقًا، لكنه كان ضيق الأفق نوعًا ما..

بحقنة واحدة سيتم ضخ ملايين النانو ربوتات لتعيش في جسدك إلى الأبد، ولتحافظ عليه حتى تحين ساعتك لأسباب طبيعية بحتة، لكن وحتى هذه اللحظة المجيدة، يمكنك أن تنسى المرض والشيخوخة والفيروسات والبكتريا والسرطان والكوليسترول، وحتى الكسور والإصابات، فالروبوتات في جسدك تعرف ما عليها فعله تمامًا..

في عصرنا هذا يعيش كل واحد منا، وفي جسده جيش يعمل على حمايته من أي عامل يضرّ به سواء كان داخليًا أو خارجيًا، وهذا الجيش لا يتوقف عن العمل لحظة واحدة منذ أن يسري في عروقك..

كل شيء يتم مراقبته وقياسه وتسجيله، وكل طارئ يتم التعامل معه، قبل أن ترسل إشارة إلى جهاز عرض خاص، يبلغك بتطورات جسدك أولاً فأول، ولو حدث خلل ما – رغم أن هذا لم يحدث حتى الآن –سترسل إشارة أخرى لوحدة الأبحاث الصحية التكنولوجية، التي سترسل لك فريقًا قادرا على التعامل مع هذا الخلل، في دقائق معدودة..

هنا يبدو الأمر حلما جميلا نحياه على أرض الواقع، لكنني وكما أخبرتك اكتشفت أن في هذا ضيق أفق لا حد له..

بانتهاء المرض وبالقضاء على الشيخوخة أصبحنا نتزايد كالحشرات، وحتى جيوش النانو روبوتات، لم تتمكن من حل مشكلة الماء والغذاء والسكن، لتعلن مشكلة التضخم السكاني عن نفسها بشراسة..

وهنا تحتاج المشكلة لتدخل البشر لحلها..

وأنا وجدت هذا الحل..

واليوم سأخبرك به..

• • •

حقيقة أخرى يجب أن تدركها عن عالمك الذي تحيا فيه، وهي أن كل شيء يحدث حولك يتوقف على كلمتين اثنتين لا ثالث لهما..

نسبة المشاهدة!

في عصرك الذي تقرأ فيه هذه الأسطر، تعرف أنه لا يوجد منزل في العالم لا يوجد فيه تلفاز، وفي عصرنا نحن أدركنا أن كل شيء حدث في التاريخ، كان يتوقف على نسبة مشاهدة هذا التلفاز..

طالما أنت تشاهده سيظل موجودًا.. حكمة لا أذكر من قالها في عصرنا، لكنها صادقة للغاية..

لا تفهم ما أعنيه؟.. سأحاول تبسيط الأمر.. افترض أن هنالك برنامجًا يعرض على التلفاز وأنه حقق نجاحًا شديدًا، وبالتالي نسبة مشاهدة عالية.. ما الذي سيحدث؟

ستنتبه كل الشركات العالمية لهذا البرنامج وستقوم هي والشركات الإعلانية بعرض إعلانات منتجاتها في هذا البرنامج.. بالتالي سترى أنت هذه الإعلانات بصورة قادرة على تنويمك مغناطيسيًا حتى تشتري منتجاتها، ليحصل صناع البرنامج والإعلان والمنتج على نقودك، قبل أن يفتر اهتمام المشاهدين بهذا البرنامج، لتختفي منه الإعلانات التي كانت تساعد على استمراره –الجودة لا تعني الاستمرار!– ولينتقل الكل إلى برنامج أو فيلم أو حتى حدث إخباري يحقق نسبة مشاهدة أعلى..

أي إنك تشاهد لينجحوا هم، وليتمكنوا من يحصلوا على أموال من إعلانات عن منتجات ستشتريها أنت، وبالتالي يزداد ربحهم الذي يمكنهم من عرض المزيد من الإعلانات التي ستحدد أنت ومن مثلك نسبة مشاهدتها، وكل هذا يبدو في النهاية وكأنه صنع لخدمتك أنت!

ولا يتوقف الأمر عند هذه الحقيقية فحسب..

تخيّل لو أن هناك برنامجًا يناقش سلسلة جرائم مخيفة تحدث في بلدك؟.. سيشاهد الكل البرنامج.. ستعرض فيه الإعلانات.. ستمنح أنت نقودك للكل إلا القاتل ذا الفضل الحقيقي في هذا النجاح..

ببساطة لو توقف أو قبض عليه، سيفقد البرنامج بريقه وستقل نسبة مشاهدته..

والآن تخيل لو أنه ليس قاتلاً.. بل هو تنظيم إجرامي.. أو هي قضية فساد ضخمة.. أو أسرار مشينة تعرض لأول مرة.. أو مشاهد لا تجوز لمن هم أعمارهم أقل من 18 سنة.. هل انتبهت لما أعنيه؟؟

جميع ما سبق هو ما يحقق أعلى نسبة مشاهدة، ومهما حاولت أن تكذب على نفسك، فلن تملك نفسك من الشعور بالإحباط لو توقف القاتل عن ارتكاب جرائمه التي كنت تتابعها كل أسبوع، أو لو انتهى الأمر بهؤلاء الفاسدين بمحاكمة هزلية تعيدهم لدائرة الظل مرة أخرى، لتعود أنت لروتين حياتك الذي لا يتغير..

هيا لنعترف معًا.. نحن نحب أسوأ ما يمكن حدوثه للآخرين - على ألا نتعرض نحن له- ونحن على استعداد لمتابعته وزيادة نسبة مشاهدته، لتدور عجلات الأموال التي لا تسحق سوانا..

ما علاقة هذا كله بالنانوروبوتات؟

الآن ستعرف..

• • •

في عصرنا هذا لم يعد هناك شيء مهم!

في أرض لا يوجد فيها مكان للمرض أو الحرب لا توجد أي متعة.. صدقني أو أصغ لي حتى النهاية لترى بنفسك كيف ساء الوضع في



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

عصرنا هذا..

أنت تعيش حياة مثيرة كل يوم دون أن تشعر.. تستيقظ فلا تعرف إن كان هذا هو اليوم الذي سيفصح فيه جسدك عن مرض جديد أم لا.. تتناول إفطارك ذا نكهة المبيدات وبالماء الملوّث دون أن تشعر بالخلايا السرطانية التي تحاول الاستيقاظ في أعضائك.. ثم تخرج من منزلك لتواجه العالم بغير سلاح أو حتى الحذر..

قد تصيبك سيارة مسرعة.. فيروس طائر.. رصاصة طائشة.. حفرة عميقة.. جسم ثقيل يسقط من السماء.. أداة حادة تخترق جسدك.. أدخنة سامة.. موجات محطات تقوية شبكات الاتصال.. موجات الهواتف المحمولة.. أشعة فوق بنفسجية..

وهذه هي الأشياء التي تسبب الحوادث فقط لا الجرائم!

تواجه أنت هذا كله كل يوم، لتنطلق إلى عملك حيث تنتظرك آلاف الفرص الأخرى للهلاك، لكنك تخوض بينها لتعود إلى منزلك في نهاية اليوم، ولينتهي يومك في فراشك على وعد بمغامرة جديدة غدًا..

أنت تستيقظ تخاطر.. تجرّب.. تسعى.. تنجح أو تفشل.. تهلك أو تنجو..

أنت تحيا..

أمّا نحن.. فبفضل النانوتكنولوجي لم تعد الحياة كما كانت..

أي مرض ستقوم الروبوتات المجهرية في جسدك بالتعامل مع على الفور.. أي إصابة سيتم وقف النزيف وإصلاح أو استبدال الأنسجة التالفة بأخرى يتم استنساخها فوريًا.. حتى لو أطلقت على أحدنا رصاصة، ستخرج من جسده بعد لحظات دون أن تؤثر فيه إلا بقليل

من الألم، ستتغلب عليه النانوروبوتات على الفور، بتعطيلها للأعصاب الحسية..

أي شوائب تدخل أجسادنا تنقى على الفور.. أي أدخنة أو أبخرة تصفى قبل أن تمتصها رئاتنا.. أي خلية سرطانية تتثاءب مستيقظة، تقتل في مكانها على الفور.. الكوليسترول يذاب أولاً فأول.. الإنزيمات تفرز بحساب.. الجسد كله يعمل في تناغم لا يمكنك حتى أن تحلم به.. بالتالي..

لم يعد هناك مكان لشركات الأدوية، فلم يعد هناك مرض لسوء حظهم!.. ومع الوقت بدأت المستشفيات والوحدات الصحية في الانقراض هي الأخرى، لتنضم لها شركات ومؤسسات الأدوات الصحية والعلاجية، وهذه كانت الضربة الأولى..

الأذكياء استبدلوا نشاطهم بتصنيع النانوروبوتات على الفور، ومن استغرقوا وقتًا في الدراسة والتأني، أفلسوا على الفور.. لكن هذا لم يكن كل شيء..

فمع الوقت أدركنا أننا نفعل كل شيء في هذه الحياة من أجل أجسادنا لا أكثر.. نحن نعمل وننجح لنحصل على المال الذي نشتري به الطعام لأجسادنا.. الملبس لأجسادنا.. المكان الذي نؤوي فيه أجسادنا.. المتع التي تستهلكها أجسادنا.. حتى أنت تمارس هذا الخطأ كل يوم دون أن تشعر..

نعم.. هناك اثنان منك الآن.. من يقرأ هذه السطور ويفكر.. ومن ينتظرك لتنتهي لتطعمه أو تسقيه أو تمنحه الراحة أو المتعة، وهذا الآخر هو أنت أيضًا!

أنت تعمل من أجل أنت، ثم جاءت النانوروبوتات لتعلن لك أن

جسدك لم يعد في حاجة لك..

هكذا تناقص الإقبال على السلع الاستهلاكية.. وهنا كانت الضربة الثانية..

الشركات الغذائية.. الشركات الوقائية.. الشركات الخدمية..

الأذكياء استبدلوا نشاطهم بتصنيع النانوروبوتات على الفور، ومن استغرقوا وقتًا في الدراسة والتأني، أفلسوا على الفور..

ثم انتبهنا لحقيقة أخرى.. لا أحد يموت مريضًا أو مصابًا أو مقتولاً أو مأسوفًا عليه.. عليك أن تنتحر أو..

عفوًا لقد نفد رصيدك!

وهناك كانت الضربة الثالثة..

لم تعد هناك حروب أو صراعات.. انهار سوق السلاح.. الشركات الأمنية.. المؤسسات الدفاعية.. لم تعد هناك جريمة.. لم تعد هناك متعة.. لم يعد هناك أمل..

ثم جاءت الضربة الرابعة مدوّية بحق..

لم تعد هناك منتجات.. إعلانات.. نسبة مشاهدة التي هي شريان الحياة في أي مجتمع!!!

أصبحنا كلنا نعيش في أمان وسعادة ورخاء..

ويالها من حياة لعينة!

هنا يأتي دور العباقرة أمثالي ليجدوا حلاً لهذا كله..

وهنا أتفوق أنا على الجميع، لأنقذ عالمنا من تلك الهوة السحيقة التي سقطنا فيها..

والحل كان أبسط من اللازم لذا لم يره أحد سواي.. فكّر..

لو ربطنا بين النانوروبوتات ونسبة المشاهدة.. فما الذي سنحصل عليه؟!

أنا عرفت إجابة هذا السؤال.. وأنا دفعت ثمن هذه الإجابة!

• • •

(2)

في عالم لا مكان للمرض أو الخطر فيه، يصبح للموت ثمن..

قرأت هذه الجملة لأديب من أبناء عصرنا.. كتبها قبل أن ينتحر على الرغم من كل محاولات النانوروبوتات في جسده لإنقاذه..

شيء آخر تذكرته على الرغم من أنني شاهدته في صباي.. هزلي أمريكي يقدم عروضًا ساخرة قال ذات مرة.. لماذا تشاهد برامج من يربحون في المسابقات وتتحمس لها؟

أنت تشاهد شخصا آخر سواك يحاول.. ينجح.. يزداد ثراءً لمجرد أنه داخل التلفاز لا خارجه.. ثم تعود أنت لحياتك المتواضعة!.. لو أردنا نسب مشاهدة حقيقية لنطبق العكس..

لنأتي ببعض الأثرياء ولندخلهم في مسابقات تنتهي بإفلاسهم!!

هنا سيشاهد العالم كله البرنامج.. هنا ستجلس أنت وأسرتك ترمقون ذلك الوغد الثري، وهو يتحول إلى واحد منكم بالتدريج، حتى ينتهي به الأمر وقد أصبح أقل منك أنت شخصيًا..

فكرة تستحق التفكير حقًا ولا تنكر هذا..

لكن في عصرنا هذا لا أهمية للمال كما كان الأمر في عصرك..

نعم هو مهم، لكنه لم يعد مثيرًا كما كان، ففي عصرنا هنا توجد أشياء أهم.. أشياء فقدها يؤدي إلى نسبة مشاهدة أعلى..

وأنا أعرف ما هي هذه الأشياء..

هكذا قضيت عدة سنوات أموّل مشروعًا سريًا لتطوير مقعد أسميناه (نانو – كنترول).. من يجلس على هذا المقعد، تصبح النانوروبوتات في جسده ملكًا لي، أتحكم فيها كيفما أشاء..

هكذا يصبح جسدك ملكي ويصبح مصيرك رهن ضغطات من أصابعي على لوحة المفاتيح..

يبقى أن تعرف أنني أدير قناة تلفزيونية في عصري، لتدرك ما أعنيه..

التلفاز –على الرغم من كل هذه السنوات– لم يفقد سطوته أو سحره..

نسبة المشاهدة لا تزال تتحكم في مصائر الجميع حتى لو أنكروا هذا أو تناسوه..

برنامجي الجديد الذي أعلنت عنه أعاد الحياة لنظريات كادت تهلك.. لأنه وببساطة..

أعاد الموت!

• • •

فكرة البرنامج بسيطة للغاية..

المتسابق سيتقدم لمقر البرنامج وسيوافق على كل شروطنا دون مناقشة، وبهذا نتجنب نحن التفاصيل القانونية المزعجة والتي كان من الممكن التغلب عليها على كل حال.. سيتم تحديد يوم له وسيأتي فيه

ليخوض مسابقتنا البسيطة..

اجلس على مقعد الـ (نانو – كنترول) وسنوّجه لك بعض الأسئلة الثقافية المتنوعة.. لو أجبت على كل سؤال ستحصل على دفعات مالية ضخمة وهذا لا يهم.. المهم أنك في كل مرة ستخطئ فيها في إجابة سؤال، ستقوم النانوروبوتات في جسدك، والتي نتحكم فيها طالما أنت على المقعد، بتدمير عضو من أعضاء جسدك!

إجابة خاطئة.. ستقوم النانو روبوتات بتدمير كليتك اليمنى..

إجابة أخرى خاطئة.. ستقوم النانو روبوتات بتدمير نصف كبدك الأيسر..

إجابة أخرى خاطئة.. حاول أن تعيش برئة واحدة..

إجابة رابعة خاطئة.. سيتم اختيار عضو عشوائي، وهنا عليك أنت والمشاهدين أن تدعو أن يكون هذا العضو هو طحالك أو مرارتك أو حتى مثانتك وإلا..

وإلا ستهلك!

ولا مجال للتراجع هنا..

من يبدأ المسابقة يكملها حتى يحصل على الثروة، أو يهلك من أجلها.. وبهذا يتحول مقعدنا إلى شيء أشبه بمقعد الإعدام، وهذا يعني أن الأمر مثير..

أن الكل سيشاهده..

أنه سيحقق نسبة المشاهدة المرجوّة في عصر تعيش فيه أجسادنا بإرادة روبوتات مجهرية..

ينقصنا اسم مبتذل لهذه المسابقة لنبدأ.. والابتذال مهم..

المشاهد يستغرق وقتًا للتعرف على الأشياء الجديدة، والوقت في عالم البث المرئي يكلف أموالاً فوق قدرتك على التخيل.. لهذا تجد أسماءً على غرار مشروب الصحة.. ينبوع الحيوية.. عملاق الطاقة.. إمبراطور الفيزياء!

المسابقة واضحة ولا تحتاج إلا لاسم سخيف يعلق بالأذهان، ويصلح لبدء حملة الدعاية..

نعم..

لنسمها مسابقة العصر!

• • •

بالطبع هاجمنا الجميع في البداية، ولم تكن لنحلم بما هو أفضل من هذا..

الدعاية السلبية يا عزيزي تفوق أهمية الدعاية الإيجابية بمراحل.. تخيَّل لو قرأت في أحد الصحف تحذيرا من الذهاب للمتجر (س) في مدينتك.. تحذيرا واضحا وصريحا هو أقرب إلى المنع..

حينها قد لا تصل لهذا المتجر فعلاً، لفرط الزحام من حوله!

كل الصحف اتهمتنا بالوحشية.. بالهمجية.. بانتهاك حقوق الإنسان.. بالعبث في مصائر البشر.. وكل هذا يترجم في النهاية إلى زيادة في نسبة المشاهدة..

بالطبع احتجنا لعباقرة القانون -وهم متوفرون ما دام المال متوفرا- لينهوا لنا كل الإجراءات القانونية اللازمة لنبقى خارج السجون.. ثم بدأ عباقرة الدعاية عملهم، مستغلين أكثر عامل جذب في التاريخ البشري..

تحدي الموت..

أحد مصممي الإعلانات قدّم لي نموذجًا لبوستر البرنامج، وكان عبارة عن كومة من الجثث، تحيط بالمقعد الرهيب الذي يعلو كل هذه الجثث كأنما هو يتحداك أو ينتظرك.. الفكرة كانت مباشرة أكثر من اللازم لهذا رفضتها..

تكفينا صورة للمقعد ومتسابق يجلس عليه ينظر لك في رعب ورجاء!

الآن أنت متورط معنا في البرنامج.. أنت تنظر لهذا المتسابق لا تعرف إن كان سينجو أم لا.. بل إنك لا تعرف إن كنت تريده أن ينجو أم لا..

مع الوقت ستتخيل نفسك مكان هذا المتسابق..

ستحلم بالليلة التي تجلس فيها على هذا المقعد، تنتظر السؤال الذي سيقرر إن كان رصيدك في البنك سيتضاعف أم..

ستخسر كلية.. كبدا.. رئة.. عضوا آخر قد لا يهمّ أو قد يقضي عليك..

والحملة الإعلانية يجب أن تطول على قدر الاستطاعة، حتى لا يصبح حديث للمشاهدين إلا عن المسابقة ومتى ستبدأ.. دعهم يعترضون ويفترضون ويتناقشون ويتجاوبون ويتفاعلون، لكنهم في النهاية سينتظرون في لهفة وشغف..

وفي النهاية أبدأ أنا بث البرنامج لأعيد لحياتنا أشياء كثيرة كانت تنقصها..

• • •

87 في المائة من سكان الكوكب شاهدوا الحلقة الأولى من البرنامج.. هل تتخيل نجاحًا أعظم من هذا؟!!

الواقع أنني لم أتخيل هذه النسبة من المشاهدة على الإطلاق.. الرقم الذي يعني أننا حققنا ما نصبو له وأكثر كان 63%..

لكن 87%!!

العالم كله شاهد هذه الحلقة إلا من لم يبلغوا بعد سن المشاهدة، وهي مسألة وقت لا أكثر..

إنه النجاح كما ينبغي للنجاح أن يكون..

المتسابق الأول كان مدرسًا في أحد المدارس الثانوية.. رجل في منتصف الثلاثينيات متزوج وله ابن في السادسة من عمره.. حالته الاجتماعية لا بأس بها، لكن حلم الثراء السريع لا ينجو منه أحد..

كان مرحًا بحق وكان يحاول التغلب على رهبة المسابقة بمزحات يطلقها طيلة الوقت، الأمر الذي فسّره الخبراء فيما بعد بكونها حيلة دفاعية معتادة، يمارسها من هم مقبلون على خطر لا يدركون ما هو بالضبط.. أنت لا تعرف كيف ستشعر حين تهشم النانو روبوتات أنسجة كبدك.. لا تعرف إن كنت ستشعر بالألم أم لا..

على أية حال..

لا أذكر اسم المتسابق الأول، رغم أن صورته احتلت الصفحات الأولى من الصحف طويلاً بعد الحلقة، لكني أذكر ما حدث له بالتفصيل..

إنها أول حلقة وبداية النجاح و..

وبداية النهاية كما سأعرف فيما بعد..

•••

(3)

جلست مع العالم كله أشاهد الحلقة، فلم يكن هناك مجال للتسجيل قبل العرض

البرنامج يبث على الهواء مباشرة، وما تراه الآن يحدث الآن، أمّا ما سيحدث فهو ما سنعرفه حالاً..

في البداية تأتي الأسئلة السخيفة المعتادة التي تغرسك أكثر في الفخ دون أن تشعر.. تلك الأسئلة التي يمكن لأي طفل أن يجيب عليها، والتي تمنحك شعورًا نسبيًا بالأمان ومبلغًا لا بأس به في البداية و.. و..

وبعد هذه المرحلة تبدأ الأسئلة الحقيقية..

هكذا جلس المتسابق الأول يتصبب عرقًا، وهو في انتظار أول سؤال (حقيقي) وقد ظهر على شاشة ضخمة خلفه، بث دقيق لحالة جسده الآن وفقًا لما تسجله النانوروبوتات في جسده.. نبضات قلبه.. سرعة تنفسه.. وظائف الكلى والكبد.. الأوعية الدموية.. الإشارات العصبية.. كل ما يمكنك قراءته وتسجيله ويعني أنك ما زلت حيًا..

وهنا يجب أن أتوقف لحظة لأعرفك بمساعدي الذي وضع فكرة هذه الأسئلة الحقيقية..

مساعدي شاب في مقتبل عمره، شديد الأناقة.. لا يتحدث إلا نادرًا.. ولا يتوقف عن العمل إلا حين ينام..

بابتسامته الواثقة ونظراته الذكية دفعني لأن أختاره ليكون مساعدي.. ومع الوقت أثبت لي أنه يستحق هذا المنصب حقًا.. ثم جاء اليوم الذي عرضت عليه مشروع برنامج مسابقة العصر، ليقترح هو ببساطة:

- الجميع استهلكوا تلك الأسئلة الثقافية والشخصية المحرجة.. لماذا لا نمنحهم شيئًا جديدًا؟

- شيء جديد مثل ماذا؟

- أسئلة ذكية.. دعهم يفكرون ولو قليلاً..

-!!

والواقع أن فكرته كانت عبقرية... فكّر فيها قليلاً وستجد كم هي عبقرية..

منذ أن انتشرت برامج المسابقات، والكل يحفظ تلك المعلومات البلهاء، التي لا تقدم شيئًا ولا تؤخر..

من مؤلف هذا الكتاب؟.. في عام ماذا ولد ذاك الأحمق؟.. ما أطول نهر في العالم؟.. من قائل هذه العبارة ولماذا؟.. أطنان من السخف أصبح الجميع يسعون لحفظها دون داع..

لا تسئ فهمي، فأنا لست ضد الثقافة العامة.. لكن ضد السبب الذي دفعنا لهذه الثقافة، والطريقة التي أصبحنا نمارسها لنصبح مثقفين.. الكل يحفظ تاريخ إمضاء تلك الاتفاقية.. لكن لا أحد يعرف عن ماذا تتحدث تلك الاتفاقية؟.. لماذا عقدوها؟ وما العوامل التي أدّت إليها والآثار التي نجمت عن تطبيقها؟ وهل كانت هذه الاتفاقية مفيدة أم لا؟.. لا أحد يعرف..

الكل أصبح يحفظ كالببغاء، بينما انقرض التفكير إلا عند القلّة ورهبان التبت!

حقًا.. دعهم يفكرون ولو قليلاً..

هكذا جلس المتسابق الأول في انتظار أول سؤال حقيقي، وزوجته

تقف في الاستديو تنتظر له في أمل حاملة طفلها -رغم أنني حذرتها- ليدوي السؤال أخيرًا عبر السماعات:

- كيف يمكنك أن تحصل على النار من الثلج؟!

وفي مكتبي انفجرت أنا ضاحكًا وأنا أرى نظرة الذهول التي شاعت في عين المتسابق الأول..

الدموع التي سالت من عيني زوجته المصدومة، وهي ترمق زوجها في حيرة عاجزة عن تخيّل الإجابة حتى، بينما طفلها يبتسم في براءة لا يدرك ما سيصيب أباه، لو لم يجب على السؤال خلال 60 ثانية هي مدة الإجابة..

كيف يمكنك أن تحصل على النار من الثلج؟!

هل تعرف إجابة السؤال؟.. هل يمكنك أن تفكر فيه؟؟

باق من الزمن 50 ثانية.. والمتسابق الأول لا يزال يتلفت حوله غير مصدق لما سمعه.. لقد جاء من منزله متسلحًا بكل المعلومات التي لا تهم أحدا سواه، والتي ظنّ أنها ستقوده للثراء والمجد..

باق من الزمن 40.. بدأ ينطق أخيرًا ليردد في سره أن أكبر سور في العالم هو سور الصين العظيم.. أن مؤلفة رواية فرانكشتاين هي ماري شيلي.. أن ألمانيا انهزمت في الحرب العالمية الثانية..

باق 30 ثانية.. وضربات قلبه على الشاشة من خلفه تتجاوز المائة.. أتمنى ألا يصاب بصدمة قلبية قبل أن ينتهي الوقت..

20 ثانية.. 10 ثوان.. 5.. و.. و..

ودوّت صفارة انتهاء الوقت، لتشهق زوجته، بينما شحب وجهه هو في انتظار أول عضو سيخسره بضغطة زر.. وهنا يأتي الخيار لي..

بماذا نبدأ؟.. بماذا نبدأ؟..

نعم لنبدأ برئته اليمنى.. لنر ما سيحدث حين أضغط على هذا الزر..

• • •

مقتطف من صحيفة اليوم التالي لظهور الحلقة الأولى من مسابقة العصر.. وهو بالمناسبة حوار مع ربة منزل شاهدت ما حدث في الحلقة:

مرّت الدقيقة التي منحوها له ليجيب على السؤال وهو في مكانه لا ينطق.. ثم دوت الصفارة التي تعلن نهاية الوقت، فانتفضت أنا وكل من معي في المنزل.. لقد خسر، ولأول مرة سنرى ما يفعله ذلك المقعد الذي يتحكم في.. في أجسادنا!.. للحظة لم يحدث أي شيء.. لحظة كانت طويلة وأعيننا معلّقة على تلك الشاشة التي تنقل لنا وظائف أعضاءه.. أختي كانت تجلس جواري وقالت في إحباط؟إن فكرة البرنامج كله مجرد خدعة.. ثم.. ثم.. ثم رأيناه ينتفض فجأة وهو يصرخ بألم رهيب لتتناثر الدماء من فمه على كل شيء.. كل شيء!".

• • •

مقتطف من تقرير الطبيب الذي فحص المتسابق الأول بعد انتهاء الحلقة مباشرة:

"أنسجة الرئة اليمنى كانت محترقة تمامًا دون أن يؤثر هذا على الأنسجة المحيطة بها.. إنها تلك النانوروبوتات.. من كان يظن أنها قادرة على فعل شيء كهذا لو تحكمت بها؟!".

• • •

مقتطف من حوار مع مخرج الحلقة الأولى من برنامج مسابقة العصر:

- " لن أعمل في هذا البرنامج مرة أخرى مهما كان الثمن.. لن أكررها.. مهما كان الثمن.. مهما كان!".

• • •

استغرق الأمر نصف ساعة حتى أمكننا أن نواصل السباق.. وهنا سأكون رحيمًا بك وسأختصر بعض الوقت..

لم يجب على السؤال الثاني.. فخسر كليته..

لم يجب على السؤال الثالث.. فخسر أعصاب الحركة في نصفه الأيسر..

لم يجب على الرابع، فاختار الكمبيوتر مكان الضربة الأخيرة.. ويا ليته ما فعل!

الكمبيوتر -اللعين- اختار فص الذاكرة في مخه!!.. هكذا خرج المتسابق الوغد الأول حيًا، لكنه نصف بشري، لا يذكر حتى زوجته التي كادت تجنّ أو ابنه الذي لم يتوقف عن الصراخ لحظة..

ليته مات.. ليته مات!

بقاؤه على قيد الحياة -وهذا ما ظننته- حوّله لنموذج حيّ لخطر الاشتراك في مسابقتنا، وكل من عارضوا الفكرة في البداية، استغلوا هذا المسخ الذي تبقى، ليكون تجسيدًا ماديًا لدعايتهم السلبية..

لا أخفي عليك أنني كدت أوقف البرنامج تجنبًا للمشاكل، لكن كما يحدث في كل مكان.. بدأت الزوبعة.. هدأت الزوبعة.. نسي الكل الزوبعة!

وما هي إلا أشهر قليلة حتى جاءنا من يوّد الاشتراك في المسابقة..

ثم تبعه ثان..

وثالث..

ورابع..

عشرات أتوا يكتبون أسماءهم ويطالبون بالجلوس على المقعد الرهيب، لأدرك أنا -متأخرًا- أنهم لم يأتوا من أجل المال..

أبدًا..

• • •

كما يحدث في كل مكان.. بدأت الزوبعة.. هدأت الزوبعة.. نسي الكل الزوبعة، وهذه هي المصيبة!

كما بدأنا بضجة لا حدّ لها، ونسبة مشاهدة خرافية حققت لنا أرقامًا تحتاج لقرون لكي ننفقها، ثم بدأت الزوبعة تخفت بالتدريج..

الكل يئس من التفكير، وأصبح مقعدنا مقعد النانو كنترول، ملاذًا لمن يفكرون في الانتحار، لكن لا يجرؤون على اقترافه.. وهكذا تحولت حلقات برنامجنا إلى شيء أشبه بأفلام الرعب الرخيصة التي كانوا يصنعونها في الماضي..

حتى الدعاية السلبية خفتت، مع ظهور أشياء أخرى تستحق الصراخ والاعتراض لفترة، ولم يعد أمامنا حلّ إلا إيقاف البرنامج..

وهو قرار عليّ أنا اتخاذه، لكن من سيدفعون ثمنه لا نهاية لهم..

قرار لا مهرب منه في الواقع، لذا أتى اليوم الذي اجتمعت فيه بمديري القناة التنفيذيين، لأعلن عليهم الخبر المؤسف، ليتدخل مساعدي الأنيق العبقري، قائلاً:

- لا داعي لإنهاء البرنامج.. لديّ فكرة ستعيد له بريقه لفترة طويلة..

- رائع.. ما هي؟

- يجب أن يجلس ضيف خاص على هذا المقعد ليخوض السباق.. ضيف لن يقاوم العالم كله أن يراه عليه..

فصحت في لهفة:

- من هو؟!

- أنت..

-!!!!

• • •

(4)

مساعدي الوسيم الأنيق، فعلها مرة أخرى وأنقذ البرنامج..

ففي سجني زارني ذات يوم ليعرض عليّ كم صفقات الإعلانات التي عقدها ليبثها خلال الحلقة، وليثبت لي أنه كان محقًا تمامًا..

نعم سجني!.. أتظنون أنني وافقت؟!

مساعدي الأنيق الوسيم توقع هذا، وخدّرني في الاجتماع الذي عرض فيه فكرته -والذي عرفت لاحقًا أنه دبّر له منذ زمن- لأستيقظ في زنزانة صغيرة صمموها لي خصيصًا، في مبنى شركتي العملاق..

بالطبع مررت بكل تلك المراحل المعتادة..

الصدمة.. الذهول وعدم التصديق.. هذه دعابة.. أليس كذلك؟!.. الغضب.. الثورة التي لا بداية لها ولا نهاية.. التوسل والرجاء.. وفي



عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

النهاية الاستسلام و..

- متى ستبثون الحلقة؟

أسأل مساعدي الوسيم الأنيق، فيجيبني بعملية تامة:

- غدًا.. استعد جيدًا..

- أنت تعرف أنني لن أقوم من على هذا المقعد حيًا..

فيصمت مساعدي للحظة يبدو فيها شديد الجاذبية وهو يفكر، قبل أن يجيب أخيرًا:

- أعرف.. لكنك تعرف أن الأمر يستحق..

والواقع أنني أعرف وأتفهم موقفه جيدًا!.. من هم مثل مساعدي هذا لا يفكرون إلا بطريقة واحدة.. كيف يمكنك أن تنجز عملك في أفضل صورة؟.. هؤلاء يعيشون ويتنفسون وينامون ويستيقظون ليجيبوا عن هذا السؤال بطريقة عملية، كأنهم آلات مبرمجة لا تفكر في العواقب أبدًا..

لهذا اخترته أنا ليكون مساعدي، ولهذا -ووفقًا لبرنامجه- أتفهم اختياره لي لأكون ضحية المقعد القادم..

حتى أنت لا تنكر أنك تود أن تراني على هذا المقعد، وأنك ترى أن هذا هو القصاص العادل!

- هل لي أن أعرف الأسئلة مسبقًا؟

فيضحك مساعدي ربما لأول مرة منذ رأيته، قبل أن يجيب:

- لن تكون هناك أسئلة.. فقط سؤال واحد..

ثم يتركني ويرحل دون أن يترك لي الفرصة لأسأله المزيد..

سؤال واحد في انتظاري غدًا..

سؤال واحد ولا أحتاج أن أكون عبقريًا لأدرك أن ثمن هذا السؤال هو حياتي ذاتها.. مساعدي لن يتركني بكلية واحدة أسعى خلفه لأهشم عنقه بعد هذه الحلقة!

سؤال واحد يعني حياتي أو هلاكي..

سؤال المليار دولار.. مهلاً.. إن هذا يصلح كاسم مبتذل آخر لبرنامج مسابقات يمكنني أن أخطط له لو نجوت غدًا!

لو..

• • •

وفي تلك الليلة استيقظت على صوت من يهمس باسمي، فظننتني أحلم لولا أن ميّز عقلي المنهك الصوت في النهاية..

إنه.. إنه.. لا أذكر اسمه!.. لكنه ذلك الكهل الذي صمم لي مقعد النانو كنترول.. وهاهو ينادي عليّ بلهفة من الغرفة الملاصقة لي، لأعرف أنه مسجون هو الآخر..

- هل تسمعني؟.. عبر فتحة التهوية في الجدار.. أسرع.. لقد عرفت ما سيحدث لك.. هيييه.. هل تسمعني؟

فاعتدلت على فراشي لأهمس أنا الآخر:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- مساعدك.. لكن هذا لا يهم الآن.. أصغ لي جيدًا، فما سأخبرك به قد يصبح أملنا الوحيد..

صحت في أمل:

- في الهرب؟!

- بل في إنقاذ ما يمكن إنقاذه.. هيا أصغ لي قبل فوات الأوان..

• • •

هل تعرف نسبة من أرادوا أن يروني أموت ببطء؟؟

92%!!!!!!!

أي خبير إعلانات سيخبرك أنها نسبة مشاهدة غير منطقية، ولا يمكن تحقيقها بأي ثمن، لكن يبدو أن حتى الأطفال في عصري أرادوا أن يشاهدوا لحظاتي الأخيرة..

حتى القتلة المتسلسلون لم يبلغوا هذا القدر من الشهرة، لكني طالبت البشر بأن يفكروا، فتحوّلت بالنسبة لهم إلى ما هو أسوأ..

أتاني مساعدي ليخبرني أنه متحمّس لهذه الحلقة، وأنه يشعر أنها ستكون بداية مرحلة انتقالية للقناة..

إنه لا يحمل ذرة إحساس تجاهي..

بالنسبة له أنا مجرد أداة لتحقيق نسبة مشاهدة لا أكثر..

تمامًا كما كان المتسابقون السابقون بالنسبة لي..

كانوا قد نقلوني إلى الاستديو، وكنت قد بدأت أسمع الموسيقى المميزة لتتر البرنامج، فأدركت أنه لم يعد أمامي الكثير..

ولا أمامهم!

وضعوني على المقعد الرهيب، فانتبهت أنني لم أجلس عليه من قبل أبدًا..

لأول مرة أشعر كم هو بارد كئيب مقبض.. لكنها أول وآخر مرة

على أية حال..

حدقت رغمًا عني في الكاميرات المسلطة عليّ، والتي ستنقل عملية إعدامي للعالم كله.. وفي عقلي أخذت أراجع ما اتفقت عليه مع الكهل الذي صمم هذا المقعد والذي سيأتي دوره ليجلس عليه، لو لم أفعل ما عليّ فعله..

انتهت موسيقى التتر أخيرًا لتبدأ الحلقة..

ولتبدأ النهاية..

• • •

لن أنقل لكم تلك الخطبة السخيفة التي ألقاها مساعدي، فهو لا يستحق هذا..

ملخصها أنه أتى اليوم ليشاهد العالم صانع السم -الذي هو أنا!- ليتذوقه.. وهو كما ترون ملخص رديء لخطبة أكثر رداءة..

في النهاية التفت لي، ليلقي بسؤاله الذي يبدو أنه حلم بإلقائه طويلاً:

- السؤال سهل ولا يحتاج حتى للتفكير.. فقط أنعش ذاكرتك وأخبرنا باسم أول متسابق دفع ثمن جلوسه على هذا المقعد..

- ماذا؟!

- أمامك ستون ثانية لتتذكر اسمه.. إنه يستحق هذا، فهو أول من صنع مجدك.. أليس كذلك؟

يا له من وغد!

إنه يعرف لعنتي بعدم تذكر الأسماء، وها هو يستغلها ضدي كأسوأ

ما يكون..

تذكر.. لقد كان مدرسًا.. كان زوجًا.. كان أبًا.. لكنه خرج من هنا نصف مسخ لا يذكر حتى كيف يرتدي ملابسه..

ثم إنه مال عليّ، ليكرر:

- ما.. هو.. اسمه..؟

يا له من وغدا.. يا له من لعين!!

على الرغم من كل شيء، كنت أحمل أملاً في أعماقي، بأن أتمكن بإجابة السؤال لأنهض من على هذا المقعد الرهيب حيًا، لكن مساعدي الأنيق الوسيم أجاد لعبته حقًا..

50 ثانية..

أعتصر خلايا مخي لأحاول إجابة السؤال، لكني أعرف أنني لن أجده..

زوجته انتحرت بالمناسبة.. أمّا ابنه فقد انتقل إلى أحد الملاجئ، فلم يعد له أم أو أب يصلح لأن يكون أبًا.. كل هذا بسبب مسابقتك العظيمة.. ما.. هو.. اسمه..؟؟

أنا أذكر وجهه جيدًا.. وأذكر نظرة الصدمة التي تبدت في عينيه حين سمع سؤاله (الحقيقي) الأول.. لا بدّ أنها النظرة ذاتها التي تحملها عيناي الآن..

40 ثانية..

حين تعيش حياتي.. حين تعمل عملي.. تتحول الحياة بالنسبة لك أرقاما..

صفقات بأرقام.. أرباح بأرقام.. نسبة مشاهدة بأرقام..

مع السنوات تذوب الأسماء من ذاكرتك وتتلاشى.. حتى مساعدي ذاته لا أذكر اسمه، بل أعرف أنه مساعدي فحسب!

30 ثانية..

حتى الكهل الذي صنع هذا المقعد والذي وضع لي خطة النهاية.. لا أذكر اسمه.. لم أهتم حتى أن أسأله عنه في ليلتنا الأخيرة معًا..

إنه مجرد رقم.. رقم في سجل من أتعامل معهم.. ورقم تقاضاه هو مني حين انتهى من صناعة المقعد..

أمّا اسمه؟؟.. فلا أعرفه..

20 ثانية..

العالم كله -تقريبًا- ينظر لي عبر عدسة الكاميرا التي أحدّق أنا فيها، ينتظر مني إجابة السؤال، فلا أعرف إن كانوا يتمنون أن أجيب عليه أم لا..

إن صورتي الآن على المقعد تصلح كبوستر الدعاية الذي حلمت به لهذه المسابقة..

كل ما أردته أن يفكروا.. أو أن يدفعوا الثمن لأتقاضاه أنا..

10 ثوان..

عشر ثوان هي كل ما أملكه لأسترجع ما اتفقت عليه مع الكهل الذي صنع هذا المقعد والذي لم يعد اسمه يهم الآن..

عشر ثوان وستنطلق الصافرة، فالإشارة التي ستدفع النانوروبوتات في جسدي لشي مخي أو قلبي أيهما أسرع لموتي!

5 ثوان..

أحرّك عيني أخيرًا لأنظر إلى ثقب المحقن الذي حقنني به الكهل

ليلة أمس في ذراعي.. هو أخبرني أن هذا سيكفي.. أن الفصيلة الجديدة من النانوروبوتات -اختراعه الأخير- التي حقنها في جسدي ستقوم باللازم..

ما.. هو.. اسمه..؟..؟

4 ثوان..

ستمرّ الثواني وستطلق الصافرة، ثم ستتلقى الفصيلة الجديدة الإشارة لتبثها إلى العالم أجمع.. نعم.. لن أهلك وحدي هذه المرة..

بهذه الفصيلة سأتحول إلى نواة تنشر الشيء الوحيد الذي ينقصنا في هذا العصر..

الموت!

3 ثوان..

الكهل أخبرني أنه لم يجرّب اختراعه، لكنه الأمل الوحيد الذي نملكه.:

الأمل في أن نضع حدًا لهذا كله..

للحياة الصناعية التي نحياها..

للصحة التي لا نستحقها..

لعقولنا التي نسيت الألم والخوف والأمل..

ثانيتان..

خطئي سأصححه بأن أجعل العالم كله يدفع الثمن معي.. ومن سينجون، سيكون عليهم أن يتعلموا الدرس جيدًا وأن يعوه..

أن (يفكروا) فيه..

الإشارة التي سيبثها جسدي ستحوّل جيوش الروبوتات في أجسادنا إلى جيوش إعدام، لكنها لن تحصد الجميع..

فقط من يستحقون!

ثانية واحدة..

يردد مساعدي للمرة الأخيرة:

- ما هو اسمه؟؟

فأجيب أنا أخيرًا:

- اذهب إلى الجحيم!

وتنطلق الصافرة.. الإشارة..

من المقعد.. ومن جسدي..

إلى العالم كله..



عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

الآن أفهم

قليلة هي الأشياء التي تثير اهتمامي.. وهذا ما صنع مني أشهر صحفي في المدينة..

أنا لا أكتب عن كل الترهات التي يكتب عنها الباقون ليل نهار.. فلا شيء مما يكتبونه يستحق ثمن الحبر الذي طبع به في رأيي.. فقط ما يثير اهتمامي إلى أقصى حد هو الذي أكتب عنه، وكما قلت سابقًا..

قليلة هي الأشياء التي تثير اهتمامي..

صحيح أن هذا يعني أنني أعمل أقل منَ زملائيَ، لكني أربح أكثر والمنطق بسيط وواضح.. حافظ على اسمك وسيرتفع سعرك.. لو أضعت عمرك في الكتابة عن كل سخافة تكتظ بها الحياة، ستتحول إلى واحد من هذه السخافات، أمّا لو حافظت على اسمك، فسيتنافس الكل للحصول على سطر تكتبه، وستحصل في المقالة الواحدة على ما يحصل عليه عشرة من زملائك في أشهر من العمل الممض السخيف..

يحتاج الأمر إلى قوة إرادة غير طبيعية، وعين ثاقبة تبحث بلا كلل أو ملل عمّا يثير الاهتمام.. وبالطبع إلى العديد من العلاقات التي تسهل لك الوصول إلى هذه الأشياء، لذا حين اتصل بي صديقي (رأفت) أدركت أنه يحمل لي ما سيثير اهتمامي حقًا..

يعاني (رأفت) مثلي من حالة فقدان الاهتمام بأي شيء، وهذا ما دفعه للعمل كمدير لأحد السجون، فهناك – على حد قوله – ستجد أنماطًا مثيرة للاهتمام حقًا من البشر..

هناك ستجد قصصًا تستحق أن تروى، وأشخاصًا يستحقون أن تمنحهم جزءًا من وقتك الثمين..

لذا حين اتصل بي (رأفت) طالبًا مني أن أسرع إليه، أدركت أنني سأحصل على قصة تستحق ثمن الحبر الذي ستطبع به.. خاصة أنني اشتممت رائحة جديدة في صوت (رأفت)..

رائحة الخوف..

وهي رائحة من الصعب أن تجدها في صوت مدير سجن، يقضي أغلب وقته مع القتلة واللصوص والمغتصبين ومن هم أسوأ.. مدير سجن يشرف يوميًا على إعدام رجل أو رجلين ويستقبل يوميًا العشرات بدلاً منهم..

مدير سجن لن يطلب مني المجيء فورًا إلا لو كان الأمر يستحق..

لذا لم تمض نصف ساعة على اتصاله بي حتى كنت في مكتبه، أنتظر أن يتمالك نفسه ليحكي لي ما حدث بالضبط.. وحين بدأ أخيرًا، كان أول ما قاله:

- لا أعرف تفسيرًا لما سأخبرك به لذا لا تطلب مني واحدًا.. فقط اصغ لي جيدًا.. أنت تعرف أن كل سجن فيه قبو خاص للاحتفاظ بالسجلات القديمة، وما تبقى من المساجين الذين يتم إعدامهم، دون أن يطالب أحدهم بما تبقى منهم.. وأنت تعرف أيضًا أن أي قبو لا يستحق اسمه إلا لو غطى الغبار وأنسجة العناكب كل ما فيه، لذا لا ندخله إلا لو كنّا مضطرين، وفي الأغلب لا يحدث هذا إلا كل بضع سنوات.. وليلة الأمس كانت من الليالي السوداء التي اضطررنا فيها إلى فتح القبو..

- لماذا؟

- لنبحث عن بعض الملفات القديمة.. لا يهم السبب، المهم هو ما عثرنا عليه هناك..

قالها ومدّ يده أسفل المكتب ليخرج هاتفًا قديمًا، غطى الصدأ أجزاءه المعدنية، قد تدلى منه سلك مقطوع قصير، وقد بدا عليه أن أحدهم نظفه من الغبار بلا اهتمام.. هاتف رأيته لأصيح حانقًا:

- أهذا ما جئت بي من أجله؟!.. هاتف قديم؟!

- المسه..

- ماذا؟؟

- المسه بيدك.. الآن..

قالها بصوت لا يرد عليه، فمددت يدي بتردد لألمس الهاتف و.. و..

إنه قطعة من الثلج!!.. لا.. حتى الثلج لم يكن بهذه البرودة من قبل!!

- إنه بارد.. أليس كذلك؟

قالها (رأفت) فأجبت ذاهلاً:

- بارد؟.. لو عثرتم عليه في القطب الشمالي فلن يكون بهذه البرودة.. لكن..

- أعرف.. أنا لم أضع وقتك لتلمس هاتفًا باردًا، يحتفظ ببرودته مهما كانت درجة حرارة الغرفة.. أشياء كهذه قد تبدو غريبة، لكنها لا تثير اهتمامي مثلك.. والآن.. ارفع السماعة وضعها على أذنك..

هنا بدا لي الأمر سخيفًا ومؤلمًا.. لماذا أضع سماعة هاتف يتدلى سلكه المقطوع، على أذني إلا لو كنت أريد أن أجمّد رأسي ببرودته غير الطبيعية؟..

لاحظ (رأفت) ترددي، فقال:

- لا بأس.. سأشرح لك أولاً . هذا الهاتف هو ما نسميه (هاتف



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

المكالمة الأخيرة).. عادةً من يحكم عليهم بالإعدام، يسمح لهم بمكالمة أخيرة قبل تنفيذ الحكم.. وعادة ما تكون هذه المكالمات عبارة عن بكاء متبادل وندم بعد فوات الأوان.. ثم إنك، لن تكلم أي شخص لو كنت ستموت بعد بضعة دقائق.. ستفكر طويلاً ومليًّا في من ستحدثه، وفيما ستقوله له.. هذه المكالمات يتم تسجيلها وهذه التسجيلات لا يسمح لأحد أن يستمع لها إلا للضرورة القصوى..

قلت وقد بدأت أشكل استنتاجًا في ذهني:

- وأين هذه التسجيلات الآن؟

فأجابني باقتضاب:

- لن تحتاج إليها.. فقط ضع السماعة على أذنك لوقت كاف وستصغي لها..

- ماذا؟!!

- لا أملك تفسيرًا كما أسلفت.. لسبب ما وبطريقة أعجز حتى الآن عن استيعابها، يحتفظ هذا الهاتف بالعديد من المكالمات التي تمت بواسطته.. ولو وضعت السماعة على أذنك لفترة كافيه ستبدأ في الاستماع إليها واحدة تلو الأخرى..

قالها فصحت بذهول:

- لكن هذا مستحيل.. (رأفت) لو كانت هذه دعابة سخيفة فـ.

- يمكنك أن تفككه لتفحصه بنفسك.. فعلتها أنا ولم أجد فيه ما يريب أو يثير الاهتمام.. مجرد هاتف قديم غير صالح للعمل بالمرة.. فقط هو بارد كالثلج ويعيد بث مكالمات من انتهى بهم الأمر إلى حبل المشنقة..

أخذت أحدق في الهاتف عاجزًا عن الوصول إلى أي حل منطقي لهذا اللغز، وإن أخذ الصحفي في أعماقي يصرخ:

"هذا شيء مثير للاهتمام.. هذا شيء يستحق أن تكتب عنه.. افعلها وإلا.."

لذا سألت ببطء:

- هل يمكنني أن..؟

- إنه لك..

باغتني قوله، ولاحظ هو هذا ليردف:

- لا حاجة لنا به.. لن يطالب به أحد ولن أقضي عمري لأستمع لمكالمات من استحقوا الإعدام.. يمكنك أن تأخذه لو كان يثير اهتمامك..

هنا تجاهلت وقاري المعتاد وبرودة الهاتف غير الطبيعية، لألتقطه من على سطح المكتب، ولأهبّ واقفًا، وأنا أقول:

- إذن أستأذنك في الانصراف.. فأمامي ليلة من العمل الطويل..

ودون أن أنتظر رده أسرعت مغادرًا المكان..

• • •

ولقد كانت ليلة من العمل الطويل حقًا..

ولو رآني أحدهم في تلك الليلة، لظنّ أنني جننت وأنا أمسك بهاتف لا حرارة فيه، وألصقه على أذني لأكتب..

في البداية لم يحدث شيء.. فقط ازرقت أناملي وأطراف أذني من برودة الهاتف التي لا ترحم، ثم بدأت الأصوات تأتي من بعيد غير

واضحة، وممتزجة بشوشرة مزعجة، كتلك التي تسمعها حين تحاول ضبط محطات الراديو.. ثم وفي النهاية أصبحت واضحة تستحق أن تصغي لها حقًا..

الأنفاس الثقيلة كل مرة.. أنفاس رجل ستتهشم فقرات عنقه بعد دقائق بحبل المشنقة.. أنفاس رجل يعرف جيدًا أن ما سيقوله الآن سيكون آخر ما ينطق به لسانه.. أن من سيتصل به سيكون آخر دليل على أنه كان في هذه الحياة وكان هناك من يعرفونه..

أحيانًا ما كانت الأنفاس الثقيلة تتحول إلى مرح زائد، وهي هستيريا ما قبل الموت التي تصيب البعض.. هؤلاء يمزحون ويضحكون بصورة مبالغ فيها، ثم يتحول هذا كله إلى صراخ رهيب، حين يغطون وجوههم بالقناع الأسود.. وأحيانًا تتحول هذه الأنفاس إلى بكاء..

إحدى المكالمات التي استمعت لها الليلة كانت لمحكوم عليه بالإعدام، يحاول الاتصال بابنته ليستمع إلى صوتها مرة أخيرة، لكنها لم ترد.. هكذا أخذ يحدث نفسه كأنه يحدثها..

كأنه يترك الرسالة للأثير علّه يرفق به ويحملها لابنته..

والواقع أن من يستقبلون هذه المكالمات لا يكونون في حالة أفضل.. تخيل أنّ (أبيك / أخيك / ابنك / صديقك / قريبك) يتصل بك، ليخبرك أنه سيموت الآن، لكنه احتاج أن يسمع صوتك أولاً.. فما الذي ستقوله؟

يبدو الأمر قاسيًا.. أليس كذلك؟.. على الأقل هو من سيتهشم عنقه لا أنت..

محكوم عليه آخر أخذ يحدث زوجته طويلاً، ليعتذر لها عن كل

شيء وليطلب منها أن تدعو له بالرحمة، ليكتشف في النهاية أن الرقم خطأ، وأن تلك الزوجة ظنت أن هناك من يمازحها، فنادت زوجها، ليمنحه بعض الحسنات الأخيرة، بسباب لا مجال لذكره هنا..

يبدو الأمر مثيرًا للسخرية.. أليس كذلك؟.. على الأقل لن يسبك أحدهم بعد الآن!

هكذا مرّت عليّ الساعات طويلة ثقيلة الوطء، حتى جاء الفجر أخيرًا، فأعدت سماعة الهاتف مكانها، وألصقت قماشة دافئة بأذني، وأخذت أفكر..

كيف سأحكي هذا كله؟!

سأقول إنه هاتف مسكون؟.. سيسخر مني الجميع.. سأقول إنني اطلعت على التسجيلات بوسيلة ما؟.. سيدفع (رأفت) الثمن.. فما الحل إذن؟؟

هذا الهاتف احتفظ بهذه المكالمات لحكمة ما، وعليّ أنا أن أعمل كيلا تنتهي هذه الحكايات بانتهاء الهاتف.. عليّ أن أكتبها وأنشرها.. عليّ أن أضمن لها الحياة، ولكن كيف؟؟

كيف؟؟

نعم.. وجدتها.. الحل الوحيد هو أني أحكيها كأنها قصص.. قصص من نسج الخيال، وفقط من سيبحثون عن أنفسهم فيها، سيجدون مبتغاهم..

ستكون قصصًا جديرة أن تحكى، وستكون نقلة في تاريخي الصحفي، لكن.. لندع هذا كله قليلاً، فمن حقي أن أنام بعد ليلة طويلة قضيتها مع مكالمات الموتى..

من حقي أن أنااااااااااام..

• • •

لكني حين استيقظت أدركت أن هناك شيئا ما غير طبيعي..

أولاً الوقت ليلاً.. لقد نمت طيلة النهار إذن، لكني لم أنم بهذا العمق من قبل.. ثانيًا.. الغرفة كلها باردة، مع أننا في أغسطس، وأنا لا أملك تكييفًا.. إنني أمقت الهواء الاصطناعي الذي يبثه، إذن..

من أين أتت هذه البرودة؟

ثم والأهم من هذا كله، أنني استيقظت على صوت جرس هاتف..

صوت جرس قديم لم أعتد سماع مثله منذ سنوات طويلة.. صوت جرس مرتفع كأنه يحذرك ألا ترد عليه.. صوت جرس ينبعث من هاتف مقطوع السلك يبث مكالمات الموتى!!

(رأفت) لم يخبرني أنه يفعلها، وليس لي أن أندهش طويلاً.. الهاتف غير طبيعي بالمرة، وكونه يرن دون أن يمنحه سلكه الحرارة، ليس بأغرب شيء فعله حتى الآن..

لكن السؤال هو – على الرغم مما في الأمر من سخرية – من الذي يتصل؟!!

احتجت للحظات لأنفض النعاس عن عيني، لم يتوقف الهاتف خلالها عن الرنين، قبل أن أمدّ يدي أخيرًا لألتقط السماعة الباردة، ولألصقها بوجهي..

وبتردد لن تلوموني عليه، قلت:

- ألو...

فجاوبتني الأنفاس الثقيلة.. الأنفاس المرهقة.. الأنفاس التي تعلن أن صاحبها في طريقه ليتدلى من حبل المشنقة..

- ألو..

كررتها منتظرًا ردًا، فاجأني حين انبعث ذلك الصوت العابث يقول:

- كيف حالك يا (حسين)؟..

لكنني لست (حسين)!.. حاولت أن أقولها، لكن الصوت العابث واصل:

- سأذهب إلى غرفة الإعدام بعد قليل.. أنت تعرف هذا.. لقد منحوني هذه المكالمة، ففكرت أنه لا بأس أن نتشارك بعض الذكريات الجميلة.. أتعرف؟.. الشيء الوحيد الذي ندمت عليه أنني سمحت لهم أن يقبضوا عليَّ.. طيلة الفترة الماضية لم أكن أحلم سوى بمغامرتنا يا (حسين)..

وتوقف لحظة، ثم قال:

- أتذكر كيف كنّا نفعلها.. نقضي الليل كله نبحث عن هدفنا، قبل أن نتعقبه حتى يصل إلى مكان لا يرانا فيه أحد.. بعدها كنّا نهجم عليه لنفقده الوعي.. بسرعة ودون أن يشعر حتى هو بما حدث له.. أتذكر يا (حسين)؟.. أتذكر كيف كنّا نحمله في شاحنتك إلى منزلنا البعيد؟.. كنا نأخذ هدفنا إلى هنا ونقيده جيدًا، قبل أن نوقظه.. وحينها.. كان المرح يبدأ..

ثم أطلق صاحب الصوت العابث ضحكة طويلة، قبل أن يقول:

- كنت دائمًا ما أغلبك يا (حسين).. دائمًا كنت أبقي على حياة

الهدف لأطول فترة ممكنة، بينما كنت تقتله أنت بسرعة.. أتذكر رقمنا القياسي.. 18 ساعة و43 دقيقة. هذا الرجل ظلّ على قيد الحياة 18 ساعة و43 دقيقة كاملة.. يومها أثبت لك صحة نظريتي.. لو قطعت ساقيه من أسفل الركبة سينزف أقل، ويبقى على قيد الحياة لفترة أطول..

عند هذه المرحلة كانت برودة الرعب في أعماقي أشد وأقسى من برودة الهاتف..

عمّ يتحدث هذا الرجل بالضبط؟!!

- (حسين).. ما زلت أذكر فكرتك في أن نعلق محلولاً للهدف أثناء تمزيق أطرافه، وكيف أن هذا سيطيل بقاءه ثلاث ساعات كاملة.. أتعرف؟.. الشيء الوحيد الذي كنت أخاف منه هو أن يظل الهدف على قيد الحياة بعد كل ما نفعله.. لست أحب أن أضطر لخنق رجل بعد أن فصلنا ذراعيه وساقيه عن جسده.. صدقني.. سأشعر أنني نذل لو فعلتها..

!!!!!!!

نذل!!!.. إنه مجنون!!!!

- هذه الأيام انتهت يا صديقي يوم قبضوا عليّ.. لا أحسبك ستواصلها بمفردك.. أعرف أنك أخبرتني أنك ستفعلها، لكني أشك.. لن تستمتع بمفردك.. ولهذا سينجو هدفنا الأخير.. أتذكر اسمه؟.. إنني لا أذكره.. ذلك الصحفي الطويل الذي يعيش بمفرده.. لقد كنّا ننوي أن نلهو معه في منزله هذه المرة، لكنهم قبضوا عليّ يا حسين.. قبضوا عليّ ولا يزالون يبحثون عنك.. لا تخف، فلم أمنحهم أي شيء يقودهم إليك.. سأفتقدك يا (حسين).. فهل ستفتقدني؟؟

تلاشى العبث مع صوته مع آخر كلماته، ثم قال أخيرًا:

- وداعًا يا (حسين)..

ثم أنهى الاتصال، ليتركني أرتجف..

وببطء شديد أعدت السماعة مكانها.. ثم جلست على حافة الفراش، أحاول أن أستوعب ما سمعته..

إنهما قاتلان.. مهووسان لو شئنا الدقة..

احدهما تم إعدامه، والآخر -حسين- لا يزال طليقًا، وربما وجد متعته في متابعة (مغامراتهما) بمفرده..

وأنا الآن الوحيد الذي يعرف سرهما.. فما الذي عليّ أن أفعله؟؟

(رأفت)!.. يجب أن أتصل بـ (رأفت) وأبلغه بكل شيء و.. و..

وفجأة تلقيت تلك الضربة على رأسي، ليظلم كل شيء..

• • •

وحين استيقظت هذه المرة كان كل شيء غير طبيعي..

كنت مقيدًا في ردهة المنزل إلى أحد المقاعد الثقيلة، وكان هنالك من يدس أن[illegible] ال[illegible] في أوردتي، [illegible] امة على فمي تعلن أنها لن تسمح لصرخاتي بمقاطعة متعته..

وعلى الرغم من أنه كان يرتدي قناعًا على وجهه، عرفت من هو..

(حسين)..

الآن أفهم لماذا رنّ الهاتف لي.. ليحذرني..

الهاتف أراد أن ينقذ حياتي لكنني تأخرت في الفهم..

الآن ينظف (حسين) ذلك المشرط بهدوء شديد، تمهيدًا لبدء

(مغامرته) الجديدة..

الآن أفهم..

لكن بعد فوات الأوان.

• • •

عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

تلك الشجرة

(1)

أنا أعرف عملي جيدًا وأنفذه بدقة متناهية..

أنا أستيقظ في تمام الخامسة صباحًا.. أغتسل.. أرتدي ملابسي.. أنطلق إلى عملي لأصل في تمام السادسة..

أقف حيث طلبوا مني أن أقف من السادسة صباحًا حتى التاسعة مساءً.. حينها ينتهي عملي لأعود إلى المنزل..

هذا هو عملي!

قريبي الذي توسّط لي ليمنحوني هذا العمل، قال لي إنه أشبه بعمل رجال الأمن.. وأنا أحبّ رجال الأمن.. أحبّ الزي الذي يرتدونه وها أنا أرتدي ملابس تشبه ملابسهم..

لا.. لم يمنحوني سلاحًا كرجال الأمن، وقريبي أخبرني أنني لن أحتاجه.. أخبرني أنه من هم بـ (حالتي) لا يحملون أسلحة..

لا أعرف ما هي حالتي بالضبط، لكني أذكر أمي وهي تبكي..

كانت تراني فتبكي وتردد:

- كيف سأتركك وحيدًا دون أن تجد من يرعاك؟

ولم أفهم حينها لماذا كان عليها أن تتركني.. لم أفهم حتى أتى اليوم الذي حاولت فيه إيقاظها فلم تستيقظ.. حاولت كثيرًا وطويلاً لكنها ظلت راقدة على فراشها نائمة دون أن تردّ عليّ وأنا أنادي عليها باسمها..

بعدها أتى أقاربي ليأخذوها، وأخبرني قريبي الذي منحني هذا العمل، أنها ذهبت إلى هناك..

إلى السماء..

أخبرني أنني سأراها مجددًا حين يحين الوقت.. لكني لا أعرف متى بالتحديد..

لكني سأنتظر.. فأنا أريد أن أرى أمي مرة أخرى.. أريد أن أعرف منها ما الذي قصده أحد أقاربي حين أشار لي، ليقول:

- إنه متخلّف..

ما الذي كان يعنيه بالضبط؟.. لن أعرف حتى أرى أمي مجددًا!

لكني أحبّ عملي الجديد الذي منحني إياه قريبي.. أحبّ الزي الذي أرتديه وأحبّ أصحاب هذا العمل الذين يبتسمون كل مرة يرونني فيها..

حتى المبنى الذي أقف لأحرسه طيلة اليوم جميل بحق.. مبنى أبيض أنيق يتكون من طابقين ذو بوابة أمامية عليها رجل أمن يحمل سلاحًا -رغم أن قريبي أخبرني أنه لا حاجة للسلاح هنا!- وبوابة أخرى خلفية أقف أنا عليها، وكل ما عليّ فعله هو الضغط على زر في الجدار، لو رأيت أحدًا يخرج من هذه البوابة، التي لم أرها تفتح ولو لمرة واحدة منذ أن بدأت عملي هنا..

لكني سأنتظر..

في يوم من الأيام سيحاول أحدهم الخروج من هذه البوابة، حينها سأسرع إلى الزر في الجدار لأضغط عليه بكل قوتي..

هذا هو عملي هنا وأنا أعرفه جيدًا وأنفذه بدقة متناهية..

• • •

وفي أحد الأيام أتى من يقف جواري عند هذه البوابة الخلفية، وعرفت أنه ممن يعملون في هذا المبنى، فقميصه كان يحمل الشعار المرسوم ذاته على واجهة البناية..

كان رجلاً نحيلاً يرتدي نظارة ذهبية الإطار، وكان قد أتى إلى هنا

ليدخن فالتدخين ممنوع منعًا باتًا في الداخل.. عرض عليّ سيجارة فرفضت على الفور..

أمي -التي هي في السماء الآن- أخبرتني سابقًا أن السجائر مضرّة.. أخبرتني أنها تقتل وأنني يجبّ ألا أدخن أبدًا.. وأنا اعتدت أن أطيع أمي مهما كان مكانها..

هكذا وقف هذا النحيل جواري وقد أسند ظهره للجدار ليدخن في هدوء، فتحاشيت النظر إليه، ورآني هو أتحاشاه فابتسم في هدوء، وأنهى سيجارته ليعود من حيث أتى..

فقط لاحظت أنه ترك عقب سيجارته على الأرض، فحملتها باستياء لألقي بها في صندوق القمامة، وأنا لم أكن قد فتحت صندوق القمامة الضخم هذا من قبل، فرأيت ما فيه لأول مرة..

كل تلك الأكياس والأدوات والأقمشة كانت ملوثة بالدماء..

نعم.. أنا أعرف الدماء، فأمي كانت تسعل الكثير من الدماء قبل أن تصعد إلى السماء.. كنت أقضي الليل جوارها وهي تسعل، حتى تغيب في النوم مجددًا، لأنظف كل شيء منتظرًا أن تستيقظ لتسعل من جديد..

أنا لا أعرف ما الذي يحدث في هذا المبنى، لكن لا بدّ أنه مليء بالمرضى الذين يسعلون الدماء مثل أمي..

نعم.. إنهم يدخنون ويسعلون الدماء.. لكني لن أفعل مثلهم أبدًا..

فقط أتمنى أن يحين وقتي لأصعد إلى السماء أنا أيضًا لأرى أمي..

متى يحين وقتي؟

متى؟؟

• • •

أنا أعيش بمفردي منذ أن رحلت أمي..

بعد أن أنهي عملي أعود إلى منزلي سيرا على الأقدام، فأنا لا أحبّ العودة إلى المنزل.. لا أحبّ أن أعود إلى وحدتي فيه..

حين أصل إليه أجده باردا خاويا، وكانت أمي تنتظرني فيه سابقًا، فأجده دافئًا وكنت أشمّ رائحة الطعام الذي أعدّته لي لأشعر بالسعادة..

أمّا الآن فأعود إليه لأجده مظلمًا، ولأجد الطعام الذي أعدته لي جارتي باردًا على الطاولة. جارتي كانت صديقة أمي الوحيدة، وهي من تطهو لي الآن.. لكنني لا أحب مذاق طعامها ولا آكله إلا مضطرًا..

في بعض الأحيان كنت أعود فلا أجد طعامًا لأنها نسيت أو انشغلت، حينها كنت أنام جائعًا وانا أحلم بطعام أمي ومذاقه الطيّب..

وفي بعض الليالي كنت أشعر بالوحدة الشديدة فأبدأ في البكاء.. لكنني لا أخبر أحدًا بهذا، فقريبي الذي وصفني بـ (المتخلف) رآني أبكي ذات مرة، فقال إنني أبدو كالفتيات الصغيرات..

أنا أكره قريبي هذا وأعرف أنه يكرهني!

لكني كنت أنام فأستيقظ في تمام الخامسة صباحًا.. أغتسل.. أرتدي ملابسي.. أغادر منزلي البارد الوحيد، لأنطلق إلى عملي حيث أعرف ما عليّ فعله بالتحديد.

• • •

مرة أخرى رأيت ذلك النحيل قادمًا تجاهي وسيجارته في يده، يهمّ بإشعالها فبدا عليّ الضيق، وشعر هو بهذا هذه المرة، ليبتسم وليقول:

- أتضايقك رائحة السجائر؟

فلم أردّ عليه.. عملي واضح وصريح

أنا أقف هنا أحرس المكان، ولو خرج احدهم من البوابة الخلفية، فعليّ أن أضغط على الزر على الجدار..

غير مسموح لي بالتحدث مع أحد.. بمحاولة الدخول للمبنى.. بترك مكاني أثناء ساعات العمل الرسمية..

هكذا لم أردّ عليه، ولم يهتمّ هو بهذا، بل وقف على مسافة منّي ليشعل سيجارته، وليبدأ في التدخين بهدوء كالمرة السابقة..

أنا لا تضايقني رائحة السجائر كما يظنّ، لكني لن أخبره بهذا.. لن أرد عليه حتى لو..

- أنا أعمل في المعمل هنا..

قالها دون أن ينظر لي فلم أرد عليه..

- أقضي اليوم بطوله في المعمل كأني سجين فيه.. لهذا أخرج منه أحيانًا لأدخن.. وأنت.. ألا تشعر بالملل هنا؟!

لا.. لا أشعر بالملل.. لكني لن أرد عليه!

أمّا هو فواصل كأنه يحدث نفسه:

- تحاليل.. فحوصات.. أشعات.. نتائج.. هذا هو عملي الذي أكرره كل يوم منذ أن بدأت العمل هنا.. صدقني.. أنا مثلك لا أعرف ما الذي يدور في الداخل، لكنهم يدفعون جيدًا.. لا تنكر هذا!

يدفعون؟؟

قريبي الذي منحني هذا العمل أخبرني أنه بدون مقابل!.. أخبرني أنهم سيسمحون لي بالوقوف وارتداء هذا الزي الجميل لو أديت عملي كما يجب، لكنه لم يخبرني قط أنهم يدفعون!!

أشار النحيل للمبنى وقال:

- أتعرف أنهم صمموا هذا المبنى بحيث تكون جدرانه عازلة للصوت.. هكذا لا يعرف أحد منّا ما يدور في الغرفة المجاورة.. لا يعرف أحد منّا من يعمل هنا وما الذي يعمله.. كل هذه التحاليل والفحوصات.. كأننا نعمل في مستشفى سري هنا!

نعم.. مستشفى!

كنت أعرف أن المبنى مليء بالمرضى الذي يسعلون الدماء.. لهذا رأيت كل هذه الأشياء الملوثة بالدماء في سلة القمامة الضخمة قربي..

لكن لا يهم.. فليكن سجنًا حتى.. أنا هنا لأؤدي عملي فحسب، وقريبي الذي منحني هذا العمل أخبرني أنني سأظل فيه، طالما صمت ولم أسأل أسئلة لا داعي لها..

- لكنك لا تعرف شيئًا بالطبع.. لهذا اختاروك.. إنهم عباقرة.. أن يختاروا شخصًا بحالتك هذه ليعمل هنا..

حالتي؟.. مرة أخرى أجد من يذكر (حالتي) دون أن أفهم ما الذي يعنيه بالضبط..

أمّا النحيل فسعل فجأة ليطفئ سيجارته -على الأرض- قبل أن يلوّح لي مودعًا، ليعود إلى الداخل..

شعرت بالغضب هذه المرة حين رأيت عقب سيجارته على الأرض، وقررت أنني لو رأيته مرة أخرى يدخن، فسوف أضغط على الزر على الجدار..

نعم.. سأكذب وأقول إنه خرج من الباب الخلفي..

هكذا حملت عقب السيجارة، واتجهت مرة أخرى إلى سلة القمامة الضخمة، وأنا أشعر ببرودة غريبة تحيط بي فجأة كأننا في الشتاء و.. و..

ومن جدار المبنى خرجت تلك الفتاة التي غطت الدماء وجهها وشعرها، لتتجه نحوي مباشرة!

• • •

(2)

حين كنت صغيرًا رأيت شبحًا يدخل عليَّ غرفتي!

أنا أذكر هذه الليلة جيدًا.. كنت نائمًا على فراشي في غرفتي، حين سمعت صوت الطرقات على نافذة الغرفة، فاستيقظت لأتجه إليها..

في البداية لم أر أي شيء.. ثم.. ثم..

ثم رأيتها..

امرأة عجوز قبيحة ظهرت فجأة خلف النافذة، ونظرت لي مباشرة وهي تهمس باسم أمي، فصرخت في رعب لدرجة أنني بللت ملابسي.. اختفت المرأة العجوز، لكنني أخذت أصرخ وأصرخ..

ليلتها استيقظت أمي على صراخي، وحين رأت ملابسي صفعتني لأول مرة في حياتي، فأخذت أبكي دون أن أستطيع التوقف..

لكن أمي لم تكن قاسية.. ليلتها وبعد أن هدأت قليلاً، أعدّت لي كوبًا من الحليب الدافئ وأخذتني لأنام جوارها في غرفتها، فحكيت لها كل شيء..

وحين انتهيت ربتت أمي على رأسي بحنان، وأخبرتني أنني لو رأيت شبحًا مرة أخرى، فعلي أن أغمض عيني وأفكر في شيء أحبّه.. بعدها سأفتح عينيَّ لأجده وقد اختفى!

لم أنس هذه الليلة أبدًا، لكني لم أر أشباحًا بعدها..

حتى أمي لم أعد أراها.. فهي كما أخبرني قريبي هناك..

في السماء..

• • •

وأنا أعرف أنني لست ذكيًا، فأنا لا أجيد القراءة والكتابة كقريبي الذي وصفني بـ (المتخلف)، لكني أعرف أن البشر لا يخرجون من الجدران.. هكذا عرفت أنها شبح..

رأيتها تخرج من الجدار فتجمدت في مكاني، وقد زادت البرودة من حولي أكثر وأكثر، ثم رأيتها تتجه نحوي..

كانت فتاة صغيرة وكانت ترتدي ثوبًا أبيض، لكنه كان ملوثًا بالدماء.. وجهها وشعرها أيضًا كانا ملوثين بالدماء.. وكانت تبتسم!

تذكرت ما علمتني أمي إياه، فأغلقت عيني وأخذت أبحث عن شيء أحبه لأفكر فيه..

أنا أحبّ المربى.. لكن لم يعد أحد يحضرها لي منذ رحلت أمي.. أنا أحبّ القطط، لكن قريبي الذي منحني هذا العمل أخبرني أنه لن يكون عندي وقت لأقتني قطة.. أنا أحبّ أمي لكنها تركتني و..و..

أنا.. أنا..

أنا خائف!

كانت الفتاة المخيفة تتجه نحوي وهي تشير بإصبعها تجاهي، فأغلقت عيني بقوة والبرودة من حولي تشتد وتشتد، ثم شعرت بها تمرّ من جواري لتتجاوزني، ولتواصل طريقها مبتعدة..

أنا.. أنا..

أنا نجوت!

فتحت عيني ببطء فرأيتها تواصل طريقها إلى تلك الصحراء التي تحيط بنا، لتتجه إلى تلك الشجرة الضخمة وسط الرمال.. وكانت تشير بإصبعها تجاه الشجرة..

فتاة خرجت من الجدار وتتجه إلى الشجرة.. أنا لا أفهم شيئًا!

هكذا اعتدلت وأخذت أنظر لها في حيرة، لتلتفت هي لي ولتقول شيئًا ما لم أسمعه، قبل أن تدخل الشجرة لتغيب في جذعها..

ما رأيته أخافني بشدة، لكني لم أتمكّن من الهرب حينها.. غير مسموح لي بترك مكاني خلال ساعات العمل الرسمية!

لكني لم أضغط على الزر في الجدار كذلك.. لم أجرؤ على الحركة لشدة خوفي..

ثم إن الفتاة لم تخرج من البوابة الخلفية، بل من الجدار والآن اختفت في الشجرة كأنها لم تكن موجودة أصلاً..

أنا أذكر أن هذا كان آخر شيء رأيته..

بعد هذا شعرت بظلام يحيط بي فجأة.. بأنني عاجز عن الوقوف.. بأنني أسقط على الأرض و.. و..

ولم أعدْ أذكر شيئًا بعدها..

• • •

ثم استيقظت لأجدني داخل المبنى الذي كان من الممنوع عليّ دخوله..

كنت ممددًا على فراش في غرفة خاوية، فقمت منه وأنا أشعر بالدوار.. ما الذي حدث لي؟

حاولت الخروج من الغرفة فلم أستطع.. الباب مغلق من الخارج وأنا أريد الخروج لكن.. لكن..

لكن فتح الباب فجأة ليدخل ذلك الرجل الأصلع القصير.. لم أكن قد رأيته من قبل منذ أن تسلمت عملي الذي أتقنه هنا، لذا نظرت له في حيرة ليشير هو لي قائلاً:

- اجلس..

فأطعته على الفور، وجلست على طرف الفراش وأنا أنظر له في ترقب.. أمّا هو فوقف أمامي ليقول:

- أود أن أعرف منك ما حدث بالضبط..

فأجبته:

- تلك الفتاة.. لقد خرجت من الجدار واتجهت نحوي.. الدماء.. كانت مغطاة بالدماء و..

- مهلاً.. تقول إنها خرجت من الجدار؟؟

- نعم.. لقد كانت شبحا.. خرجت من الجدار واتجهت إلى تلك الشجرة لتختفي فيها و..

فأشار لي مرة أخرى، ليقاطعني:

- انتظر هنا..

ثم خرج من الغرفة فلم أتحرك من مكاني، حتى عاد مرة أخرى ومعه رجل آخر ذو ذقن بيضاء، ليشير إليّ محدثًا ذا الذقن:

- يقول إنه رأى شبحا... هل صدقتني الآن؟.. إنه لا يصلح للعمل معنا..

فقال ذو الذقن:

- ربما لم تفهم ما يعنيه جيدًا.. لا بدّ أن هناك خطأ ما..

ثم التفت ذو الذقن لي، ليقول:

- تقول إنك رأيت فتاة صغيرة؟

- نعم..

- صفها لي..

هنا حاولت أنا أن أتذكر ملامح تلك الفتاة، لأجد أنني عاجز تمامًا عن هذا..

أنا أتقن عملي لكني لا أتذكر ملامح الفتاة أبدًا.. فقط أذكر أنها..

لقد كانت.. كانت تبتسم!

قلتها بتردد، فتبادل الأصلع وذو الذقن نظرة سريعة، قبل أن يقول الأصلع:

- إنه يهذي.. أخبرتك أن من في حالته لا يصلحون للعمل و..

- لكنه رأى فتاة تغطيها الدماء.. أنت تعرف أن هذا حدث..

- وأنت تعرف أن هذا حدث قبل أن يأتي للعمل معنا.. فكيف رآها إذن؟؟

فلم يجب ذو الذقن هذه المرة بل بدت عليه الحيرة.. أمّا أنا فشعرت بالخوف.. الأصلع لا يريدني هنا.. مرة أخرى يتحدث أحدهم عن (حالتي) لكن هذه المرة ستكون (حالتي) هذه هي السبب في طردي من العمل الوحيد الذي أحبّه وأتقنه..

تحدّث ذو الذقن أخيرًا، ليقول لي:

- أخبرني بصراحة.. هل حاولت الدخول إلى المبنى؟

- لا..

- هل تحدثت مع أحد العاملين هنا؟

- لا..

وأنا لم أكذب!.. النحيل كان يحدّث نفسه، لكني لم أرد عليه قط..

- هل كنتَ نائمًا؟.. أعني ربما كنت تحلم..

- لا.. غير مسموح لي بالنوم خلال ساعات العمل الرسمية..

عاد الأصلع وذو الذقن يتبادلان النظرات، قبل أن يخرجا من الغرفة، دون أن يوجها لي كلمة إضافية، لأظل مكاني أنتظر في قلق.. أنا لا أريد أن أصبح بلا عمل..

لا أريد أن أعود لمنزلي البارد الخاوي، لأعيش فيه بمفردي..

مرّ وقت طويل عليّ وأنا أنتظر في مكاني دون أن يأتي أحد، قبل أن يفتح الباب أخيرًا ليدخل النحيل الذي يدخّن هذه المرة حاملاً حقيبة صغيرة، فقلت له على الفور:

- أنا لم أكن أحلم .. لقد رأيت هذه الفتاة التي تغطيها الدماء..

لكن النحيل بدا وكأنه لم يرني من قبل.. فقط وضع الحقيبة بجواري وفتحها ليخرج محقنًا، وهو يقول:

- سآخذ عينة دماء منك.. لا تخف..

لكني نظرت للمحقن في يده برعب.. أنا أذكر المحاقن وأعرف ما الذي تفعله.. أمي كان الأطباء يغرسون فيها المحاقن طيلة الوقت، قبل أن تصعد إلى السماء..

والآن أتى دوري لألحق بها!

غرس النحيل المحقن في ذراعي، فشعرت بالألم وأغلقت عيني بقوة، حتى انتهى ليخرجه من ذراعي قائلاً:

- انتهى الأمر..

ففتحت عينيّ ورأيته يعيد المحقن الممتلئ إلى حقيبته، قبل أن يميل عليّ فجأة ليهمس في أذني:

- أنا أعرف ما الذي رأيته.. سأشرح لك لاحقًا.. فقط لا تخبر أحدا أنني رأيتك..

قالها بسرعة فلم أفهم ما يعنيه.. فقط أخذت أنظر له في حيرة وهو يأخذ حقيبته ليخرج بسرعة..

ما الذي يحدث هنا بالضبط؟؟

أنا لا أفهم شيئًا!!

• • •

في النهاية سمحوا لي بالخروج من الغرفة وبالعودة إلى منزلي، على أن أعود لعملي في اليوم التالي..

لم يطردوني ولم يشرحوا لي ما رأيته، فقررت أن أنساه وألا أتحدث فيه مرة أخرى.. الأصلع أخبرني أنني لو تحدثت مع أي شخص عمّا حدث، فلن أعود إلى هناك أبدًا.. أخبرني أنه لا يطيق من هم مثلي ولن يغفر لي لو كررتها!

هكذا عدت إلى منزلي فلم أجد طعامًا.. جارتي نسيت مرة أخرى وأنا لم أعد أهتم بهذا..

سأنام جائعًا وغدًا ربما أجد بعض الطعام، أو سأطلب من قريبي أن يبتاع لي بعض المربى..

كانت الليلة باردة فجلست على فراشي أسفل الأغطية، لكني كنت عاجزًا عن النوم.. كنت أرى الفتاة الصغيرة التي تغطيها الدماء تبتسم لي ما إن أغلق عيني، فقررت أن أظلَ مستيقظًا..

لو كانت أمي موجودة، لكانت قد أعدت لي بعض الحليب الدافئ ولسمحت لي أن أنام في غرفتها الليلة، لكن أمي لم تعد معي..

أمي تركتني وأنا الآن جائع أشعر بالبرد وأعجز عن النوم..

لأول مرة أتمنى لو أتت جارتي حاملة بعض الطعام الساخن، لتخبرني أنها نسيت فحسب، وأنها لديها من الوقت ما يكفي لتمضيه معي.. لو حدث هذا الآن فسوف أ..

فجأة ارتفعت طرقات على باب شقتي!

لم أعتد أن أتمنى شيئًا ويحدث، لذا قمت ذاهلاً من فراشي واتجهت لأفتح الباب بسرعة لدرجة أنني نسيت أن أسأل عن الطارق قبل أن أفتح، لكنها لم تكن جارتي..

كان النحيف الذي يدخّن وكان يحمل صورة للفتاة الشبح أمام وجهي مباشرة، وهو يقول:

- لو كانت هذه هي الفتاة التي رأيتها، فهذا يعني أن حياتك في خطر..

-!!!

• • •

(3)

حين عرف النحيف أنني جائع، أخذني إلى مطعم قريب مؤكدًا لي أنه من سيدفع فهو يحتاجني وبشدة.. نعم.. أنا أعرف أنه قال إن حياتي في خطر، لكني جائع!

هكذا جلست في ذلك المطعم أتناول ذلك الحساء الساخن بنَهَم؛ بينما جلس النحيف أمامي يرمقني باهتمام وهو يدخّن..

لكني لم أكن أبالي بسجائره هذه المرة.. إننا لسنا في العمل ومسموح لي بأن أتحدث معه مادمنا خارج ساعات العمل الرسمية.. لكني كنت منشغلاً بطعامي، فتحدث هو ليقول:

- أنت رأيت هذه الفتاة إذن؟.. تلك التي كانت في الصورة؟

- ممممم..

- سأنتظر حتى تنهي طعامك إذن، فما سأخبرك به قد يفسد شهيتك تمامًا..

وأنا أريد أن أعرف حقًا من هي هذه الفتاة ولماذا ظهرت لي.. لذا التهمت كل ما في طبقي بسرعة، ثم اعتدلت محاولاً مقاومة النعاس الذي يتلو الشبع..

بدأ النحيف يشرح، فقال:

- أنت تعرف أننا لا نعمل في مكان طبيعي.. لا أحد يعرف عمله بالضبط ولا إلى أين يؤدي.. غير مسموح للعاملين بالتحدث مع بعضهم البعض.. غير مسموح بالاطلاع على أي ملف يخصّ أي حالة تعمل عليها.. حتى الحالات التي أجري لها الفحوصات كل يوم، لم ألتق بها قط.. هم يأتون لي بالعينات، وأنا أمنحهم النتائج.. عينات بشرية بالمناسبة..

لن أنام.. لن أنام!

- شروط غريبة لكننا تعلمنا أن نتجاهلها مع الأرقام المُرضية، التي نحصل عليها في بداية كل شهر.. ثم يمرّ الوقت وتبدأ في تكوين نظريتك الخاصة عمّا يحدث..

- نـ.. نظريتك!

- أقصد أنك تتخيل ما يرضيك.. أنا مثلاً أتخيل أنني أعمل في مستشفى سري.. أنت تـ..

- أنا أقف في مكاني ولا أسمح لأحد بالدخول أو الخروج من البوابة الخلفية.. هذا هو عملي..

- أعرف.. المهم أنها كلها مجرد نظريات.. أما ما يحدث في الواقع.. فلا أحد منا يعرف..

كنت قد بدأت أشعر بالملل.. ما الذي يريده هذا النحيف؟؟

أشعل النحيف سيجارة أخرى ستقتله يومًا ما، وتابع:

- لكني اعتدت أن أخرج لأدخن.. غير مسموح بهذا بالطبع.. لكن من الممكن أن تخالف القواعد ما دام أحد لا يراك.. ولم أكن وحدي من يمارس هذه العادة.. كان هناك رجل آخر وكان اسمه صبري.. كنا نلتقي كل يوم قبل أن تبدأ أنت العمل معنا لندخن ولنتسامر قليلاً.. كان صبري مثلنا لا يعرف ما يحدث بالضبط.. لكنه رأى تلك الفتاة.. تمامًا كما حدث معك..

- أنا رأيت الفتاة.. الدماء كانت تغطيها.. لكنهم أخبروني ألا أتحدث عنها أبدًا..

- توقعت هذا.. فهذا ما حدث مع صديقي صبري.. في البداية لم أصدقه ولا يمكنك أن تلمني في هذه النقطة.. شبح فتاة تغطيها الدماء؟.. الأمر عسير التصديق حقًا.. لكنه استحوذ على صديقي صبري تمامًا.. لم أعد أراه.. لم يعد يأتي ليدخن معي.. ومع الوقت نسيته هو والفتاة تمامًا.. كما أخبرتك.. المرتبات التي نحصل عليها مُرضية وتساعد على

النسيان.. لكن في أحد الليالي فوجئت بذلك الطرد يصل إلى منزلي وكان مرسله هو صبري.. أمّا ما كان في الطرد، فكان هذا..

وأخرج النحيف ملفًا من حقيبته الصغيرة التي استقرت جواره، ثم فتح الملف لأجد صورة الفتاة حين كانت لا تزال فتاة.. كانت تبدو طبيعية وكانت تبتسم ابتسامة جميلة..

مع الصورة كانت هناك مجموعة من الأوراق، التي أمسك بها النحيف، ليقول:

- كان اسمها ندى وهو اسم يليق بها حقًا.. وكانت في العاشرة من العمر.. ووفقًا لهذا الملف لم تعد ندى على قيد الحياة..

- صعدت إلى السماء؟

- ماذا؟؟.. نعم.. صعدت إلى السماء.. لكنها فعلتها هناك.. في ذلك المبنى.. لسبب ما لم يذكره الملف عاشت ندى داخل ذلك المبنى وماتت فيه.. لكن شبحها ظلّ هناك ليذكّرنا أنها كانت في ذلك المبنى الذي نعمل فيه دون أن نعرف ما الذي يحدث فيه بالضبط..

قالها النحيف فعدت أشعر بالبرد.. وبالخوف..

أمّا هو فأطفأ سيجارته، ليردف:

- صبري اختفى بعدها تمامًا.. أرسل لي الملف واختفى كأنه لم يكن يعمل معنا قط.. مع الوقت لم أقاوم أن أسأل عليه، لأجد أنه لا يوجد من يعرفه، أو أنهم ينكرون أنه كان يعمل معنا في يوم من الأيام.. مرة أخرى لا أملك إلا أن أبني نظريتي الخاصة عمّا حدث، وهذه النظرية تتلخص في كلمة واحدة.. أنه مات..

- مات؟!

- لا يوجد لدي تفسير آخر مقنع.. البشر لا يختفون هكذا يا صديقي.. لو كان رحل، فما الذي يمنعه من محاولة الاتصال بي؟؟.. على أية حال أدركت أنني عرفت أكثر من اللازم وقررت أن أحتفظ بكل ما عرفته لنفسي، فلم أذكر الملف أو الفتاة لمخلوق، ثم قررت أن أنسى كل ما حدث، حتى جئت أنت ورأيت الفتاة..

هنا وجدتني أسأله في خوف بالغ:

- هل يعني هذا أنني.. أنني سأموت؟؟

قلتها فنظر لي النحيف بإشفاق، قبل أن يجيب أخيرًا:

- ربما.. لكني لم آت هنا لأخبرك بهذا.. بل لأساعدك..

- تساعدني؟.. كيف؟؟

- بأن تساعدني أنت أيضًا.. يجب أن تساعدني على التسلل إلى المبنى بعد انتهاء ساعات العمل الرسمية.. هذا هو الحل الوحيد..

• • •

أنا أعرف عملي جيدًا وأتقنه..

غير مسموح لأحد بالدخول أو الخروج من البوابة الخلفية.. غير مسموح بالتحدث مع أحد العاملين في المبنى.. غير مسموح بالتحدث عن الفتاة الشبح التي تغطيها الدماء مع أي شخص مهما كان السبب!

أنا خالفت القاعدة الثانية والثالثة وهذا يكفي.. لكني لن أخالف القاعدة الأولى أبدًا..

لهذا وقفت في هذا المطعم والنحيل ينظر لي في دهشة، ثم تركته وغادرت المكان، لينادي هو عليّ، لكني لم أتوقف لحظة، بل واصلت طريقي مبتعدًا..

لن أطرد من عملي بسببه.. لن أترك قريبي الذي وصفني بالمتخلف، يعلن للجميع أنه كان محقًا..

هكذا اتجهت بخطوات سريعة إلى منزلي الوحيد البارد، لأشعر به يجري ورائي وينادي عليَ، فلم أتوقف حتى بلغني، ليمسك بي صائحًا:

- حاول أن تفهمني.. أنا سأفعل هذا من أجلك.. من أجلنا..

- غير مسموح..

- لن ينتهي الأمر كما تظن.. سترى هذه الفتاة مرة أخرى.. إنها تبحث عمّن يساعدها، ولقد اختارتك فلا تتخلى عنها..

- غير مسموح..

- أرجوك.. نحن يجب أن..

- غير مسموح!

صحت بها هذه المرة، فلم يملك إلا أن يترك ذراعي، ليتركني أبتعد عنه وقد بدا عليه الإحباط..

إنه يظنني أحمق لأسمح له بمخالفة القواعد، لكني لست كذلك.. أيًا ما كانت حالتي التي يتحدث عنها الجميع، فإنها لن تجبرني على مخالفة القواعد أبدًا..

أبدًا..

• • •

في اليوم التالي كنت أشعر بالنعاس، لكني أخذت أقاومه وأنا أقف في مكاني عند البوابة الخلفية للمبنى، وقد قررت أنني لو رأيت النحيف يحاول الاقتراب مني، فسأبلغ عنه على الفور..

سأخبرهم بكل شيء لو فعلها.. سأخبرهم أنه أتى إلى منزلي.. أنه أراني صورة الفتاة والملف.. أنه طلب مني مساعدته على التسلل إلى المبنى..

نعم.. سأفعلها وليكن ما يكون..

المهم الآن أنا أقاوم النعاس، ففيز مسموح لي بالنوم خلال ساعات العمل الرسمية.. وأنا لم أنم جيدًا ليلة أمس..

لكن الساعات تمر ببطء شديد هنا..

في صغري حاولت أمي أن ترسلني إلى المدرسة لأتعلم.. ناظر المدرسة أخبرها أن من هم في حالتي لا يصلحون للتعليم، لكنها توسلت له طويلاً فوافق مضطرًا..

هكذا كنت أستيقظ في الصباح الباكر، لأرتدي زي المدرسة –الذي كنت أكرهه– لأذهب إلى المدرسة، حيث يمر الوقت ببطء شديد شديد..

في الطابور وفي الفسحة، يسخر مني الجميع دون أن أفهم السبب، وأثناء الحصص يضعوننا على تلك المقاعد الخشبية غير المريحة، ليشرح المدرس أشياء لا أفهمها، لكنها تجبرني على النعاس..

أنام فيضربني المدرس.. ويعيدونني إلى المنزل لتضربني أمي.. ولو أتى الليل ورفضت النوم كي لا أستيقظ للمدرسة غدًا، تضربني مرة أخرى!

في النهاية زاد السعال على أمي، ولم تجد من يرعاها سواي، فتركت المدرسة لأبقى جوارها، مما ضايقها وأسعدني.. في النهاية أصبح بإمكاني النوم حينما أريد..

لكني لم أعد صغيرًا الآن.. بل أنا رجل.. ورجل أمن كذلك غير

مسموح لي بالنوم خلال ساعات العمل الرسمية..

لكن.. ربما كان من المسموح لي أن أستند على الجدار.. لم أعد أستطيع الاستمرار في الوقوف هكذا، والشمس الحارة تضربني طيلة الوقت..

لا.. لن أنام.. سأستند فقط حتى أرتاح.. فأنا لم أنم ليلة أمس.. النحيف زارني.. صورة الفتاة.. كان اسمها ندى.. وكانت تبتسم.. والآن هي في حاجة لي.. لكن..

غير مسموح..

غير..

غيـ...

● ● ●

وحين استيقظت رأيت الفتاة التي تغطيها الدماء مرة أخرى تقف أمامي مباشرة..

أنا كنت أظن أنني أحلم، لكني عرفت أنني استيقظت حين شعرت بالأرض الرملية أسفلي، لأجد أنني أسفل تلك الشجرة قرب المبنى.. متى انتقلت إلى هناك؟؟

كانت الفتاة تقف جوار الشجرة وتنظر لي مباشرة، فكدت أصرخ في فزع، لكنني تذكرت الأصلع وتحذيره لي، فتماسكت.. غير مسموح لي بالصراخ!

ثم رأيت باقي الأطفال فجأة..

لا أذكر عددهم.. لكن الدماء كانت تغطيهم هم أيضًا وأحدهم لم يكن بذراعين.. لكنهم كانوا يبتسمون لي..

غير مسموح لي بالصراخ!

كانوا ينظرون لي وكنت أراهم في وضوح، لكنني كنت أعرف أنهم أشباح.. هم من نقلوني إلى أسفل الشجرة، وهم الآن يحيطون بي لأنه دوري كما أخبرني النحيف..

سيقتلونني الآن ويأخذونني معهم إلى داخل الشجرة، لكن..

غير مسموح لي بالصراخ!

كنت أشعر بالبرد الشديد وبأنني عاجز عن الحركة، لكني أخذت أنظر لهم وهم يقتربون مني ببطء، قبل أن تقول الفتاة بصوت لم أسمع مثله من قبل أبدًا:

- إنهم يدفعون جيدًا.. لهذا أصبحنا كذلك..

إنها تتحدث عن أصحاب ذلك المبنى.. النحيف أخبرني أنهم يدفعون جيدًا، لكنهم.. لكنهم لا يدفعون لي..

حاولت أن أرد، لكني لم أستطع.. أنا لا أريد أن أتحول لواحد منهم..

لا أريد أن أتحول إلى شبح..

أمي أخبرتني أن الأشباح لا تؤذي، لكني أعرف أن شبح تلك المرأة العجوز هو ما أخذ أمي..

لم أخبر أحدا بما رأيت، لكن في ذلك اليوم الذي اجتمع فيها أقاربي حول فراش أمي، قبل أن تتركني لتصعد إلى السماء، رأيت شبح المرأة العجوز..

كانت تقف قرب فراش أمي ولم يكن أحد يراها سواي..

وكانت المرأة العجوز تبتسم!

وأنا أريد أن أصعد إلى السماء لأرى أمي، لكني لا أريد أن أدخل إلى

تلك الشجرة مع هؤلاء الأطفال الذين تغطيهم الدماء..

مرة أخرى تحدثت الفتاة بصوتها العجيب لتقول:

نحن نريد الخروج من هنا.. ساعدنا..

ثم إنها كشفت عن صدرها، لأرى ذلك التجويف الضخم الذي تنز منه الدماء، قبل أن تقول هي:

- لقد أخذوا قلبي..

-!!!!

• • •

(4)

لم أدخل مع الأطفال إلى تلك الشجرة هذه المرة..

يومها رأيتهم وهم يبتعدون عني، ليدخلوا جميعًا إلى تلك الشجرة، لأعود وحيدًا باردًا في مكاني على الأرض، عاجزًا عن الحركة أو الصراخ..

غير مسموح لي بالصراخ..

وحين تمكنت من الحركة أخيرًا.. وقفت ببطء..

ثم أخذت أعدو مبتعدًا..

أنا لن أعود إلى هنا أبدًا!

لا أريد أن أرتدي زي رجل الأمن مرة أخرى.. لا أريد أن أمارس عملي الذي أتقنه.. سيصفني قريبي بالمتخلف، لكني لن أهتم..

سأعود إلى منزلي البارد الخاوي وسأظل هناك حتى يأتي اليوم الذي أصعد فيه إلى السماء لأكون مع أمي..

حينها سأحكي لها كل شيء، وستعدّ هي لي كوبًا من اللبن الدافئ،

وستسمح لي بأن أنام جوارها..

نعم.. هذا ما ستفعله أمي..

وأنا لن أعود إلى هنا أبدًا..

• • •

حين عدت إلى منزلي هذه المرة وجدت بعض الطعام البارد الذي تركته لي جارتي، لكني لم أمسه بل أسرعت إلى غرفتي لأقفز على فراشي –رغم أن أمي أخبرتني أن هذا خطأ– واختبأت أسفل الأغطية وأنا ألهث..

أنا لن أعود إلى هناك أبدًا..

سأظل هنا على فراشي أسفل الأغطية، فلن أرى الأطفال ولن يراني أحد حتى تمر هذه الليلة..

لكني لن أنام أيضًا.. في كل مرة أغلق فيها عيني أرى الفتاة تبتسم، وهي تكشف لي عن صدرها حيث لم يعد هناك قلب، بل تجويف مخيف تنز منه الدماء..

أنا جائع.. بارد.. وحيد..

أنا خائف!

لكن النهار سيأتي..

ستمر الليلة وستطلع الشمس وسأنام حينها.. أمي أخبرتني أنه حين تكون هناك شمس، لا يكون خوف.. لكن.. لكن..

لكني رأيت أشباح الأطفال في ضوء الشمس عند تلك الشجرة.. رأيتهم ولا أريد أن أراهم ثانية..

أنا أشعر بالتعب.. أشعر بالحزن.. أشعر بالـ..

أشعر بيد تجذب الغطاء عن جسدي!!

وقبل أن أبدأ في الصراخ، ارتفع صوت النحيف يقول:

- إنه أنا.. لن تصدق ما الذي حدث اليوم

-!!

• • •

كان النحيل ولكنه لم يكن يدخن هذه المرة..

كان يجلس أمام فراشي وكنت أحدق أنا فيه.. أصغي لما يقول دون أن أستوعبه تمامًا..

وكان يقول:

- لقد عرفت أخيرًا ما الذي يحدث.. بعد أن تركتك أدركت أنك لن تساعدني، فقررت التصرف بمفردي.. فكّرت طويلاً ثم وجدت أن هذا هو الحل الوحيد الذي أملكه.. يجب أن أعرف.. يجب أن أفهم.. هكذا عدت إلى هناك واقتحمت المكان لأبحث عن أي شيء يمكنني العثور عليه..

ثم إنه أشار إلى كومة من الملفات وضعها على ساقيه، ليردف:

- إنها تحمل كل شيء عنهم.. أعني الأطفال بالطبع.. كل شيء من الممكن أن تعرفه عنهم.. تواريخ ميلادهم.. أطوالهم.. أوزانهم.. فصيلة دم كل واحد منهم.. تقارير صحية ونفسية.. تاريخ هؤلاء الأطفال بأكمله موجود في هذه الأوراق والصور والتحاليل..

ونظر لحظة للقمر عبر النافذة، قبل أن يواصل:

- لم يكن العثور على هذه الملفات سهلاً.. صدقني.. إنهم يخفون

كل شيء بدقة هناك.. لكنك ستجد ما تبحث عنه لو نظرت جيدًا.. لو فكّرت جيدًا فيما تبحث عنه.. هكذا عثرت أنا على الملفات وهكذا فهمت سر الغموض الذي يحيط بالمكان.. عليك أن تستنتج القليل بنفسك.. لكن الصورة تكتمل في النهاية..

قلت أنا بعد تردد:

- غير مسموح الدخول إلى.. هناك..

- ألم أقل لك إنهم أجادوا اختيارك.. لكن الأطفال اختارتك كذلك والآن عليك أنت أن تختار..

- الفتاة التي رأيتها.. صدرها كان يـ..

- أعرف.. السؤال الآن هو ما الذي سنفعله؟.. هل سنتظاهر بأن شيئًا لم يحدث؟.. هل ستقضي أيامك هنا أسفل الأغطية؟.. هل ستتخلى عنهم؟؟

- أنا خائف.. أنا لا أريد العودة!

- سأظل معك حتى النهاية.. لكن يجب أن نضع حدًا لهذا كله.. يجب أن نساعدهم..

وببطء وقف وعيناه لا تزالان معلقتين بالقمر، ليهمس بشرود:

- إنهم هناك.. عند تلك الشجرة..

• • •

لا أذكر كيف نمت هذه الليلة، لكني أذكر أنني رأيت أمي في أحلامي وأنها كانت تبتسم..

وحين استيقظت كنت أبتسم أنا الآخر دون أعرف لهذا سببًا.. ربما لأني أبله كما يقول قريبي!

كانت الساعة الخامسة والنصف، لكني كنت أعرف أنني سأصل لعملي في ميعاده لو أسرعت قليلاً..

نعم سأعود.. لن أقضي أيامي خائفًا من شيء لم أفعله..

سأعود وسأمارس عملي الذي أجيده بدقة متناهية..

وبعد أن تنتهي ساعات العمل الرسمية لن أعود إلى هنا.. لا لن أفعل..

سأنفذ ما اتفقت عليه مع النحيل ولن أتردد هذه المرة..

إنني أذهب إلى عملي كل يوم وأكون هناك في تمام السادسة، لأظل في مكاني حتى التاسعة مساءً.. كل يوم.. كل يوم..

عملي الذي أحبّه لأنهم يسمحون لي بأن أرتدي زيًا يشبه زي رجال الأمن.. عملي الذي لن يمكنني أن أعود له مجددًا بعد اليوم..

لكني اليوم أشعر بسعادة لم أشعر بمثلها قط..

• • •

وفي السادسة تمامًا كنت أقف في مكاني مرتديًا زيي لآخر مرة.. وكنت أشعر باللهفة..

• لكن في الواحدة ظهرًا عرفت أن النحيل لقي مصرعه في حادث!.. سيارة مسرعة ثم.. بوووووف.. صعد إلى السماء.. هكذا وبمنتهى البساطة..

بعدها عرفت أن الحادث كان في الليلة قبل الماضية!!

• • •

(5)

أنا لم أفهم ما الذي يعنيه هذا على الفور..

لم أكن ممن يجيدون (الفهم) من قبل، لكني وفي النهاية أدركت

معنى أن يموت النحيل في حادث، قبل أن أراه.. إنه مثلهم.

مثل هؤلاء الأطفال الذي يختفون عند تلك الشجرة..

إنه شبح!

كنت أقف مكاني أمارس عملي الذي أتقنه للمرة الأخيرة، حين استوعبت هذا كله، لأجد النحيل يقف قربي يرمق الشجرة، وهو يردد:

- الليلة سنفعلها.. سأكون معك حتى النهاية.. لن أتركك حتى ننهي هذا كله..

لكني لم أجبه.. لم أخشه كما يحدث لي مع الأطفال، لكني أدركت أنه لا داعي لأن أجيبه فهو يعرف ردي على أية حال..

لقد اتفقنا وأنا لا أحب أن أخلف وعودي.. أمي أخبرتني أن من يخلف وعوده لا يستحق أن يكون رجلاً.. وأخبرتني أنني رجل..

فقط نسيت أن تخبرني أي شيء عن (حالتي هذه)!

والتفت إليّ النحيل قبل أن يقول:

- أنت تعرف أنه لم يكن حادثًا.. أليس كذلك؟

وحين التفت له كان يقف مع الفتاة التي أخذوا قلبها..

كان يربت على رأسها في حنان..

• • •

انتهى عملي في التاسعة مساءً كما يحدث كل يوم، لكني لم أغادر مكاني ولم أتجه إلى منزلي البارد الوحيد..

هذه المرة وقفت في مكاني أنتظر رحيل كل العاملين في المبنى، حتى لم يعد هناك صوت من حولي.. لكني لم أتحرك بسرعة.. النحيل أخبرني أن أظل حذرًا حتى النهاية..

أخبرني أنهم قد يشعرون بي لو حاولت الدخول.. سألته كيف؟ فأخذ يشرح لي الكثير عن كاميرات المراقبة ونظم الحراسة والتأمين، لكني لم أفهم إلا أن الدخول مباشرة قد يضرني..

هكذا وقفت في مكاني لنصف ساعة كاملة، أرمق تلك الشجرة وأنتظر، حتى سمعت النحيل يقول أخيرًا:

- الآن.. هيا بنا..

التفت إليه لأراه يسرع إلى صندوق الكهرباء القريب، فتبعته إلى هناك دون أسأله أين كان ولا من أين أتى.. وهناك أشار هو إلى الصندوق وقال:

- يجب أن تفسده.. بهذا ستتوقف كل أنظمة التأمين عن العمل.. فقط خذ الحذر وإلا صعقت..

وأنا أعرف هذه المعلومة جيدًا.. أمي أخبرتني بها وأنا صغير وساعدتني على حفظها بالصفعات، فلم أعد ألعب بالقابس الكهربائي بعدها أبدًا..

- ستحتاج لأي شيء خشبي لتفتح الصندوق بعدها سأخبرك بما عليك فعله..

كنت أشعر بالخوف والتردد، لكني لم أكن أنوي التراجع.. ربما أكون غبيًا لكني أشعر بأن ما يحدث داخل المبنى له علاقة بما حدث للأطفال وللنحيل.. لهذا يجب أن ندخل الليلة لنعرف..

أو لأعرف أنا.. لا أعتقد أن النحيل سوف.. إنه.. لا يهم!

المهم أنني فعلتها أخيرًا ليسود الظلام من حولي، وليبتسم النحيل في رضا، قائلاً:

- الآن يمكنك أن تدخل..

فاتجهت باستسلام إلى المدخل الخلفي الذي اعتدت أن أحرسه، ووقفت أمامه حائرًا منتظرًا إرشادات النحيل، الذي قال:

- ألم تسأل نفسك ولو لمرة لماذا طلبوا منك ألا تسمح لأحد بالخروج من هذه البوابة؟؟.. المنطقي ألا تسمح لأحد بالدخول..

- ماذا؟!!!

- لا تشغل بالك.. الآن ستفهم.. رغمًا عنك ستفهم..

• • •

لم يكن الدخول صعبًا كما اعتقدت..

ولم تكن هذه هي أول مرة أتسلل فيها إلى مكان..

أمي أخبرتني ألا أذكر ما حدث لمخلوق لكنها لم تعد معي.. أخبرتني أنا نادمة وأنها لن تطلب مني أن أكررها أبدًا أبدًا.. لكني كنت أعرف أنها كانت مضطرة..

لقد كنا جائعين!

أيام مرّت علينا دون أن نتذوق لقمة.. كنت صغيرًا ولم أكن أملك إلا الجلوس في صمت، بينما أمي المريضة تنبش منزلنا كل يوم بحثًا عن أي شيء يصلح للمضغ.. قريبي أخبرنا أننا فقراء لكني لم أفهم ما يقصده إلا حين رأيت أمي تبكي بمرارة، قبل أن تطلب مني ذلك الطلب العجيب..

تسلل إلى منزل جارتنا ولا تعد إلا ومعك أي شيء يؤكل..

لم أكن أفهم حينها أن هذا خطأ، لكني كنت أعرف أنه ليس سهلاً.. جارتي تعيش بمفردها ودائمًا ما يمتلئ منزلها برائحة الطعام، لكن الدخول إلى منزلها أمر لا أعرف له طريقًا إلا الباب..

أطرق على الباب.. تفتحه هي.. هذا ما يحدث كل مرة..

لكن في تلك الليلة شرحت لي أمي طريقة أخرى للدخول.. طريقة أخبرتني أنها تعلمتها من أبي الذي لم أره قط.. طريقة أخبرتني أن أنساها وألا أحاول استخدامها أبدًا، لكني الليلة مضطر.

استخدمت هذه الطريقة مع باب جارتي، ففوجئت به يفتح أمامي دون أن تفتحه جارتي، وبرائحة الطعام الشهي تملأ معدتي الخاوية.. تلك الرائحة التي كدت أنساها في منزلي..

ليلتها أسرعت إلى المطبخ لأبحث عن مصدر الرائحة، وأنا أشعر بقلبي يرقص في صدري بصورة لم أشعر بها من قبل، وكنت أحمل حقيبة صغيرة قررت أن أملأها لآخرها كي لا نجوع بعدها أبدًا، لكني لم أكن أرى جيدًا في الظلام..

لهذا اصطدمت بذلك الوعاء الزجاجي.. لهذا تهشم..

ولهذا أمسكت بي جارتي..

حينها بكيت أنا وحكيت لها كل شيء فبكت معي، ثم قامت لتملأ حقيبتي الصغيرة بنفسها، لكنها طلبت مني ألا أعود إلى هنا أبدًا. وطلبت مني أن أحمل الرسالة ذاتها إلى أمي..

هكذا عدت إلى أمي بالطعام والرسالة، فلم تذق الطعام بل تركته كله لي..

وبعد أن ماتت أمي تطوعت جارتي لتعد لي الطعام كل فترة.. في بعض الأحيان تنسى فأنام جائعًا، وفي بعض الأحيان أنام ورائحة طعامها الشهي تملأ أنفي..

أما الآن.. اليوم.. فأنا أتسلل إلى المبنى الذي قضيت طيلة الفترة

الماضية في حراسة بوابته الخلفية، ومعي شبح النحيل يرشدني كأنه كان هنا من قبل، ورائحة حارقة تملأ أنفي وتحرق عيني.. فركتهما بقوة لم تخفف من أثر الرائحة، ليقول النحيل:

- إنه الفورمالين.. البوابة الخلفية هي أقصر طريق إلى الأسفل.. المفترض أننا سنجد الدرج هنا..

وأشار إلى حيث رأيت الدرج بصعوبة في الظلام، قبل أن يردف:

- في نهاية هذا الدرج سنجد بوابة تقود للطابق الأرضي، حيث يخفون أسرارهم.. هناك سنفهم كل شيء وسنضع حدًا لهذا كله.. اتبعني..

قالها واختفى في ظلام الدرج، فتبعته وأنا أتحسس طريقي، حتى بلغت تلك البوابة.. بحثت عن مقبضها بأصابعي والنحيل يهمس:

- أسرع.. أسرع..

هاهو المقبض.. لكن.. إنه موصد!

حاولت مرة وثانية وثالثة فلم يستجب لي الباب.. حاولت معه بالطريقة التي تعلمتها صغيرًا، لكنه ظل في مكانه رافضًا محاولتنا للدخول..

هكذا نظرت إلى النحيل في حيرة، لأجده يقول:

- لقد احتاطوا للأمر إذن.. لكنهم هناك.. أنا أشعر بهم خلف هذا الباب..

ونظر إلي بانفعال أضاء عينيه في الظلام، وهو يردف:

- هناك مدخل آخر.. نعم.. هناك مدخل آخر ويجب أن نعثر عليه..

- لكن.. أين؟!

- ألم تفهم بعد.. إنه هناك.. عند تلك الشجرة

-!!

• • •

هذه المرة كنت أشعر بالرعب..

لكن النحيل ظلّ معي طيلة الوقت وإن لم يساعدني على الإطلاق..

وبعد ساعتين كنت قد انتهيت من الحفر أسفل تلك الشجرة، لأشعر بذلك السطح المعدني أخيرًا، وليصيح النحيل بحماس:

- ألم أقل لك إنه هنا؟.. لقد كانوا يرشدوننا إليهم طيلة الوقت.. لهذا كانوا يظهرون ويختفون هنا..

لكني أخذت أتحسس السطح المعدني بحثًا عن فجوة قبل أن أقول:

- وكيف سنعبر إلى الداخل؟

ستجد فتحة تهوية هنا أو هناك.. إنه ممر تهوية قديم، قاموا بإخفائه كي لا يقود أحدًا إلى سرهم.. ابحث جيدًا وستجده..

كان الوقت قد تأخر وكنت أشعر بالبرد والإرهاق، لكني لم أعترض.. الليلة سينتهي هذا كله..

وأنا لن آتي إلى هنا مجددًا ولن أرى الأطفال مرة أخرى أبدًا أبدًا..

بحثت حتى أصابني الملل، لكني عثرت في النهاية على تلك الشبكة المعدنية، فجذبتها بقوة لأكشف عن فجوة كافية لأعبر خلالها إلى داخل الممر.. ومرة أخرى صاح النحيل:

- ألم أقل لك؟.. والآن لم يتبق إلا بضع خطوات تخطوها في هذا الممر.. هيا بنا..

وبلا تردد قفز عبر الفتحة، فتبعته بسرعة لأجدني في ذلك الممر المظلم الذي امتلأ بتلك الرائحة الحارقة..

في نهاية الممر يوجد باب يقود إلى مكان مضاء، لكنها أول مرة أشعر بالخوف من الضوء أكثر من الظلام..

هنا لا يوجد سواي أنا والنحيل والرائحة ومن فوقنا تلك الشجرة..

لكن هناك.. خلف ذلك الباب يوجد ضوء.. وعلى هذا الضوء سأرى سر من يعملون في المبنى..

غير مسموح لي بأن أعرف!

يمكنني أن أخرج الآن.. سأخفي الحفرة وأغلق المدخل الخلفي وسأنسى كل شيء..

وغدًا سآتي إلى عملي الذي أتقنه في تمام السادسة وسأظل في مكاني حتى تمام الـ..

- لكنهم لن يتركوك.. ستراهم حتى تجن أو تقتل نفسك..

قالها النحيل فاحتجت لبعض الوقت قبل أن أفهم ما يعنيه.. قبل أن أعود ليأسي..

أمّا النحيل فأشار إلى الباب قائلاً:

- سينتهي الأمر حالاً.. كل شيء سينتهي..

نظرت إليه وقلت بعد تردد:

- هل ستبقى معي؟

- حتى النهاية.. أعدك..

فعدت لأنظر إلى الباب قبل أن أقرر أن أتجه إليه..

أخطو في اتجاهه.. أقترب منه أكثر.. النحيل يتبعني صامتًا هذه المرة.. الرائحة تشتد..

أبلغه أخيرًا..

أمدّ أصابعي لأمسك المقبض البارد.. أفتحه..

ثم أصرخ رعبًا مما أراه في الداخل!!

• • •

(6)

أخبرتني أمي أن الموتى لا يتحركون.. لا يعودون.. لا يشعرون..

أمي الآن في السماء وهي ليست معي الآن لترى أنها كانت مخطئة!!

نعم الجثث لم تكن تتحرك.. لكنهم كانوا يتحركون!.. الأطفال.. على الموائد وفي الثلاجات وفي تلك الأسطوانات الزجاجية.. وما بين هذا كله يقفون وينظرون إليّ وإلى النحيل الذي بدا عليه الأسى..

أنا لا أستوعب بسرعة ولا أتقبل ما لا أفهمه، لذا فالمشهد يتحول أمامي إلى صور منفصلة، لا يجمعها إلا أنني أراها كلها الآن..

هناك صورة للفتاة التي أخذوا قلبها.. إنها تقف أمامي، لكنها ترقد كذلك على إحدى الموائد شاخصة العينين تحدق في السقف إلى ما لا نهاية.. الغطاء الذي كان يغطي جثتها سقط، وهي الآن تقف جوار جثتها تنظر لها وتتحسس تجويف صدرها حيث لم يعد هناك قلب..

صورة أخرى.. هناك ذلك الطفل الأشقر.. إنه يقف جوار تلك الأسطوانة الزجاجية، لكنه داخل الأسطوانة الزجاجية كذلك.. أراه معلقًا داخلها بلا ذراعين وهناك فتحة ضخمة في جمجمته يخرج منها أنبوب سميك..

هناك صورة ذلك الطفل الذي لم تعد له أحشاء.. يقف جوار نفسه.. جوار جثته الضئيلة التي تبدو أشبه بدمية من تلك الدمى التي كانت أمي تعثر على مثلها لي في القمامة..

جوار كل جثة يقف شبحها، وكلهم أطفال يرمقونني في صمت يصم الآذان!

ويقول النحيل ليبدد هذا الصمت:

- القتلة.. إنهم.. إنهم مجرد أطفال!

لكني لم أكن فهمت بعد.. لذا سألت:

- ما الذي حدث لهم؟؟

- ألم تفهم بعد؟.. التحاليل التي كانوا يطلبونها.. العينات.. الأنسجة.. إنهم يبيعون أعضاء هؤلاء الأطفال!.. يقتلونهم ويحولونهم لمجرد سلع.. أعضاء يدفع ثمنها من يحتاجها من الأغنياء.. بل إنهم لم يتركوا أجسادهم لتموت بعد.. انظر.. هذا الطفل يبقون جسده حيًا للحفاظ على ما لم يتم بيعه من أعضائه بعد.. وهذه الفتاة.. إنها.. إنها تحرك جفنها!

نعم هي تحرك جفنها.. لكن.. لكن..

لكن هذا هو الشيء الوحيد المتبقي في وجهها.. لا عينين ولا فك سفلي.. كيف ستظل حية بعد الـ..؟

- القتلة.. القتلة..

يصرخ النحيل فيزداد خوفي.. لو سمعنا أحد الآن سوف يقبضون علينا.. بل علي أنا فالنحيل لم يعد صالحًا للـ.. أعني.. أنت تفهمني!

أمّا الفتاة التي لم يعد لها قلب، فتقدمت تجاهي لتقول:

- نحن نريد أن نخرج من هنا.. نحن لا نحب هذا المكان..

عقلي لا يزال عاجزًا عن استيعاب كل ما يحدث حولي.. إنه حلم كابوس من تلك الكوابيس التي أخبرتني أمي أنها تنتهي متى أفتح عيني، فلماذا لا ينتهي هذا الكابوس؟؟

- نعم يجب أن نخرجهم من هنا..

يقولها النحيل فأصيح أنا في حيرة:

- كيف؟.. كيف سأحمل هذا كله؟.. وإلى أين سأذهب بهم؟؟

- لا يهم أين.. المهم ألا يظلوا هنا بعد الآن.. إنه حقهم الأخير..

- لكن.. أنا..

لكن أنا لا أصلح لهذه المهمة.. أنا سقطت في قبضة جارتي حين حاولت سرقة طعام من منزلها، فما الذي سيحدث لي حين أحاول أن أخرج الـ.. كم عدد هؤلاء الأطفال؟.. إن القاعة واسعة حقًا وتلك الرائحة الحارقة لا تساعدني على الرؤية رغم أن القاعة مضاءة..

رغم أن القاعة مضاءة..

رغم أن القاعة مضاءة..

رغم أن القاعة مضاءة..

رغم أن القاعة مضاءة..

- لماذا تركوا القاعة مضاءة؟!!!

في لحظة وجدتني أهمس بهذا السؤال، وفي اللحظة الثانية سمعت النحيل يجيب:

- إنهم يعرفون.. يعرفون أنك هنا..

قالها وهو يشير إلى كاميرا في السقف، نظرت إليها في حيرة للحظات، قبل أن أستوعب ما يقصده..

لهذا تركوا القاعة مضاءة.. لأنهم يعرفون أنني سآتي إلى هنا..

لا أعرف كيف عرفوا لكنهم كانوا ينتظرونني، وها أنا أقف وسط الجثث والأطفال، أشعر برعب لم أشعر به في حياتي من قبل..

سوف يمزقونني هنا.. سيأخذون قلبي وذراعي، وسيضعونني في أسطوانة زجاجية ولن أرحل من هنا أبدًا، بل سأقف جوار جثتي في هذه القاعة الباردة ذات الرائحة الحارقة..

لن أصعد إلى السماء ولن أرى أمي ولن أشعر بالدفء مرة أخرى..

لكن النحيل صاح فجأة:

- وجدتها.. أسطوانات الغاز..

فالتفت له وقد قررت أن أنفذ ما يقوله دون أن أحاول أن أفهم.. لا وقت للفهم.. لم يعد هناك وقت لأي شيء..

أمّا هو فبدا عليه الحماس وهو يشير إلى الأسطوانات في ركن القاعة، مواصلاً:

- هي الحل الوحيد.. نفذ ما سأطلبه منك وسننهي هذا كله..

الأطفال كلهم ينظرون لي في أمل وفي الأعلى تتعالى أصوات أقدام تجري متجهة إلى هنا..

الليلة سننهي هذا كله..

ولن أفهم حتى كيف؟!

• • •

حين وصل الأصلع وذو الذقن ومعهم رجال الأمن -الحقيقيون الذين يحملون الأسلحة- كنت قد شارفت على الانتهاء، وكنت أشعر بالإرهاق الشديد.. لم أنم جيدًا منذ فترة والطعام تركته في منزلي منذ فترة.. لا بد أنه فسد وأن رائحته سوف..

لكن الأصلع قال في غضب أعادني إلى القاعة:

- كنت أعرف أنك تدعي حالتك هذه.. لا أحد بهذه السذاجة أبدًا.. لا أحد..

فابتسمت في رضا رغمًا عني.. أخيرًا أجد شخصًا لا يظن أن لدي (حالة) ما كما يذكرني الآخرون.. أما ذو الذقن فقال:

- ما أود معرفته حقًا هو كيف اكتشفت أمرنا؟.. كيف وصلت إلى هنا؟

فأجبت:

- النحيل.. إنه م...

لكن الحيرة التي بدت عليهما أجبرتني على فهم أنهم لا يرون النحيل مثلي.. لا يرون النحيل ولا الأطفال الذين أحاطوا بي وقد بدا عليهم الخوف بينما وقف النحيل خلف كتفي مباشرة ليهمس في أذني:

- استمر.. لا تتوقف عن الحديث كي لا يشعروا.. سينتهي الأمر خلال لحظات..

لكن الأصلع كان من تحدث ليقول:

- وما الذي كنت تفكر في فعله هنا؟.. أتظن أنك كنت ستسرقهم لتبيعهم بنفسك؟.. أتظن أن الأمر سهل أيها الأحمق؟!

- أنا.. أنا أريد أن أخرجهم من هنا..

أقولها فينفجر الأصلع في الضحك، بينما تبدو الدهشة على ذي الذقن، الذي قال:

- تخرجهم؟.. إلى أين؟

- لا أعرف!

فيشير الأصلع تجاهي ويصيح ضاحكًا:

- إنه أحمق.. مختل أحمق.. إنه لم يفكر حتى في الخروج من هنا..

فيقول النحيل في أذني:

- سنخرج من هنا.. كلنا سنخرج.. استمر..

وأنا أعرف أنه يريدني أن أستمر كي لا يسمعوا صوت الهسيس الذي تصدره الأنابيب.. لكني خائف حقًا.. خائف ولا أجد ما أقوله سوى:

- أنتم قتلة..

قلتها فبدت الصدمة على الأصلع وذي الذقن، قبل أن يصرخ الأول ثائرًا:

- كيف تجرؤ؟!

أجرؤ لأنني بدأت أفهم أنه لم يعد هناك فارق.. لحظات وسنخرج كلنا من هنا..

ينتشر الأطفال في المكان كأنهم يودعون جثثهم، ويتحرك النحيل ليقف بين الأصلع وذي الذقن ليبتسم لي مشجعًا.. أبادله الابتسام وأقول:

- أنا.. فهمت..

فينتفخ وجهه غضبًا، ويشير إلى أحد رجال الأمن آمرًا، ليقول:

- استعد..

فيسدد رجل الأمن الحقيقي ذو السلاح مسدسه إلى صدري، وأغمض أنا عيني في اللحظة التي يبدو فيها على ذي الذقن أنه يتشمم رائحة الغاز..

أفتح عيني فأجد أن كل شيء من حولي يتحرك ببطء شديد..

الفتاة تبتسم لي شاكرة ومن خلفها الأطفال ينظرون لي في امتنان..

الأصلع يشير بيده لرجل الأمن..

ذو الذقن يصيح وقد رأى أسطوانات الغاز المفتوحة المنتشرة تحت الأسرة..

النحيل يشعل سيجارته الأخيرة في هدوء تام..

رجل الأمن الحقيقي ذو المسدس يطلق رصاصته فأشعر بالألم في صدري وبالأصوات تغيب من حولي.. ثم أراها..

أرى أمي تمد يدها لي وهي تبتسم لي في حنان افتقدته طويلاً.. أمي التي في السماء هبطت لتأخذني..

النيران تنبت من الهواء فجأة، ويصرخ كل الموجودين في القاعة لكني لا أهتم..

لقد تلاشى الألم.. تلاشت الرائحة الحارقة.. تلاشى البرد..

أنا أحب أمي جدًا والآن سأرحل معها..

سأحكي لها عن كل ما حدث.. عن النحيل والأطفال والليالي التي لم أجد فيها طعامًا، والتي شعرت فيها بالوحدة..

سأخبرها عن كل من وصفوني بالـ (متخلف) وكل من سألوني عن

(حالتي) هذه دون أن أفهم ما الذي يقصدونه..

وستصغي هي إليّ ثم ستتركني أنام جوارها..

وهذه المرة..

لن أفارقها أبدًا..

• • •

نوجیٹی

في كل يوم أرى زوجتي تموت!

قبل أن تتأوه تعاطفًا مع مأساتي، وقبل أن تحاول تخيل معاناة زوج فقد زوجته، لكنه لفرط حبه لها يراها تموت كل يوم، كأنه لا يطيق فراقها.. اسمح لي أن أؤكد لك أن الموقف مختلف تمامًا عمّا تظن..

كل يوم أنا (أرى) زوجتي تموت.. أراها رؤيا العين لو لم تكن قد فهمت بعد!

يبدأ اليوم بي على طاولة الإفطار، أحتسي قهوتي وأنتظرها لتخرج من غرفة النوم وهي تضع يدها على رأسها، مرددة أنها ليست على ما يرام..

أنها تشعر بصداع عنيف وبغثيان سيتحول بعد دقائق إلى ألم وحشي، تصفه هي بأنها تشعر وكأن أمعاءها تتمزق، قبل أن تبدأ مرحلة القيء التي لو رآها أي زوج آخر، لظن أن زوجته ستخرج له معلنة أنها حامل، لتبدأ الاحتفالات البهيجة، لكني أعرف أنه ليس حملاً..

ستجلس زوجتي بمشقة أمامي وستصبّ لنفسها بعض الشراب الدافئ، وستقرر أنها تناولت طعامًا فاسدًا ليلة الأمس.... لن أنطق بحرف ولن أحرك ساكنًا حتى ينتهي هذا كله..

ستتناول مشروبها الدافئ وستخبرني أنها تشعر بتحسن، لكني لن أهتم ولن أرد عليها حتى، فلن تمر نصف ساعة حتى سيعود الألم والقيء، لكنها هذه المرة ستقيء دمًا..

ستقيء دمًا في دورة المياه.. ثم ستخرج منها صارخة لتقيء دمًا في الممر.. في الردهة أمامي وهي تجاهد لتلتقط أنفاسها، لتخرجها في كلمة (ساعدني)، لكني -ومهما حدث- لن أبارح مكاني هذا، إلى أن تسقط هي على الأرض أخيرًا، وسط بركة دمائها التي ستسيل من فمها، حتى تهمد حركتها أخيرًا..

سأرمق أنا هذا كله بلا مبالاة تامة.. ثم سأحاول الوقوف بحذر، لكني سأشعر بالدوار كما يحدث كل مرة، لأسقط جوارها فاقد الوعي..

بعدها سأستيقظ ليبدأ كل شيء من جديد!

• • •

سأستيقظ هذه المرة لأجد أنني في فراشي، لكني أعرف ما سيحدث حالاً..

طرقات على باب الغرفة، ثم تدخل زوجتي والوجوم باد عليها، لتخبرني أنها تود الحديث معي في أمر هام، لم تعد تحتمل تأجيله أكثر من هذا، فلن أجيب عليها وستكتفي هي بصمتي لتبدأ..

ستخبرني أنها فكّرت طويلاً وترددت كثيرًا، قبل أن تقرر أنها لم تعد تطيق الاستمرار بهذه الصورة.. ستجلس على طرف الفراش، لكنها ستتحاشى النظر لي، وهي تواصل قائلة:

- يجب أن تكون هناك نهاية.. ويجب أن تكون باختيارنا..

ثم ستمر ساعة ونصف وهي تشرح لي مبرراتها لهذه النهاية، وهي مبررات أصبحت أحفظها عن ظهر قلب..

سأحدق أنا في سقف الغرفة، وسأحاول تزجية الوقت بحل بعض المعادلات الحسابية في عقلي.. لا شيء ستقوله لي زوجتي سيهم..

لكنها -وبعد أن تمر الساعة والنصف- ستبتسم أخيرًا، وستنظر لي لأول وآخر مرة، لتقول:

- لكني سأرحل الآن..

فأبتسم أنا في سخرية.. لن يكون أول رحيل ولا آخره..

تقف هي وتغمض عينيها وهي تجذب نفسًا عميقًا لتملأ به صدرها، ثم تخرجه في بطء شديد، كأنها ستفتقده إلى الأبد..

ثم وبهدوء تام ستخرج ذلك النصل من جيبها.. ثم وبحركة سريعة جدًا ستذبح نفسها!

من جسدها النحيل، ومن عنقها الذي لم يعد موجودًا، ستخرج نافورة الدماء وستتناثر على كل شيء في الغرفة، وستلوث وجهي وملابسي بلزوجتها الحارة، لكني لن آبه بها..

ستترنح زوجتي لحظة وسيلوح حزن دفين في عينيها.. ثم ستتهاوى دفعة واحدة..

ستسيل دماؤها لتغرق أرض الغرفة، وسيتوقف النزيف في النهاية تاركاً جثة شاحبة ترقد أسفل الفراش الذي أرقد أنا عليه..

سأتنهد في النهاية وأنا أعرف ما سيحدث حالاً..

سأحاول الوقوف.. سأشعر بالدوار.. سأسقط على الفراش مرة أخرى وستظلم الدنيا من حولي..

بعدها سأستيقظ ليبدأ كل شيء من جديد!

• • •

سأستيقظ هذه المرة لأجد أنني أقف على سطح البناية التي أعيش فيها، أرمق المدينة السابحة في الظلام وأدخن..

أعرف أن زوجتي تقف خلفي هذه المرة وأعرف ما تفعله..

وما ستفعله!

تجذب الحبل الغليظ من أسفل قدمي، فأرفعها لأتركه لها.. هي ستحتاجه أكثر مني..



عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

أواصل تدخين سيجارتي في هدوء، لأسمعها تردد:

- أنت السبب.. أنت السبب..

وهي -بالطبع- تقصدني أنا، لكني لن أفسد استمتاعي بسيجارتي لمجرد أن أرد على سخافاتها.. أنا السبب؟.. ربما.. لكنه خطؤها لا خطئي..

ورائي تقف زوجتي وهي تلف الحبل الغليظ حول عنقها، ودموعها تسيل في صمت..

أنا السبب؟؟.. كيف تجرؤ؟!

كأنها نسيت كيف وصلنا إلى هذه النقطة.. كأني أنا الذي تسببت في موتها!

تنتهي زوجتي من لف الحبل على عنقها، ثم تقف وقد بدا عليها التردد.. أهو الخوف من المرتفعات، أم أنها غريزة البقاء على قيد الحياة؟.. لن أعرف أبدًا..

تقترب مني حتى تقف جواري تمامًا، لترمق ظلام المدينة بعينين بللتهما الدموع.. تقول مرة أخيرة دون أن تنظر لي:

- أنت السبب..

فأجيبها من وسط أدخنة سيجارتي:

- لم يعد هذا يشكل فارقًا الآن..

لتهزّ هي رأسها موافقة.. يرتجف جسدها الضئيل مرة، ثم يهدأ وكأنه أدرك أنه لا مفر.. إنها سكينة ما قبل الـ.. القفز..

بلا مقدمات تقفز زوجتي لتحلق تحت رحمة الجاذبية لحظات، قبل أن ينتهي الحبل الغليظ، لأسمع صوت فرقعة فقراتها العنقية من

مكاني، وجسدها يرتد للأعلى ثم للأسفل، لتتأرجح جثتها متدلية من أسفل قدميّ..

كبندول ساعة تتأرجح زوجتي يمينًا ويسارًا، لكني لا أهتم.. صدقوني..

لم أعد أهتم..

فقط أنهي سيجارتي، ثم أسقط فاقد الوعي ككل مرة..

• • •

أستيقظ هذه المرة لأجدني مقيدًا على ذلك الفراش، عاري الجذع والأقطاب تلتصق برأسي وصدري.. إن الألم لا يطاق.. لا يطاق!

أحاول الصراخ لكنهم ملؤوا فمي بتلك القطعة البلاستيكية، التي أخبرتني الممرضة أنها ستمنعني من ابتلاع لساني.. الممرضة تميل عليّ وتصيح لأسمعها:

- سنحاول إخراجك.. أرجوك قاوم..

فأقاوم..

وأغيب عن الوعي مجددًا..

• • •

هذه المرة أجدني عند نقطة البداية، لكني أعرف جيدًا ما سيحدث..

لا أطيق أن أعيش هذه اللحظات مرة أخرى لكن لا يوجد أمامي خيار آخر.. يمكنني أن أقاوم لكن هذا لن يؤدي إلى شيء..

أنا الآن أقف أمام باب منزلي.. في الداخل تنتظرني زوجتي

وهديتها بين يديّ.. إنها لا تعرف أنني قادم اليوم، لكنني أعرف أنها لا تعرف فأنا عشت هذه اللحظات مرارًا وتكرارًا..

أفتح الباب وأدخل.. الهدية بين يدي والمشهد يتكرر بحذافيره..

هناك تلك الأصوات في البداية.. صوتها لكنها ليست بمفردها..

تسقط الهدية من بين يدي وأتجمد مكاني.. الصوت واضح..

هناك رجل معها في الداخل!

تطيح قدمي بالهدية وأنا أندفع تجاه مصدر الصوت و.. و..

• • •

على الفراش ينتفض جسدي وتتسارع ضربات قلبي إلى حد يصيب كل من حولي بالذعر إلا أنا..

سيحقنونني في صدري مباشرة، ثم سيضعون منظم ضربات القلب على قلبي، وسيصيح أحدهم:

- سنبدأ بـ 220 فولت.. 3.. 2..1..

أفقد الوعي!

• • •

زوجتي في الداخل تراني فتشحب.. ويراني هو فيهرب دون لحظة تردد..

نصيحة تذكرها جيدًا.. لا تعد لمنزلك قبل موعدك مهما كان السبب!

تخرس زوجتي ولا أنتظر منها حرفًا، فقط أستدير لأغادر الغرفة لتلملم هي ملابسها وصوتها وأشياء أخرى تهشمت إلى الأبد بيننا..

أمّا أنا فلم أعد أهتم صدقوني.. لم أعد أبالي.

كل شيء يتكرر بحذافيره ولم أعد أشعر بشيء مما يحدث..

تلحق بي زوجتي ودموعها تبلل وجهها فلا أشعر بذرة غضب أو شفقة.. يمكنها أن تخونني كما تشاء، فقط أعيديه لي..

فقط لا تتركي المشهد يستمر كما يحدث كل مرة..

تتوسل زوجتي فأتركها وأدخل غرفة ابننا.. كنت أنوي أن آخذه معي وأرحل..

كنت أنوي..

• • •

- 280 فولت.. 3.. 2.. 1!

• • •

لا أعرف أن ما أراه حقيقة أمامي، إلا حين تشهق زوجتي من خلفي لتهوي فاقدة الوعي على باب غرفة ابننا..

ما الذي يمكن أن يفعله طفل في السادسة في غرفة تحتوي على مثقاب كهربي بمفرده؟.. الكثير.. فقط عليك أن تستعد لإزالة آثار الدماء لاحقًا!

فقط عليك أن تستعد لفقدان عقلك فهذا أقل ما سيحدث لك حين ترى ما رأيته أنا..

كنت أنوي أن آخذ ابني وأرحل.. لكنه..

لكنه كان قد رحل بالفعل..

• • •

تنتظم ضربات قلبي نوعًا، ويصيح الطبيب في الممرضات من حوله طالبًا بعض الأشياء التي ستبقيني حيًا ليبدأ هذا كله من جديد..

يفتح جفني بيده ليختبر حدقتيّ بمصباح صغير في يده، وهو يلهث بانفعال مرددًا:

- قاوم.. قاوم..

فأقاوم رغمًا عني..

• • •

تحاول زوجتي أن تقنعني أنني السبب!

تخبرني أنها لم تعد تجدني.. لم تعد تراني.. لم تشعر بي..

تخبرني أنني من فتحت لها الباب وطلبت منها الدخول.. وتخبرني أنها خسرت في النهاية مثلي تمامًا، فلا أرد عليها ولو بنظرة..

في تلك الساحة الواسعة أسير وجواري تخطو زوجتي خطواتها الأخيرة.. الشمس هادئة تصغي لما تقول زوجتي:

يجب أن تكون هناك نهاية ويجب أن تكون باختيارنا..

ونهايتها أعرفها فلقد سمعتها منها مرة ورأيتها مرات.. لكني عاجز عن الرحيل حقًا..

زوجتي لم تنس هذا اليوم قط ولم تعد تطيق ذكراه.. زوجتي اختارت الحل الذي يناسبها وهاهي تنتظر موافقتي عليه، فأصمت لتعتبر صمتي هذا ردًا..

نسير في تلك الساحة الواسعة حتى نبلغ تلك الشجرة، فأستند على جذعها وأقاوم رغبة عارمة في البكاء.. رغبة تتسلل من أعماقي فجأة وتسيطر عليّ، لأقول أخيرًا:

- أريد أن أراه مجددًا.. فقط أريد أن أراه..

فتبكي زوجتي بدلاً مني وتجيب:

- سأخبره أنك تحبه.. سننتظرك..

ثم تخرج ذلك الشيء من حقيبتها وتلصقه برأسها ويدوي صوت الطلقة..

هكذا وبسرعة والشمس تنظر إلينا بعين لا تطرف..

زوجتي رحلت، لكني أقاوم..

وفي الغد..

سيبدأ كل شيء من جديد..

• • •

يقول الطبيب وهو يعيد إلصاق الأقطاب بصدري ورأسي:

- سنجد علاجًا لحالتك.. صدقني.. سينتهي هذا كله لكن عليك أن تقاوم..

وأنا لا أملك إلا المقاومة وتصديقه..

زوجتي أطلقت رصاصتها على رأسها، لكنها نفذت من جمجمتها لتصيب رأسي أنا!

لا يمكنهم إخراج الرصاصة الآن، ولا يمكنهم فهم تأثيرها عليَ فأنا عاجز عن النطق وهذا أسخف ما في الأمر الآن..

رصاصة زوجتي تمنحني سلسلة لا نهائية من الكوابيس التي تتكرر طيلة الوقت.. هديتها الأخيرة بعد الرحيل..

قد يخرجون الرصاصة يومًا ما، لكني لا أعرف ما الذي سأفعله

حينها: إن الحياة التي تنتظرني لا تقل قسوة عن كوابيسي

نعم.. أنا من تركت المسدس لزوجتي يومها، وهي عثرت عليه وفهمت الرسالة كاملة.. ارحلي!.. ادفعي الثمن وارحلي.. وهي نفذت ما لم أطلبه منها حرفيًا..

لكني لم أرحل بعد..

أنا هنا..

أقاوم..

تتكرر كوابيسي.. وأتذكر..

• • •

أفقد الوعي وأستيقظ لأجد أنني على طاولة الإفطار..

زوجتي ستخرج حالاً من غرفة النوم.. تضع يدها على رأسها، مرددة أنها ليست على ما يرام..

ستموت زوجتي بعد قليل ثم ستحيا..

وسأعيش أنا في عذابي هذا بلا نهاية..

• • •

يقولون أنه..

القصة كالتالي..

الأمير الوسيم امتطى حصانه ومضى إلى الغابة يبحث عن صيد جديد.. تلك رياضة الأمراء كما أنها تساعده على تصفية ذهنه لاتخاذ بعض من القرارات التي لا تنتهي.. سيفه في غمده والقوس يتدلى على ظهره مع جراب الأسهم، وقلبه يخفق بالدماء الحارة التي لن تبرد حتى يصطاد شيئًا ما على أربعة أرجل..

كان يفضل الليل وهذا خطؤه الأول.. وكان يفضل العزلة وهذا خطؤه القاتل!

هكذا بدأ رياضته ليأتيه ذلك الغريب الملثم ليعرض عليه التحدي المعتاد.. سنعتبرها مسابقة ومن سيحظى بصيده أولاً، سينفذ الثاني له طلبه مهما كان..

ولأن أخطاء الأمير الوسيم لا تنتهي.. قبل التحدي..

قبله دون أن يعرف أن غريمه هو الموت ذاته!

بالطبع انتصر الملثم فوقف الأمير أمامه بكبرياء ليعلن أنه سيبر بوعده، وسينفذ ما يطلبه منه، ليمنحه الموت قدراته وليخبره أنه من الليلة سيكون عليه أن يحصد أرواح الفانين بدلاً منه..

فلم يجرؤ الأمير على الرفض.. لكنه لم يعد أميرًا بعدها..

يقولون إن اسمه هو (الأنكو) في أساطير السلت.. يقولون إنه بات ملثمًا تتطاير عباءته السوداء من خلفه.. يقولون إنه يقود عربة مخيفة ينقل فيها جثث ضحاياه..

ويقولون إنه لا أحد يلتقي الأنكو إلا مات..

يقولون الكثير دون أن يكونوا على يقين مما يقولونه، لكنني اليوم

سأخبركم المزيد عنه، فأنا الوحيد الذي التقاه وظل حيًا!

نعم.. اليوم سأحكي لكم ما حدث..

• • •

اسمي الحقيقي لا يهم لذا فلنفترض أن اسمي هو (نادر).. وصدقوني لا يوجد شيء آخر عني يستحق الذكر.. ربما كان لعملي في الآثار دور فيما هو قادم، لكني أؤمن أنه القدر..

القدر هو الذي قادني إلى تلك الرحلة المشؤومة إلى جبل قضمة الشيطان (Devil's Bite) الذي يؤمن الإيرلنديون أنه سمي بهذا الاسم لأن الشيطان قضمه ليترك تلك الفجوة العجيبة في منتصفه.. والقدر هو الذي جعلني أعثر على تلك الصخرة التي نحتت عليها أسطر بلغة عجيبة وبدقة أعجب بعيدا عن كل أفراد البعثة..

والقدر هو الذي أنساني تلك الصخرة حتى عدت لموطني، لأجدها وأنا أفرغ حقائبي ولأنتبه إلى حقيقة هامة..

حين عثرت على الصخرة دسستها في جيبي ولم أذكر أي شيء عنها لأي أحد من أفراد البعثة، بل إنني نسيتها تمامًا، وهذا لا يمكن استيعابه مع كوني عالم آثار يكفيني أن أعثر على قطعة فخار لأملأ الدنيا صراخًا ليعرف الجميع إنجازي.. فكيف إذن تجاهلت صخرة سوداء مربعة الشكل منقوش عليها بأحرف ذهبية أسطر بلغة لا يعرفها عالم آثار مخضرم مثلي؟؟

فيما بعد عرفت أن ما حدث كان ناجمًا عن إرادة الصخرة ذاتها، فهي التي عثرت عليّ وهي التي قررت البقاء معي حتى اللحظة المناسبة، لكن دعنا لا نستبق الأحداث..

المهم أنني حين عثرت عليها -ثانية- تركت كل ما في يدي وبدأت في تفحصها لتمر الساعات عليّ دون أن أشعر بها، ولينتهي بي الأمر وقد أصبت بالإحباط وأنا عاجز تمامًا عن تمييز هذه اللغة، على الرغم من كل المراجع التي عدت لها، وكل الاحتمالات التي قلبتها في رأسي..

وفي النهاية تركت كل هذا وقررت النوم لأرتاح من عناء السفر على أن أواصل في النهار و.. و..

وبالطبع لم أنم هذه الليلة..

كيف كان لي أن أنام مع ذلك الضوء الذهبي الذي أخذ يشع من الحجر فجأة ليضيء منزلي كله؟

كيف كان لي أن أنام بعد أن جررت نفسي من على الفراش لأتجه إلى مكتبي حيث رقد الحجر على سطحه وقد تغيرت الأسطر عليه لتكتب:

- المباراة تبدأ من اليوم أيها الفاني.. من سيحصد أكبر عدد من الأرواح حتى يتم القمر دورته هو الرابح.. ومن سيخسر سيكون عليه أن يبر بالوعد..

-!!!!!

• • •

من المستحيل أن يكون هذا كله خدعة..

حتى لو افترضت أن رفاقي في الرحلة وضعوا هذا الحجر في حقيبتي.. حتى لو افترضت أنهم تتبعوني إلى منزلي وتسللوا إليه أثناء يومي ليبدلوه بآخر عليه هذه الجملة العجيبة.. فمن أين لهم بحجر أسود يشع بالضوء؟!!!

إذن هي ليست خدعة.. للأسف ليست خدعة.. إذن هذا الحجر يحمل هذه الرسالة بالفعل حتى لو لم أفهم معناها..

من سيحصد أكبر عدد من الأرواح حتى يتم القمر دورته هو الرابح.. وعلى الخاسر أن يبر بوعده.. ما الذي يعنيه هذا؟!

ومن صاحب الرسالة؟.. والأهم من هذا كله.. لماذا أنا تحديدا؟!

كلها أسئلة حرمتني من النوم تلك الليلة، لكنها لم تمنحني إجابة من أي نوع، فلم أجد أمامي سوى خيار من اثنين..

أن أتخلص من الحجر وأنسى الموضوع برمته.. أو أن أبدأ في البحث عن كل شيء يتعلق بهذا الحجر وسر الرسالة المحفورة على سطحه..

والآن.. وأنا أكتب لكم هذه الأسطر أتمنى لو أنني كنت نفذت الاختيار الأول وتخلصت من الحجر.. لو كنت فعلتها لما كان العالم كله يبحث عني الآن!

لكن.. لنحكي ما حدث بالترتيب..

• • •

حين انتصف النهار كنت قد فقدت قدرتي على المواصلة وقررت أن أنام مهما كلفني الأمر..

لقد قضيت ساعات طويلة وأنا أبحث في كل ورقة بحث علمي ومرجع تاريخي وموقع على الإنترنت عن أي شيء يتعلق بهذا الحجر ولم أجد..

هكذا لم يتبق لي سوى خيار واحد وهو أن أستعين بزملائي من الباحثين، لكن دون أن أدعهم يكتشفون أن الحجر في حوزتي، لذا قمت بتصوير الحجر بكاميرتي الرقمية، ثم قمت بتصوير الصورة لأحصل على نسخة رديئة باللونين الأبيض والأسود، لأرسلها بالفاكس إلى كل

زملائي مع رسالة مفادها أن أحدهم أرسل لي هذه الصورة وأنه يبحث عن معلومات عن الحجر..

محاولة ساذجة، لكن لا أحد سيصدق أن الحجر في حوزتي دون أن أعقد مؤتمرًا صحافيًا لأعلن عن اكتشافي..

ثم إنني لا أتوقع أن يصل أحدهم لجديد، لكن المحاولة لن تضير..

هكذا عدت إلى فراشي بعد أن تأكدت أن الفاكس معدّ ليستقبل أي رسالة خلال نومي، ولم أستيقظ إلا وقد غابت الشمس عن السماء ليطل القمر من خلف الغيوم المنذرة بليلة ممطرة..

لكني حين استيقظت أدركت -متأخرًا جدًا- أنني اقترفت خطأً ما كان لي أن أقترفه..

أدركت أنني تركت الحجر دون حماية.. لهذا استيقظت لأجده قد اختفى..

تمامًا!

• • •

لا.. لم يكن هذا كله حلمًا..

لم أحلم بالحجر وبالرسالة والدليل صورته التي ما زالت تطل من الفاكس.. لكنه وببساطة اختفى وبلا أثر..

قلبت شقتي رأسًا على عقب وبحثت عنه في كل الحقائب والأدراج وأسفل كل قطعة أثاث وتماديت لأبحث خارج الشقة ومن النوافذ لكني لم أجد الحجر أو أي أثر لاقتحام حدث وأنا نائم.. دعك من أنه لن يقتحم لص شقتي ليحصل على حجر لا يعرف أحد أنه في حوزتي..

فقط صورته التي تبقت لتثبت أنه كان هنا.. وفقط صورته هي التي ظلت تحمل الرسالة ذاتها العجيبة..

كيف اختفى إذن؟.. لا تسألني فلا أملك إجابة.. والأجمل أنه لا أحد من زملائي أرسل ردًا على سؤالي على الرغم من مرور ساعات على إرسالي للفاكس وهذا -وإن كنت توقعته- لا يزال محبطًا..

على الأقل كنت أود لو فهمت ما حدث ويحدث..

ارتفعت طرقات على باب شقتي فجأة، فأسرعت لأفتحه وأنا أتمنى أن أجد أحدهم يحمل الحجر ويسألني إن كنت فقدته، لكني فوجئت بـ (منار) ابنة جاري تقف تلهث وقد أفسد الذعر مخارج ألفاظها، وهي تردد:

- أبي.. أسرع.. طبيب.. فورًا..

وهي رسالة لا تحتاج لذكاء.. أبوها يحتاج لطبيب فورًا، ويبدو أن حرف الدال الموضوع قبل اسمي أوحى لها أنني سأتصرف، لكن لا وقت لأشرح لها أن هذا الحرف هو نتاج لرسالة الدكتوراة التي قدمتها عن آثار قبائل المايا.. لذا أسرعت معها إلى شقة جاري الأستاذ (صلاح)، وأنا أحاول أن أزيح موضوع الحجر عن ذهني ولو مؤقتًا، لأجده على فراشه ينتفض في عنف وقد وقفت زوجته جواره تصرخ في هستيريا عاجزة عن التصرف..

صحت فيها على الفور:

- اتصلي بالمستشفى.. الآن..

فلم تستجب إلا بعد أن كررت ندائي مرتين.. وحين خرجت من الغرفة وجدتني بمفردي مع الأستاذ (صلاح) الذي أخذ ينتفض بعنف متزايد على نحو لم أره في أشد نوبات الصرع، لدرجة أن طرقعة مخيفة ارتفعت من عظام حوضه لتعلن أن تشنجات عضلاته بدأت في تحطيم عظامه!

مشهد مخيف يكفي لتجميدك في مكانك، لكني جاهدت لأفتح فمه لأدس أي شيء فيه قبل أن يبتلع لسانه، وهي خطوة لم يكن لها داع، فلم أكد أمس وجهه حتى بدأ يقيء دمًا تناثر على وجهي وملابسي، لأتراجع في اشمئزاز...

دخلت ابنته في هذه اللحظة لتبدأ في الصراخ، وما هي إلا لحظة حتى انضمت أمها إليها ليبدأ المرح.. صراخ وتشنجات ونزيف بدأ يخرج من كل فتحات الأستاذ (صلاح)!

- ساعده أرجوووووووووك..

هكذا تصيح الزوجة المسكينة، لكن ما الذي بيدي لأفعله؟!.. ما الذي أصابه أصلاً؟؟

طرقعة أخرى لتهشم عظام فخذيه.. المزيد من الدماء.. ثم طرقعة من عظام عنقه ليتوقف الأستاذ صلاح عن الانتفاض أخيرًا.. هكذا انتهى الأمر بأسرع مما تخيلنا!

تهوي الزوجة فاقدة الوعي وتخرج منار من الغرفة صارخة، بينما أقف أنا ذاهلاً والدماء تغطيني أحدق في جسد رجل مات بأبشع طريقة ممكنة.. وفي هذه اللحظة.. وفي هذه اللحظة بالذات رأيت الحجر..

كان أسفل الوسادة.. وحين مددت يدي المرتجفة لألتقطه قرأت على سطحه (الأول.. الآن يأتي دورك)!!!

• • •

لا أعرف إلى هذه اللحظة لماذا احتفظت بالحجر بعد ما حدث.. صدقوني لا يوجد لدي أي مبرر..

الأستاذ (صلاح) مات بسببه وأنا الوحيد الذي يعرف ذلك.. عمال

الإسعاف الذين نقلوا جثته زعموا أنها أسوأ حالة صرع في التاريخ، لكني أعرف أنها ليست كذلك..

وأعرف أيضًا أنهم لن يجدوا شيئًا منطقيًا حين يفحصون جثته، فكل ما حدث ويحدث حتى الآن لا يقرب للمنطق في شيء..

أولاً أعثر على الحجر العجيب.. ثم أنساه.. ثم أعود به هنا.. ثم أقرأ تلك الرسالة التي تزعم أنني في مسابقة قتل مع شيء ما.. ثم يبدأ الحجر في تنفيذ مهمته ويقتل!

بعد هذا كله تطلب مني منطقًا؟!

ليلتها تجمع الجيران في شقة الأستاذ (صلاح) يحاولون تهدئة الأم والفتاة، فانسللت أنا من وسطهم والحجر في جيبي لأعود إلى شقتي شاعرًا بالذنب..

أنا من أحضر الحجر إلى هنا..

أنا السبب في موت الأستاذ صلاح تلك الميتة البشعة..

هكذا جلست على فراشي لساعات طويلة أفكر في أي تفسير أو سبب لما يحدث، قبل أن يتوقف تفكيري عند نقطة بعينها.. وفقًا للرسالة التي يحملها الحجر، عليّ أن أقتل أكبر عدد ممكن من الأشخاص قبل أن يتم القمر دورته، أي خلال شهر واحد..

وهنا تأتي عدة أسئلة..

لماذا أنا بالذات؟

ومن صاحب هذا الحجر؟

وهل سيتوقف عن القتل أم لا؟

وما الذي سأربحه لو خضت هذا التحدي؟.. والأهم.. ما الذي سأخسره؟!

كلها أسئلة منطقية والإجابة عنها لا تبدأ إلا بإجابة السؤال الثاني.. من هو صاحب الحجر؟

من أين أتى؟.. كيف يمتلك تلك الخواص العجيبة الخارقة للمألوف؟.. وهل يمكن تدميره؟؟

كلها أسئلة لا إجابة لها إلا هناك.. في المعمل..

• • •

يعرف أي باحث آثار عدة معامل جيولوجية تساعده على إكمال أبحاثه كل فترة.. هناك يمكنك أن تحلل الرمال والصخور والزجاج وأي شيء يدخل الكربون في تركيب ذراته، لتعرف كل شيء عن الأثر.. عمره.. تركيبه.. خواصه.. قيمته..

التحاليل والتجارب التي نقوم بها أعقد من أشرحها لك هنا ولا مبرر لأضيع وقتك في هذا!.. لذا سأقفز إلى النقطة المهمة وهي أن أحد أصحاب هذه المعامل هو (سمير) صديقي منذ أيام الدراسة، والذي يملك مزية لن تجدها في أي صاحب معمل آخر على كوكب الأرض..

إنه لا يهتم بأي شيء مهما كان!

لو دخلت عليه وأنا أحمل مومياء في تابوت ذهبي مرصع بالجواهر، سينظر له بلا اهتمام وهو يسألني ما المطلوب منه بالضبط، لأنه يريد أن ينهي عمله سريعًا قبل أن تبدأ المباراة.. وهذا هو بالضبط الشخص المطلوب الآن..

هكذا حين ذهبت له وعرضت عليه الحجر دون أن أحكي له ما حدث كاملاً، نظر له بلا مبالاة وقال:

- إذن أنت تعتقد أنه حجر خارق؟

فأجبت:

- أقول لك إن الكتابة على سطحه تغيرت..

- ولم يخطر في بالك أن يكون أحدهم قد أبدله؟

فصدمني سؤاله.. حقًا.. لماذا لا؟.. لكن مهلاً.. الأستاذ (صلاح).. لقد هلك أمام عيني والحجر أسفل وسادته.. نعم هذا الحجر خارق!

لذا قلت:

- لست هنا لأحاول إقناعك.. فقط أريد أن أعرف كل شيء عن كل ذرة في هذا الحجر..

- سيستغرق هذا وقتًا، والمباراة ستبدأ بعد..

فقاطعته:

- أنا أعرف أنك لن تخذلني... ليس أنت..

وهو قول أخرق لكنه يصلح مع أصدقاء الدراسة... لذا هزّ كتفيه وقال:

- لا بأس.. لنبدأ إذن.. سنجرب كل شيء نعرفه..

• • •

وبالفعل جربنا كل شيء نعرفه.. ولم نتوصل إلا إلى حقيقة واحدة.. هذا الحجر خارق فعلاً!!

ذراته لا تنتمي إلى أي من العناصر التي سمعنا عنها في الجدول الدوري.. كل التحاليل لا تنطبق عليه، وثمة مجال إشعاعي حوله يفسد عمل أي جهاز يوضع فيه، ولو زعمت الآن أن هذا الحجر قادم من الفضاء الخارجي فلن يجرؤ أحد على جدالي، لكنه ليس كذلك..

أنا أعرف هذا، وما حدث بعد ذلك أثبت لي أنها كانت مجرد أمنية بعيدة المنال..

المهم أنني جلست جوار سمير الذي كاد يفقد عقله وقد أثار الحجر اهتمامه ربما لأول مرة في حياته كلها، وقد أخذ يردد:

- لا أفهم.. لا أفهم..

فلم أرد عليه.. فقط شعرت بالإحباط ذاته الذي شعرت به حين فشلت في العثور على أي أصل تاريخي للحجر الذي تحول إلى لغز قاتل يطلب مني الانضمام له في هوايته..

الخطوة المنطقية التي تبقت أمامي هي أن أتخلص منه، وهي خطوة كدت أفعلها حين عدت إلى منزلي في تلك الليلة، لولا أنني وجدت مفاجأة في جهاز الفاكس..

أحدهم أرسل إليّ رسالة مختصرة تقول:

- لو أردت أن تعرف كل شيء عن الحجر يمكنك أن تأتي لي غدًا... العنوان (....)..

ماذا؟؟ أحدهم يعرف كل شيء عن الحجر!!

كل هذا سينتهي غدًا و.. و..

وهنا أتاني اتصال يخبرني أنهم عثروا على جثة (سمير) في معمله!

• • •

هكذا أصبح صديقي (سمير) هو الضحية الثانية.. لكنه لن يكون الضحية الأخيرة كما سترون بعد قليل..

عثروا على جثته متفحمة في المعمل، لكنهم لم يعثروا على آثار حريق!

نعم.. لم تشتعل النيران في المعمل، بل لم تتصاعد رائحة الدخان حتى.. فقط مرّ أحدهم عليه ليوصل له شيئًا ما، ليجد جثته المتفحمة راقدة على الأرض، فأبلغ كل من يبلغونهم في مثل هذه المواقف..

وكلهم تجمعوا حول الجثة عاجزين عن الفهم، لكن أحدهم تطوع ليذكر أنني كنت آخر من زاره، لأجد نفسي واقفًا أمام جثة (سمير) وجواري رجل شرطة متشكك، يرمقني بكراهية..

- إذن أنت لم تفعلها؟

هكذا قال رجل الشرطة وهو يتمنى لو اعترفت لأوفر عليه عناء الليلة، لكن أجبت:

- لا أحد قادر على فعلها.. أن تحرقه بهذه الصورة، دون أن تحرق أي شيء آخر.. لا أحد قادر على فعلها..

نعم.. لا أحد.. لكن حجرًا صغيرًا فعلها..

الحجر الذي تغيرت الرسالة على سطحه لتقول هذه المرة (الثاني لي ولا أحد لك.. يوم النهاية لن يسعفك أحد)!

والمعنى واضح.. إنه متقدم عني بجثتين والدور عليّ لألحق بالركب.. كل هذا يبدو جنونًا لن يقوى أحد على تصديقه، لذا عليّ أن أتظاهر بالبراءة لأطول فترة ممكنة..

- وما الذي كنت تفعله معه؟

يقولها رجل الشرطة متهمًا، فأجيب:

- زيارة.. مجرد زيارة لصديق..

- ولم يحدث شيء خلال الزيارة.. أي شيء؟

- لا شيء يؤدي إلى ما أراه الآن..

تيهر رأسه في شك يتضاعف في أعماقه. هو يعرف أن لي علاقة بما حدث وهو في هذا محق، لكنني لن أتركه يثبت هذا، لذا ترنحت متعمدًا لأقول:

- لا داعي لوجودي هنا.. لن أحتمل رؤية جثته أكثر من هذا..

فلم يسمح لي بالانصراف، إلا بعد أن تأكد أنني سأمر عليه لأكمل التحقيق.. لكنني نجوت ولو مؤقتًا هذه الليلة..

نجوت وقررت أن أفعلها بأي وسيلة..

سأتخلص من الحجر..

• • •

وبالطبع توقعتم ما حدث..

الحجر لا يمكن تدميره بأي وسيلة.. إنه ضد الكسر والحرق والغرق والصعق والضغط والتآكل و.. و..

إنه ضدي!

تبقى لي أن أبعده عني لأطول مسافة ممكنة، وهذا ما انتويته فعلاً لولا أنني قررت أن أؤجل هذا لصباح اليوم التالي.. وكان هذا ثاني أكبر خطأ اقترفته في حياتي..

ففي تلك الليلة رأيته لأول مرة..

رأيت الأونكو!

• • •

أذكر ما حدث في هذه الليلة جيدًا.. أذكره مهما حاولت نسيانه..

في تلك الليلة كنت قد قررت التخلص من الحجر بأي ثمن، وبعد

محاولات عدة لتدميره أدركت أن هذا لن يكون إلا بإخفاءه إلى أبعد مسافة ممكنة.. لكني قررت النوم قبلها وأنا الذي لم أحظ بنوم هادئ منذ أن رأيت هذا الحجر المشؤوم..

لا.. لم يكن حلمًا.. الحلم يحتاج لنوم وأنا لم أنم..

ما حدث هو أنني ألقيت بجسدي المكدود على الفراش، وأغمضت عيني لأبدأ رحلة السقوط!

فجأة وجدتني أسقط من عل، ففتحت عيني لأجدني أهوي من السماء المظلمة إلى دغل تشابكت أغصانه، فلم أملك نفسي من الصراخ.. هاهو كابوس أجدادنا الأوائل وقد أصبح حقيقة..

أنا أسقط.. أسقط.. أسقط.. ثم يتلاشى كل شيء من حولي فجأة، لأجدني واقفًا هذه المرة على أرض طينية زلقة وصوت الحوافر يقترب..

ما الذي يحدث؟ كيف؟ متى؟.. لا ترهق نفسك بالبحث عن إجابة، فأنا لم أجد..

اقترب الصوت مني فلم أحاول الهرب بل تجمدت في مكاني هلعًا.

وأمامي ومن وسط الدغل ومن قلب الظلام رأيته لأول مرة..

العباءة السوداء.. الطول الفارع.. الحصان الأسود الضخم الذي يجر العربة الكئيبة.. والبرودة التي غمرت كل شيء من حولنا ما إن ظهر هو..

ترجل من عربته ببطء ثم اقترب مني رافعًا يده العظمية التي تآكل جلدها.. وحين تحدث، اقتحمت كلماته روحي فلم أحتج لمعرفة اللغة لأفهم ما قاله..

- أنت ترفض الخضوع للمبارزة.. ستخسر لو حاولت وستخسر لو لم تحاول..

ما الجدوى إذن؟!!.. هكذا فكرت فأجابني:

- يجب أن تخضع للقواعد.. وإلا ستدفع الثمن.. يجب أن تبدأ في حصد الأرواح وإلا حصدت روحك..

فانتزعت الكلمات من فمي:

- لكني لا أريد.. أعني.. أنا لن أقتل..

- بل ستفعل.. وستقتل أكبر عدد ممكن.. أنت تتحدى الموت وعليك أن تحاول..

- أنا لست قاتلاً..

- ستكون.. وإلا ستندم.. الأنكو لا يعد بشيء وينساه.. إياك ألا تحاول..

قالها ثم انقض عليّ فجأة ليدفعني في صدري، فطار جسدي إلى الخلف ليبتلعني الظلام، الذي انقشع في لحظة لأجدني على الأرض جوار فراشي في منزلي أرتجف بلا قدرة على التوقف..

أرتجف عاجزًا عن التفكير.. عن الحركة.. عن التنفس حتى..

ما حدث كان حقيقيًا.. لم يكن حلمًا.. لم يكن مزاحًا..

عليّ أن أقتل أكبر عدد ممكن وإلا سيفي الأنكو بوعده..

الأنكو؟.. هذه الكلمة تبدو لي مألوفة.. هذه الكلمة فسرت لي الكثير فيما بعد..

• • •

هكذا قمت بالبحث عن الكلمة وهكذا عرفت من هو الأنكو بالتحديد..

وكانوا يظنونه أسطورة..!

إنه الأمير الذي خسر تحديه مع الموت فحكم عليه أن يحصد

الأرواح إلى يوم الدين: وهاهو قد وجد من يتولى عنه العبء مستخدمًا حجره لإيقاعي في فخه..

الرسالة الآن واضحة.. لو خسرت سأتحول أنا إلى الأنكو وهو مصير يبدو الموت أكثر رفاهية منه واقناعًا.. مصير يستحق أن أحاول..

أن أجرب.. أن أحارب لو لزم الأمر..

فقط عليّ أن أجيب عن أهم سؤال حتى الآن..

كيف يمكنني حصد أكبر عدد ممكن من الأرواح؟

سؤال يحمل ألف جواب ولا يحمل وعدًا بالنجاح، فهل لديك إجابة؟

هل؟!

• • •

أن تقتل أكبر عدد ممكن من الأشخاص في شهر!

هذه هي مهمتي وهذا هو قدري، لكن السؤال الذي أعجز عن إجابته هو.. كيف؟!

يمكنك أن تبدأ مثلي في التفكير في الأفكار الكبيرة الجميلة، كأن أفجر قنبلة نووية في أحد العواصم، لتصطدم مثلي بحقيقة أن القنابل النووية ليست متوفرة للبيع على موقع Ebay.. يمكنك أن تفكر أن أطلق فيروسًا شديد العدوى بين البشر، لتنتبه أنني لست عالم جينات محنك، وأنني لا أعمل في معامل وزارة الدفاع السرية..

يمكنك أن تفكر في غاز الأعصاب والمواد المشعة ومدافع الليزر الحارقة وإحداث الزلازل أو تفجير البراكين، لتصل في النهاية إلى حقيقة أن كل هذا السخف لا ينتمي إلا إلى روايات الخيال العلمي المنتشرة هذه الأيام..

يمكنك أن تفكر، لكنك ستصل في النهاية إلى السؤال الأول..

إذن.. كيف؟!

لاحظ أن الأفكار الصغيرة لن تجدي نفعًا أيضًا، فأنا لن أبدأ في إحراق المباني، ولن أقف في وسط الميدان لأطلق النار على المارة بمدفع رشاش.. في الحالتين لن تحظى إلا بعشر ضحايا –لو كنت موهوبًا– قبل أن يقبضوا عليك لتتدلى من حبل المشنقة، أو لتقضي ما تبقى لك من الشهر في زنزانة باردة في انتظار زيارة الأنكو..

آآآآآآه... الأنكو..

يقولون إنه أسطورة لا أكثر.. حكاية تحكيها الجدات على نار المدفأة.. يقولون إنه رمز لخوفنا من الموت ومن التهور ومثال لعاقبة الغرور..

يقولون إنه وإنه.. لكني وجدي أعرف أنه حقيقة..

أنا رأيته وأنا أجبرت على تقبل تحديه.. تحدي الموت!

أراهن أنه لا يواجه مشكلتي، فكل ما عليه هو أن يختار ضحيته لتموت.. هكذا وبكل بساطة!

لا تنكر أن الإغراء لا يقاوم.. أن تفكر في شخص ما ليموت!

تخيل مديرك الذي تكرهه.. زميل دراستك الذي يسخر منك.. الفتاة التي تركتك وجعلتك أضحوكة المدينة..

تخيل الإسرائيليين أو القتلة الذين يرتعون في العراق أو سفاحي البوسنة والهرسك.. تخيل قتلة الأطفال والمغتصبين وتجار المخدرات..

مجرد أن تفكر فيهم.. سيموتون!.. هكذا وبكل بساطة!

ربما عليَّ أن أخسر التحدي دون مقاومة.. أن أتحول لأنكو لأقود عربته الرهيبة التي سأملؤها بجثث كل من يستحقون.. ربما لكن..

من يضمن لي ألا أنضم أنا إلى جثث عربته؟

من يضمن لي أن خسارتي لن تقودني إلى ما هو أسوأ من الموت؟!

لا.. لن أخاطر.. يجب أن أكسب هذا التحدي.. يجب أن أعثر على طريقة لحصد أكبر عدد من الأرواح قبل أن يتم القمر دورته المحتومة..

يجب أن أفعلها وبسرعة.. أن أحقق ما عجز عنه من ألقوا القنبلة النووية على اليابان.. أن أحقق حلم كل القتلة المهووسين.. أن أحقق نبوءة مدعي أن نهاية العالم اقتربت..

أن أتحول إلى أشهر قاتل في التاريخ الإنساني..

يجب أن.. سوف.. مهلاً..

لقد وجدتها!!!

وجدت الطريقة المثلى لحصد أكبر عدد من الأرواح قبل أن يتم القمر دورته..

يمكنني الآن أن أتقافز عاريًا في الطرقات فما وصلت له أهم من قانون الطفو بمراحل..

لقد عرفت الطريقة.. فهل عرفتها أنت؟

• • •

ستحتاج إلى التالي.. كمبيوتر حديث ذي معالج بيانات متطور، وخبير جرافيك متخصص في مجال الرسوم ثلاثية الأبعاد والعديد من الأفلام التسجيلية وهاكر محترف ومسدس فيه طلقتان على الأكثر..

نعم هذا هو كل ما يلزمك لتقتل أكبر عدد ممكن من الأشخاص في شهر، لكن احذر.. أي خطأ بسيط قد يفسد كل شيء، لذا راجع معي ما يلزمك مرة أخرى..

ابحث عن جهاز كمبيوتر وقم بتجربته جيدًا وتأكد من توصيله بمصدر ثابت للكهرباء فلا وقت لأخطاء من نوعية تلف القرص الصلب بسبب انقطاع مباغت للكهرباء أو إعادة تثبيت نظام التشغيل.. لا تبحث عن الأناقة كذلك، فالكمبيوترات المحمولة عملية لكنها لا تصلح لعمل الجرافيك الثقيل، لكننا لن ننفذ المؤثرات الخاصة لفيلم سيد الخواتم كذلك، لذا لا ترهق نفسك طويلاً، فقط حاول الوصول للأفضل لأنه سيساعدك على توفير الوقت..

ابحث بعدها عن خبير جرافيك متخصص في مجال الرسوم ثلاثية الأبعاد وهؤلاء متوافرون في شركات الدعاية والإعلان.. نعم.. هؤلاء من يقدمون لك كل الإعلانات المبهرة السخيفة التي جعلتك تبتاع نصف ما في منزلك الآن والذي لا تذكر الآن لماذا ابتعته لكنك واثق أنك لن تستخدمه أبدًا!

الواقع أن قدرات هؤلاء القوم أكثر بكثير مما يتخيلونه هم، واليوم أنت ستثبت لهم ذلك بنفسك.. المهم أن تختار أحدهم وأن تسأل عنه وخذ وقتك.. ما ستنفذه لن يستغرق أكثر من يوم واحد أو اثنين على الأكثر، لذا ادخر باقي الوقت لمرحلة الإعداد والتخطيط..

انتظره في جراج الشركة.. هؤلاء الذين يقضون حياتهم أمام شاشة الكمبيوتر لا يشعرون بمرور الوقت، وغالبًا ما يغادرون عملهم في ساعة متأخرة من الليل، مما سيمنحك الهدوء الذي ستحتاجه، والباقي مفتوح للارتجال..

انتظره في سيارته لو تمكنت من فتحها أو بالقرب منها على أن يسترك الظلام، وحين يفتح هو سيارته، الصق مسدسك برأسه ثم اصرخ كالمجانين، ليطيعك هو بلا مناقشة..

قده إلى منزلك أو إلى أي مكان هادئ بعيد بعد أن تتأكد أنك نقلت الكمبيوتر إلى هناك.. بالمناسبة جهاز الكمبيوتر سيكلفك الكثير جدًا خاصة بالمواصفات التي ستحتاج لها، لهذا يمكنك استخدام المسدس لتقليص هذا الثمن إلى أقصى حد!

المهم.. الآن لديك مكان هادئ وكمبيوتر حديث ومهندس متخصص يجلس وراءه وعلى استعداد لطاعتك طالما برودة فوهة مسدسك تلثم جبهته على فترات متقاربة، والآن عليك أن تطلب منه أن يتصل بهاكر صديقه على أن يكون محترفًا وقادرًا على تنفيذ أي شيء ستأمره به..

بالطبع ستسمع الكثير من الهراء من نوعية أنه لا يعرف واحدًا، وأنه لا وقت لديه للأصدقاء أصلاً، لكنه سيكذب.. كل من يعملون في مجال الجرافيك يبقون على اتصال بهاكر يمدهم بالبرامج الحديثة والتي يصل ثمن الواحد منها في بعض الأحيان إلى عشرات الآلاف من الدولارات، في حين أنها لا تكلف سوى ثمن الأسطوانة التي نسخت عليها، لو جاء لك بها هاكر محترف..

ثم إن الهاكر المحترف يختلف عن الهاوي في أنه جزء من كل.. الهواة يجيدون اقتحام المواقع الخليعة وتحميل الأفلام والألعاب وربما سرقة البريد الإلكتروني أو إصابة بعض المواقع عديمة الحماية بالشلل..

أما المحترفون فهم يعرفون عملهم جيدًا.. يعرفون قطع الكمبيوتر قطعة قطعة ويبحثون عن الأحدث دومًا، والأحدث يستلزم برامج أفضل والاثنان يستلزمان أموالاً أكثر، وهذا يستلزم اختراق بعض البطاقات الائتمانية بصورة تمنع الإنتربول من زيارة منزلك، وهذا يعني كمًا لا بأس به من الخبرة والسرعة والإتقان..

واحد منهم يكفي لتنفذ أنت مهمتك وهذا الواحد سيأتي لك به مهندس الجرافيك بعد أن تطلق رصاصة قرب رأسه، مدخرًا الرصاصة الثانية لتطلقها قرب رأس الهاكر..

اطلب من مهندس الجرافيك أن يبدأ العمل على الفور، قبل أن يصل الهاكر حتى، فهو سيحتاج لوقت طويل لتنفيذ ما ستطلبه.. امنحه الأفلام التسجيلية واشرح له ما تريده جيدًا فلا وقت للإعادة، لكن لا ترهق نفسك طويلاً بالإتقان، فنحن اليوم لا نحاول أن نبيعك سلعة لن تحتاجها أبدًا..

وبينما هو يعمل استعد لاستقبال الهاكر.. كرر الصراخ كالمجانين وضع فوهة المسدس في فمه من باب التجديد وبث الرهبة في قلبه وقلب مهندس الجرافيك.. ولو كنت محظوظًا وبلل هو سرواله ستدرك أنك لن تحتاج لتكرار ما ستطلبه مرتين أبدًا..

الآن الكل مستعد.. الكل يعمل.. عظيم..

فقط عليك الآن أن تعرف ما الذي ستدفعهما للقيام به تحديدًا..

• • •

وتأكد أن النتيجة الأولى لن تكون مرضية أبدًا..

هكذا ستجد نفسك تحدق غاضبًا في شاشة الكمبيوتر، ومهندس الجرافيك المذعور يشرح لك كيف أن الكمبيوتر ليس بالجودة الكافية لما طلبته منه.. سيشرح لك أن عملية الـ (Rendering) تتطلب رامات عالية السرعة ومعالج بيانات أفضل بكثير من الموجود حاليًا، ثم سيخبرك أنك لو تمكنت من إحضار بعض القطع ذات المواصفات الخاصة له، فربما سيمكنه أن يحقق نتيجة أفضل ولأن هذا سيتطلب..

هنا أخرسه برصاصة في فخذه!

وهنا أعلن له بوضوح وصراحة -متجاهلاً صرخاته وصرخات الهاكر صديقه- أنك ستتركه ينزف حتى الموت، إلا لو أنهى عمله في أسرع وقت بحيث يتبقى ما يكفي لإنقاذ حياته..

هنا سيتحول عزيزنا مهندس الجرافيك إلى بيل جيتس القادر على التصرف بأي جهاز، للوصول إلى النتيجة اللازمة..

وتأكد أن النتيجة الثانية ستكون أفضل بكثير.. تأكد من هذا وقم بالخطوة التي نعرفها جيدًا لكننا نخشى أن نذكرها..

تخلص من مهندس الجرافيك.. رصاصة في رأسه هذه المرة..

في قتله مزيتان.. أولهما أنه سينضم إلى رصيدك من الضحايا والذي ستحتاجه قبل مرور الشهر، والثانية أنه سيضاعف من شوق الهاكر ليبدأ العمل بعد أن يتوقف عن الصراخ والهلع..

كن قاسيًا في تعاملك مع الجثة بعد ذلك فلن يضير الشاه سلخها بعد ذبحها، وكل ما ستفعله سيزيد من مصداقيتك أمام الهاكر..

وتذكر.. أنت لا تملك خيارًا آخر..

إما هذا وإما أن تجر عربة الأنكو إلى الأبد..

الآن تبدأ المرحلة الأخيرة من اللعبة برعاية الهاكر الذي سيقوم باختراق برامج تأمين الأقمار الصناعية، لينقطع البث المعتاد ولتذيع عليهم ما أنجزه مهندس الجرافيك..

والآن سل نفسك هذا السؤال..

أنت في منزلك.. عدت من يوم طويل شاق من العمل أو الدراسة، لتسرع إلى التلفاز كما يفعل المليارات كل يوم، ثم جلست أمامه تشاهده

وأنت تملأ فمك بأسهل نوع من الطعام، لتجد أن الإرسال قد قطع فجأة..

هكذا وبلا مقدمات أو موسيقى النشيد الوطني أو رسالة مكتوبة..

فجأة ستعود من عالم التلفاز إلى أرض الواقع لتجد أنك تحدق في حاكم بلدك وهو يتحدث بجدية شديدة، قائلاً ما قمتم بتركيبه من تسجيلات سابقة:

- أيها السادة المواطنون.. نحن في حالة حرب بيولوجية.. أمامكم 24 ساعة لتتركوا منازلكم ولتهربوا.. أكرر.. 24 ساعة فقط.. أيها السادة المواطنون.. أسرعوا..

الآن اطلب من الهاكر أن يقطع البث تمامًا بتعطيل الأقمار الصناعية بأفضل باقة من الفيروسات لتشل أنظمته لأطول فترة ممكنة..

سيذهل السادة المسؤولون وسيحاولون نفي الخبر على الفور.. سيحاولون السيطرة على الأقمار الصناعية.. سيحثون أيضًا عن مصدر بث هذه الرسالة..

لكن هذا سيستغرق منهم وقتًا أطول بكثير مما تحتاجه..

لا.. لن تحتاج إلى 24 ساعة يا عزيزي.. ست ساعات تكفي.. ففي الساعات الست الأولى سيبدأ المرح..

لكنه لن يتوقف بعدها أبدًا..

• • •

سيبدأ المرح على الفور وتذكر هذا.. الشائعات أقوى من الحقيقة لكن البيانات الحكومية لها سطوة القدر وقوته..

تخيل أنك تجلس أمام التلفاز لتجد حاكمك يطلب منك الهرب..

هكذا بكل صراحة ووضوح..

ليست حالة طوارئ أو حرب أو أمن دولة أو حتى حالة وبائية.. بل هو يطلب منك الهرب!

ما الذي ستفعله بالله عليك؟.. نعم.. ستهرب!

وهنا يبدأ المرح لكنه لا ينتهي..

اقرأ الحوادث وستفهم ما أعنيه.. شبكة الإنترنت تحتفظ بغسيلنا القذر للأجيال القادمة، وعليها ستجد ما سيعينك على الخوف فالهلع..

حين يشب حريق في مول تجاري ما الذي يحدث؟.. حين تنقطع الكهرباء عن أحد الأحياء لأكثر من ليلة ما الذي يحدث؟.. حين يترك الكل منازلهم ومحالهم وأراضيهم ويهربون.. ما الذي يحدث؟؟

فوضى..

تلك الكلمة السحرية التي تحمل مذاق الموت ورائحة النهاية..

تلك الكلمة التي تعني أن عداد الموت قد بدأ في العمل بعجلة تسارعية.. تلك الكلمة التي تعني أن مهمتك قد انتهت وأنه ما عليك سوى الانتظار في هدوء تام..

أردت أن تقتل أكبر عدد من الأشخاص وها أنت تفعلها دون أن تتحرك من مكانك..

ها أنت تنتصر دون أن تحرك عضلة.. هذا ما فعلته أنا حتى إنني أطلقت سراح الهاكر مبتسمًا ليلوذ بالفرار..

سيحاولون السيطرة على شبكات الأقمار الصناعية على الفور.. سينفون الخبر بألف وسيلة ووسيلة، وربما سيستعينون بقوات الجيش للسيطرة على الموقف ليكتشفوا -بعد فوات الأوان- أنهم يضاعفون بهذا كله من حالة الفوضى..

سينجحون في النهاية بمعجزة ما لكن هذا لن يهم.. لقد فعلتها، وحتى الأنكو لن يستطيع التغلب عليّ هذه المرة..

لهذا ما سأفعله الآن بسيط للغاية ومنطقي لأقصى حد..

سأنام!

• • •

وكما حدث في المرة السابقة انتقلت ما إن مس رأسي سطح وسادتي.. وجدتني أسقط في الظلام الحالك لينتهي بي الأمر في تلك الغابة الشيطانية أصغي لحوافر الحصان الأسود الرهيب إذ يقترب مني حاملاً الأنكو على ظهره وعربته يجرها من وراءه..

لكني لم أخف هذه المرة.. وقفت مبتسمًا بثقة منتظرا وصوله حتى هبط من متن جواده ليقف أمامي ترفرف عباءته من حوله كالأشباح، ليقول:

- إذن فلقد فعلتها أيها الفاني..

فأجبته بسعادة لم أملك منعها:

- نعم فعلتها.. كسبت التحدي وقبل أن يتم القمر دورته..

- نعم.. أثبت جدارتك ولم أكن أسعى لمن هو أفضل..

قالها فتسلل الشك إلى أعماقي، لأتساءل:

- ما الذي تعنيه؟

- لم يكن الرهان لك بل لي.. لو عثرت على من يصلح سيأخذ مكاني.. هكذا كان مطلبهم..

- مطلبهم؟ عمن تتحدث بالضبط؟!

وهذه المرة لم يجبني هو.. بل هم!!

أشباح سوداء انسلخت من ظلام الغابة لتحيط بي من كل اتجاه، فتجمدت في مكاني هلعًا وصحت بصوت مختنق:

- لم يكن هذا اتفاقنا..

- أنت وثقت في الموت والموت وثق فيك..

- لكن.. لكن..

لكن الأشباح السوداء لم تمهلني أكثر من هذا.. لقد منحهم الأنكو البديل وهم لا يحبون الانتظار..

لا يحبون الانتظار، ولا يعرفون الرحمة..

• • •

يقولون الكثير والكثير عن الأنكو..

يقولون إنه مجرد أسطورة ويقولون إنه أمير غافل تحدى الموت وخسر التحدي دون أن يعرف هوية غريمه..

يقولون إنه يجوب العالم بعربته التي يحمل فيها جثث ضحاياه أو أرواحهم..

يقولون إنه من أساطير الشمال وإنه لا يمت لواقعنا بصلة، لكنهم لا يعرفون..

أنا الأنكو الآن.. أعرف أكثر..

أعرف أنني سأتدثر بالعباءة السوداء التي ستخفي هيئتي المخيفة بعد أن تم تحولي وأعرف جوادي الأسود الرهيب وأعرف كيف أملأ عربتي وبم سأملؤها..

يقولون إنه.. لكنهم لا يعرفون..

أنا الأنكو.. أعرف أكثر!

• • •

عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

نحن

(1)

نحن نسرق الموتى وهذه هي مهنتنا!

لا.. لا نسرق كنوزهم كما كانوا يفعلون مع الفراعنة.. لا أحد يأخذ شيئًا في كفنه هذه الأيام إلا لو كان أحمق أو يريد حرمان أقاربه مما أخذ.. لكن على أية حالة أنا لم أقصد أننا نسرق ما معهم..

بل نسرقهم هم..

نسرق جثث الأموات..

نعم.. يمكنك أن تمتعض وأن تتظاهر بأنك صدمت مما نفعله وكأنك لم تسمع مهنتنا هذه من قبل.. كأن كل الجثث التي تمتلئ بها مشارح كليات الطب نبتت من فراغ أو كأنهم يولدون موتى في مختلف المراحل العمرية، فقط ليتعلم طلبة الطب التشريح على أجسادهم..

عزيزي.. يجب أن تكون مدينًا لنا بالفضل!

لولانا لما وجد الطلبة ما يتعلمون عليه، ليغدوا أطباء قادرين على علاجك أنت لو أصابك مرض ما طيلة الفترة التي تقضيها حيًا.. فقط بعد أن تموت نأخذ نحن جثتك –التي ساعدنا في توفير الصحة والعلاج لها– لنبيعها لطلبة جدد سيتعلمون عليها ليساعدوا أحياء آخرين..

أي إننا –في الواقع– نقدّم لكم خدمة جليلة لا نطلب عليها شكرًا ولا إحسانا.. فقط بعض المال مقابل الجثة التي نتجشم عناء إحضارها إليك دون أسئلة أو جدال..

من حقك أن تكرهنا أو تحتقرنا فنحن لا نبالي بهذه الترهات، لكن تذكر في كل مرة تذهب فيها للطبيب لكي يعالجك أو يعالج من تحب من مرض ما، أننا نحن من ساعدناه على علاجك، وأنه لولا الجثث التي

انتزعناها من قبورها، لهلكت أنت بمرضك لا محالة.. بل دعني أسألك بصورة مباشرة أكثر..

لو كنت أبًا ورأيت طفلك يحتضر من مرض ما علاجه في قبر أحدهم.. داخل جثته بالتحديد..

هل كنت ستتردد في إحضارها له؟.. هل ستقف جوار فراش ابنك تردد عليه مواعظ حرمة الميت وتدنيس القبور؟؟.. هيا كن صريحًا مع نفسك واعترف..

ما الفارق بيننا إذن؟.. نحن فقط أكثر صراحة منك!!

على الأقل نحن نعترف أننا نفعل هذا من أجل المال أيضًا، وهذا في حد ذاته يجب أن يطمئنك.. أنت تعرف أن هناك من يسرقون جثث الموتى لبيعها لطلبة طب، أفضل بكثير من أن تعرف أن هناك من يسرقها فحسب..

تخيّل أن تقرأ في الصحف عن لصوص يسرقون أجساد المَوتى بلا مبرر.. تخيل كم الشائعات التي ستولد والتي سيرددها الكل كالببغاوات.. سيقولون إنهم يأكلون جثث الموتى ويمارسون الجنس معها ويصنعون منها علب طعام من النوعية التي يفضلها أطفالك وأنه مخطط اسرائيلي لتلويث نهر النيل.. بل سيأتي من يقول بأنها الأطباق الطائرة.. الفضائيون يسرقون جثثنا لفحصها تمهيدًا لغزو الأرض!!

مرة أخرى نحن نزيح عنك هذا كله ونجيب عن سؤالك ونوفر لك الراحة والأمان.. نحن –فقط– نسرق الجثث لنبيعها لنحصل على المال الذي نستحقه لا أكثر..

مهنتنا يا عزيزي ليست هينة بل على العكس تمامًا، فنبش القبور

يحتاج لخبرة واحترافية تمامًا كأي مهنة من المهن.. دعك من مخاطر عملنا التي لا تنتهي..

نحن نكون هناك منذ البداية.. وقت الدفن بالتحديد..

تجدهم يحزنون الميت إلى قبره لتجدنا ممن يحيطون بقبره ويرددون الأدعية وعبارات المواساة، فلا يسأل أي من أقارب الميت السؤال المنطقي.. من نحن؟

لا أحد يسأل هذا السؤال لأنه -وببساطة- نحن نسعد حين نعرف أن قريبنا الذي مات كان محبوبًا وأن هناك عددا لا بأس به تجشموا عناء توديعه إلى الأبد.. حتى في الموت تنتصر أهمية الشعبية والشهرة على أي شيء آخر..

نحن نمنحكم هذه الرفاهية وحين ترحلون تاركين فقيدكم، نظل في مكاننا ننتظر أن تصير بمفردنا في صبر لا حد له.. من المهم ألا يشعر بنا أحد وإلا فهي نهايتنا نحن..

يأتي الليل ومعه الهدوء والعزلة، فنتحرك بسرعة وتنظيم.. نحفر القبر بحذر كيلا نصيب الجثة، ثم نخرجها ليتولى بعضنا مهمة نقلها إلى حيث سيتم إعدادها لما هو قادم.. وفي الوقت ذاته يعكف جزء منا على إعادة القبر إلى صورته الأولى، وهو مجهود ذو فائدة مزدوجة، فنحن بهذا نبعد الشبهات عنا فلن يعرف أحد ما حدث أصلاً.. وفي الوقت ذاته نحن نمنحك وهمًا تحتاجه بأن قريبك لا يزال في قبره لو أردت زيارته في أي وقت..

الجثة يتم نقلها إلى غرفة أعدت خصيصًا لاستقبال الجثث، ولا يمكنني أن أخبرك بمكانها هنا سامحنا.. فقط اعرف أننا نجيد التعامل معها بالصورة التي تستحقها وأكثر.. نعيد تنظيفها ونحدد عمر الجثة

وحجمها ووزنها، ثم نقوم بصنع ملف خاص لها ليسهل علينا الوصول لها عند الحاجة ومرة أخرى لا تقلق.. نحن نجيد تخزين الجثث لتظل طازجة عند الحاجة لبيعها..

يمكنني هنا أن أكون قاسيًا وأن أحكي لك عن مراحل إفراغ الجثة من الدماء وحقنها بالفورمالين وبعض الخطوات (التشريحية) المبدئية التي تمر بها جثة من تحب قبل بيعها، لكن لا ضرورة لهذا كله.. فقط اعرف أننا محترفون وأننا نجيد ما نفعله إجادة تامة..

بعد الانتهاء من الإعداد تأتي مرحلة التسعير.. أي منح كل جثة السعر الذي سيتم بيعه بها، وهي مرحلة شديدة الأهمية وأهم قاعدة فيها هي أن السعر الذي يتم تحديده غير قابل للجدل أو المساومة على الإطلاق.. قد لا تصدق هذا، لكن هناك من يساومون في سعر الجثة التي يريدون شراءها كأنهم يبتاعون نوعًا من الفاكهة..

السعر يختلف باختلاف المرحلة العمرية لكل جثة ووفقًا لحالتها ونوعها.. جثة الأنثى أغلى من الذكر -حتى في هذا يتفوقون علينا!- وجثة الشاب أغلى من جثة العجوز، وجثث الأطفال تباع بأسعار خاصة لندرتها، ولو كانت الوفاة بسبب حادث أو جريمة فإن هذا يقلل من سعر الجثة وفقًا لدرجة الضرر الذي تعرضت له الجثة، وفي المقابل لو كانت الوفاة لمرض نادر.. حينها نكون كمن عثروا على قبر ملك فرعوني لا أحد خدمه!

لن ألومك لو شعرت بالامتعاض من هذا النظام، لكني لست واضعه ولا مَن معي، بل من سبقونا هم الذي تركوا لنا كل شيء بقوانينه.. مهنتنا كأي مهنة قديمة الأزل وتوّرث من جيل لجيل، ومن بعدنا سيأتي آخرون ليواصلوا نشر الصحة والسعادة للأحياء..

أنت الآن تعرف من نحن وما تعرفه يكفيك..

ما حدث لنا هو المهم..

وهذا ما سأحكيه..

• • •

(2)

نحن نتعامل مع وسطاء يسهلون عملية بيع الجثث، ولهذا مزية وعيب في آن واحد، فهو وإن كان يسهّل علينا الحصول على مشترين، إلا أنه وفي الوقت ذاته يزيد عددنا وبالتالي فرص الخطأ، فانكشاف أمرنا فالذهاب إلى سجون لن نخرج منها إلا جثثًا تستعد لأن تسرق تمهيدًا لأن تخدم البشرية على موائد التشريح..

لكن وبما أننا لم نضع هذا النظام، فلا مفر أمامنا إلا اتباعه.. الوسطاء يحصلون على نسبة لا بأس بها، وأفضل وسيط نتعامل معه هو الحاج (متولي) الذي لم يحصل على لقب حاج إلا لعباءته التي يرتديها على كل ملابسه، وللسبحة التي يداعبها في أنامله وهو يتفحص كل جثة نحضرها نحن، قبل أن تتم عملية البيع.. الواقع أن أي شخص قادر على الحصول على لقب (حاج) لو ارتدى عباءة أو لو أطلق لحيته لفترة طويلة!

يتعامل الحاج متولي مع عمال مشارح كليات الطب —الذين يحصلون على نسبتهم أيضًا— وتعامله معهم يمتد لعشر سنوات حتى الآن، أي إن الثقة متبادلة ولا وجود للخلاف إلا نادرًا.. بالتالي تجد أننا نمنحه مكانة خاصة من بين كل الوسطاء الذين نتعامل معهم..

الرجل -وبمفرده- يسهّل لنا بيع أكثر من ألفي جثة مع مطلع كل عام دراسي!

يأتي لنا الحاج (متولي) إلى حيث يتم إعداد الجثث، ليتفحص

غنائمنا وليقرر.. جثة هذا الرجل ستذهب إلى كلية طب (...).. وجثة هذا الشاب وهذه المرأة ستنطلق إلى كلية طب (...).. الهياكل العظمية مطلوبة من الجميع، ولو كنت من طلبة كلية الطب ستفهم ما أعنيه..

كمن ينتقي طعامه من بوفيه مفتوح ينتقي الحاج (متولي) جثثه، ثم في النهاية يجري بعض الاتصالات التي تدر دخلاً مرضيًا على الجميع، وفي بعض الأحيان يخبرنا بما يحتاج له لنجهزه له للمرة المقبلة.. أكثروا من جثث النساء.. لن نحتاج لأطفال هذه الأيام.. من فقدوا أطرافهم قبل الوفاة مرهقين في بيعهم فتجنبوهم.. وهكذا..

لم نكن نجادله في شيء ما دام كل شيء معروفا ومحسوبا سلفًا.. ننبش القبور.. نخرج الجثث ونبيعها.. يوصلها الحاج (متولي) لمشارح كليات الطب ليدرس عليها الطلبة.. قد يرق قلب بعضهم ليدفنوا الجثث في النهاية لنخرجهم نحن من جديد!

منظومة في غاية الجمال والدقة وإن بدت روتينية للبعض أو مقززة للبعض الآخر..

فقط حين أتانا الحاج (متولي) بمطلبه الغريب منذ شهرين، اختلت هذه المنظومة تمامًا وبدأ الكابوس الذي لم نعرف أننا مقدمون عليه إلا منذ قليل..

ما الذي حدث؟.. لنبدأ بمطلب الحاج (متولي) الغريب لتفهم..

• • •

"أحتاج لجثث كثيرة.. أريدها كما هي دون إعداد.."

هكذا قال الحاج (متولي) وهكذا تبادلنا نحن نظرات الدهشة والاستغراب..

لا إعداد؟!

إعداد الجثة حتمي وإلا ستبدأ في التحلل والتعفن وكل المراحل التي لا نحب التحدث عنها رغم ثقتنا بأننا سنمر بها في يوم ما.. ثم إنه يطلب جثثًا كثيرة وهذا ليس (الموسم) كما يقولون..

هكذا سألناه فبدت عليه صرامة لم نعهدها فيه، وهو يجيب:

- لا أسئلة.. هل ستوفرون لي ما أحتاجه.. أم؟؟

لكننا لم نكن أغبياء لنخسر وسيطًا كالحاج (متولي)، فأجبناه بالموافقة وإن قررنا أن نلح عليه بالسؤال لاحقًا لنفهم.. جثث كثيرة بدون إعداد؟.. بالطبع يجب أن نفهم..

كنا قد (أعددنا) بعض الجثث بالفعل، فعرضناها عليه ليرفضها رفضًا قاطعًا، وهو يردد:

- لا إعداد.. أريدها كما هي.. طازجة..

وهذا يعني أن أمامنا عملاً لننجزه..

فقط لنأمل أن تكون نسبة الوفيات لهذا الشهر مرضية.. سامحنا.. لكن مصائب قوم عندنا فوائد!

هكذا انتشرنا بين القبور وهكذا قضينا أيامنا نذرف الدموع في الجنازات، ولياليناً في نبش القبور وسرقة الموتى..

كنا نشعر بالتوتر هذه المرة، لأننا لم نكن نفهم..

يمكنك أن ترتكب جريمة تفهم دوافعها..

ستعرف أنها جريمة لا شك فيها، وربما شعرت بنوع من الذنب، لكنك ستفعلها لو كان المقابل مجز ما فيه الكفاية.. لكن أن تفعلها دون أن تفهم لماذا؟

الحاج (متولي) أخبرنا أن المقابل هذه المرة سيكون أكثر مما اعتدنا عليه، لكنه لم يكن مجزيًا ما فيه الكفاية لنتجاهل حيرتنا، فعدنا نسأله ليرق قلبه قليلاً وليخبرنا السبب:

- هذه المرة نحن لا نبيع لكليات الطب.. بل لأشخاص..

- أشخاص يريدون جثثًا؟.. لماذا؟؟

- يقولون إنهم يحتاجونها في أبحاث.. أخبروني أنهم سيدفعون أكثر لو كانت الجثث طازجة..

- لكن.. من هؤلاء الأشخاص بالضبط؟

- لا تشغلوا بالكم بهذا وأحضروا لي ما طلبته فحسب..

- لكن..

- لن أكررها.. يمكنني الحصول على ما أريد من مكان آخر وأنتم تعرفون هذا..

وهذا ما كنا نعرفه فصمتنا..

سنواصل دون أن نفهم أو لنحاول نحن اختراع القصة التي ترضينا.. يمكنك أن تخترع أي قصة لتخرس بها حيرتك، وكل ما عليك هو أن ترددها بما فيه الكفاية لتصدقها!

ولتكن قصتنا أن هناك أشخاصا (صالحين) يريدون بعض الجثث لتجربة أدوية جديدة عليها، مما سيعود بالخير على أشخاص آخرين (صالحين) ونحن سنمدهم بهذه الجثث لأنهم يدفعون جيدًا ولأننا (صالحون) مثلهم نوّد خدمة البشرية بما نفعله..

رددها أنت أيضًا ما فيه الكفاية وستجد أن تصديقها ليس عسيرًا كما كنت تظن..

هكذا عشنا في حالة سعادة صناعية لشهر كامل، قبل أن يقرر الحاج (متولي) أن يختفي فجأة ليترك لنا أكوامًا من الجثث التي لم يتم إعدادها، والتي توشك على التحلل!

نعم.. نحن نذكر أن هذا هو ما حدث أولاً..

اختفى الحاج (متولي) ثم بدأت باقي تفاصيل الكابوس تطفو إلى السطح.. الكابوس الذي كان موجودًا منذ البداية، لكننا لم نشعر به إلا متأخرًا..

متأخرًا جدًا..

• • •

(3)

كان اختفاء الحاج (متولي) غير مبرر أو مفهوم..

آخر مرة رأيناه فيها حين جاء ليتسلم آخر شحنة من الجثث التي حصلنا عليها، لينقدنا ثمنها وليخبرنا أنه لا يزال في حاجة للمزيد، مهشمًا أي قناعة كانت لدينا تجاه القصة التي ألفناها عن مشتري هذه الجثث..

لشهر كامل ونحن نحصل على الجثث ونبيعها بلا انقطاع محاولين تجاهل حقيقة أننا لا نبيع لإحدى الكليات التي تحوي مئات الطلبة، ولا أننا لسنا في بداية العام الدراسي حيث يزداد الطلب كما هو معتاد.. لشهر كامل ونحن نقنع أنفسنا أن هؤلاء السادة الذين يشترون الجثث يمارسون أنشطة علمية بحتة وأنهم يفضلون الخصوصية لأن الأبحاث العلمية عادة ما تكون سرية وإلا سرقت كالجثث.. لكن.. لكن..

لكن أي أبحاث هذه التي تحتاج لهذا الكم من جثث الموتى؟!

حتى الآن أخذوا منا ما يتعدى السبعين جثة، وفي حياتنا لم نقرأ أو نسمع عن أبحاث تحتاج لكل هذا العدد من الموتى.. لكنهم لا يتوقفون عن الطلب أو الدفع، لذا نستمر نحن إلا أن يعلنوا أنهم حصلوا على كفايتهم وإن كنا بدأنا نشك في أن هذا اليوم لن يأتي أبدًا..

كل هذا من الممكن احتماله ما دام الحاج (متولي) هو همزة الوصل بيننا وبين هؤلاء الغامضين الذين يهوون جمع الجثث فيما يبدو.. لكن وباختفاء الحاج (متولي) المفاجئ تغير كل شيء..

الرجل كان بيننا منذ أقل من يوم بعباءته وسبحته ولقبه الذي لا يستحقه، يخبرنا أنه بحاجة إلى المزيد، ثم في صباح اليوم التالي فوجئنا بمن أتى من منزله يسأل عنه معلنًا أنه لم يعد إلى منزله قط..

في البداية تعتقد أن هناك شيئًا ما خطأ وتقنع نفسك أنه لم يختف تمامًا، بل هو منشغل بأمر ما وسيعود منه قريبًا.. سيعود منه بعد فترة.. يبدو أنه منشغل بالفعل ويبدو أنه أمر طارئ الذي يستلزم كل هذا الاختفاء..

هاتفه لا يرد.. سيارته لا أثر لها.. منزله لا يزال ينتظره، لكنه لا يعود..

مع الوقت نستوعب أن هذه هي الحقيقة.. الحاج (متولي) اختفى!

يمكننا أن نلجأ إلى الشرطة لو أردنا المشاكل التي لا مبرر لها ولا نهاية، لذا لا يوجد أمامنا إلا أن نبحث عنه بأنفسنا وهذا ما فعلناه، لنتفق على شيء واحد في النهاية..

الحاج (متولي) اختفى بلا أثر وبلا أمل في العثور عليه..

لم يكن حادثًا فجسده لم يظهر في المستشفيات وجثته لم تظهر في المقابل ونحن واثقون من هذا.. لم يكن اختطافًا فلم يتصل أحد..

دعك من أنه لا يوجد من يود اختطاف كهل مزعج كالحاج (متولي).. لم يهرب.. لم يسافر.. لم يحترق أو يسقط عليه نيزك..

فقط.. اختفى!

كانت الجثث التي جمعناها له بدأت تتحلل في ذلك المخزن وهذا حقها بالمناسبة.. نحن لم نعدّها بناء على طلب الحاج، وهي لن تتفهم مطلبه بل ستمارس حقّها الكئيب حتى تتصاعد رائحتها للدرجة التي أجبرتنا على نسيان الحاج (متولي) والتفرغ لهذه المشكلة..

يجب أن ندفن هذه الجثث على الفور وإلا ستجذب رائحة الموت هذه كل الأعين علينا.. وبالنسبة لنا يشبه هذا أن ندفن أموالنا في الأرض لنحرم أنفسنا منها إلى الأبد!

لكن للأسف لا يوجد أمامنا حل آخر..

دفنا الجثث.. بحثنا مرة أخيرة.. تقبلنا الحقيقة المريرة في النهاية وهي أننا خسرنا الحاج (متولي) وعملاءه الغامضين الذين يشترون الجثث بأعلى سعر..

كان اختفاء الحاج (متولي) كارثة، لكننا نتعامل مع الموت كل يوم، ونعرف أنه لا كارثة بلا حل أو نهاية..

أخبرناك سابقًا أنه من أهم الوسطاء الذين نتعامل معه، لكنه ليس الوسيط الوحيد.. سيستمر العمل ولو كان أبطأ أو أسخف أو أقل ربحًا.. فقط سيكون علينا أن نعتاد العمل على فترات متقطعة وبمقابل أقل، بعدما كنا قد اعتدنا على العمل المتواصل والأرباح المتراكمة..

هذا سهل.. هذا ممكن..

هذا ما ظنناه في البداية!

• • •

بعد أسبوع واحد لا أكثر لم نبع خلاله سوى جثتين فحسب، لم نطق الاحتمال أكثر وقررنا البحث عن الحاج (متولي) في كل مكان.. إما أن نعثر عليه وإما على جثته..

ضع نفسك مكاننا -أعرف أن هذا عسير، لكن حاول!- نحن اعتدنا بيع ثلاثين جثة على الأقل شهريًا لنحصل على ثمن خمسين بأسعار كليات الطب، مما منحنا النشاط والحماس والمال الوفير، ثم يختفي (متولي) اللعين لنخسر مورد رزقنا دون ذنب جنيناه..

حاولنا العودة للسابق فلم نطق.. العمل أبطأ.. الطلب أقل.. الأرباح تنكمش.. حتى الجثث أصبحنا نخرجها فنجدها تبتسم ساخرة مما يحدث لنا!

الحل؟.. بسيط.. ليذهب الحاج (متولي) إلى الجحيم لو شاء، لكننا سنصل لهؤلاء المشترين الذين لا يتوقفون عن طلب الجثث ودفع ثمنها بأي ثمن..

كيف؟.. تلك هي المشكلة..

تلك هي المشكلة التي يبدو أنه لا حل لها، لولا أن أتى ذلك اليوم الذي جاء فيه حل المشكلة بنفسه إلينا..

وليته ما فعل!

• • •

كنا نهم بإعداد جثة تلك الفتاة، حين فوجئنا بذلك الرجل يتجه إلى مقرنا بخطوات هادئة بطيئة كأنه يمنحنا فرصة كافية لاستيعاب أن غريبًا عرف الطريق إلى مقرنا السري..

لكن قبل أن نولي الأدبار فوجئنا به يعلن أنه من طرف الحاج (متولي) فأسرعنا إليه ذاهلين..

كان الرجل أشيب الرأس ذا قامة طويلة نحيفة، مما يعني أنه لو مات لن نحصل مقابل جسده على الكثير.. وكنا نحن أصغر سنًا وأكثر عددًا، لكننا شعرنا بالرهبة حين خرج صوته الخفيض يقول:

- أنا هنا لأحصل على الجثث..

كأنه ملاك الموت وقد جاء يطالب بما هو حقه.. بادرناه بعشرات الأسئلة عن الحاج (متولي) وأين هو ومن هو وكيف عرف الطريق إلى هنا وإن كان هو الذي يبتاع الجثث طيلة الوقت وأسئلة أخرى كثيرة لا تهم، لأنه لم يجب على أي منها..

فقط ردد بصوته الخفيض المهيب:

- أنا هنا لأحصل على الجثث..

ثم أخرج من جيبه رزمة أوراق مالية ألقى بها إلينا، فانتفضنا ذاهلين..

هذا المبلغ يكفي لشرائنا نحن أحياء لو أراد!

هذا المبلغ يكفي لننبش له قبور العاصمة كلها.. يكفي لأن نقتل لنحصل له على المزيد من الجثث.. هذا المبلغ يعني أن الحاج (متولي) كان يسرقنا!!

الوغد اللعين كان يدفع أكثر مما اعتدنا عليه، لكن هذه الرزمة وحدها أكثر بكثير مما جمعناه طيلة الفترة الماضية.. سيكون من حسن حظ الكلب (متولي) أن نعثر على جثته بدلاً من أن يسقط في أيدينا حيًا..

- أريدها بلا إعداد..

قالها الأشيب بصوته الأشبه بالفحيح فلم نعترض.. توقعنا هذا

ومع هذا المبلغ لم يعد هناك مجال للحيرة أو التساؤلات.. سنحصل له على الجثث التي أرادها..

- لكن.. كيف سنوصلها لك؟.. نعني.. أين؟؟

سألناه فألقى لنا بورقة عليها عنوان مخزن قديم نعرفه.. رسالة واضحة.. ضعوا الجثث هنا ونحن سنتصرف..

ثم إنه لم يترك لنا المجال للمزيد من الأسئلة.. ترك المال والعنوان ورحل..

والآن اسمح لنا أن نتركك قليلاً فأمامنا عمل لننجزه..

• • •

(4)

مرت عدة أشهر من السعادة والرخاء..

لم نعد نتعامل مع كليات الطب فأسعارهم لم تعد تعنينا في شيء.. لم نعد نشغل بالنا بقضية نشر الصحة والتعليم، وقررنا التفرغ لجمع المال، ولقد كان مال عملائنا الجدد وفيرًا لا ينضب..

ثم إنهم كانوا يشترون أي جثة نعثر عليها وبأعلى سعر سواء كانت لرجل أو لامرأة مهما كان عمرهم أو حالة الجثة.. فقط يريدونها طازجة بلا إعداد..

لعدة أشهر شعرنا بمزيج من السعادة والراحة والثقة، وبدأت أمارات النعمة تظهر علينا بوضوح، حتى إننا أصبحنا لا نعمل بأنفسنا بل نستأجر عمالاً ينفذون العمل الشاق بدلاً عنا، كأننا كبار تجار الموتى!.. أيام تمر وعددنا يتزايد وآثارنا تظهر واضحة على أغلب قبور المدينة، وكل شيء يسير بنعومة وسلاسة، ليشعر بعضنا بذلك القلق المميز لكل الأيام الهانئة..

أنت تعرف هذا الشعور.. حين يسير كل شيء وفقًا لما تريد، وحين تحصل على ما تبغيه وتحقق ما تصبو إليه.. هذا لا يحدث على أرض الواقع إلا في حالة واحدة.. لو كانت كارثة موشكة على الحدوث قريبًا!.. هدوء ما قبل العاصفة كما يسمونه.. لا تحاول أن تتجاهل هذا الإحساس أبدًا لو شعرت به، فالحياة لا تمنح إلا لتأخذ ولا ترضى عنك إلا لتثور فجأة، وحين تفعل.. ترد لك الصاع بألف..

نحن انتشر هذا الإحساس بيننا فتبع الشعور بالقلق.. نحن نثق أن شيئا ما موشك على الحدوث لكننا لا نعرف متى ولا أين؟

لكن بعد عدة أيام من الحذر عرفنا..

وليتنا لم نفعل!

• • •

نحن لم نعد ننبش القبور بأنفسنا، لكننا نتابع كل المراحل التالية من تنظيف الجثة وتخزينها المؤقت، ثم شحنها إلى المخزن الذي طلب عملاؤنا منا أن نترك الجثث فيه.. بهذا نتابع سير العمل عن كثب، وبهذا نحتفظ وحدنا بسر موقع المخزن الذي نترك فيه الجثث في النهاية وهو سرٌ يجب الحفاظ عليه وإلا طارت أعناق كثيرة..

وحين تمارس مهنتنا هذه لفترة تتحول كل الجثث بالنسبة لك إلى (جثث وحسب) وهي مزية نشكر الله عليها دومًا!

في البداية كنا نرى الجثة فنشعر أن هذا الصبي مات قبل أوانه.. أن هذه الفتاة كانت جميلة وأن جمالها سيذوي إلى الأبد.. أن هذا العجوز يحمل ابتسامة راضية على وجهه.. كنا نشعر بهذا ثم نجد أنفسنا مطالبين بالعمل على الجثة لإعدادها لنشعر بالذنب والاشمئزاز..

لكن مع الوقت تغلبت المهنة علينا وتحولت الجثث إلى (منتج) نتعامل معه ونبيعه لنربح منه.. لم يعد هناك عجوز مطمئن بل هو جثة سعرها كذا.. لم تعد هنا فتاة جميلة، فالجميلة والقبيحة يتساويان في الموت وفي سعر البيع.. وهكذا..

فقط في بعض الأحيان تستوقفنا بعض الجثث لغرابتها، وكانت جثة هذا الرجل الموشوم غريبة حقًا..

أسميناه الموشوم لأن الوشوم كانت تغطي صدره وظهره وذراعيه، على نحو يندر أن ترى مثيلاً له في الموتى أو الأحياء.. كان ضخم الجثة وكانت عضلاته التي لم تتآكل بعد تعلن أنه لم يكن خصمًا سهلاً في حياته.. لكن الأمر الغريب والذي توقفنا عنده طويلاً هو أنه كان بلا عينين!

لا.. لا جروح تعني أنه فقدهما أو أن أحدهم نزع عينيه جراحيًا –ربما لسرقة القرنية– بل إن الأمر يبدو وكأنه ولد بلا عينين أصلاً.. تتساءل إذن.. لو كان هذا الرجل قد قضى حياته أعمى لا يبصر، فلماذا الوشوم ولماذا العضلات التي تشي بحياة عنيفة قاسية؟.. تساءل كما تشاء فلن تجيبك الجثة!

أمر يثير الحيرة حقًا ولقد توقفنا عنده لفترة قبل أن نقرر أن نتجاهله لنوصل عملنا.. مرة أخرى أذكرك أن جثة هذا الرجل بالنسبة لنا هي مجرد منتج نبيعه.. لا يهمنا شيء عن حياته ولا كيف قضاها ولا إلى أين ستخلد روحه..

كأي جثة تم تنظيفها.. شحنها.. وضعها في المخزن ليستقبلها عملاؤنا الكرام الذي يدفعون بسخاء..

كأي جثة غريبة علقت في أذهاننا لفترة ثم نسيناها تمامًا حتى..

حتى..

حتى رأيناها مرة أخرى!

• • •

نحن ننبش القبور في الليالي، لذا تجدنا طيلة النهار إما نائمين وإما نأكل..

أغلبنا لم يتزوج بعد وهذه من آثار العمل في مهنتنا.. كثرة رؤية الجثث تقتل الرغبة، فما بالك بسرقتها؟.. المهم أن أغلبنا لم يتزوج بعد، وأن المطاعم هي سبيلنا الوحيد للحصول على أي شيء شهي..

لو رأيتنا في ساعات النهار، ستجدنا نجتمع في أحد المطاعم نأكل في صمت فلن تشعر بنا ولن تشك فينا أبدًا.. سادة مهذبون يتناولون طعامهم ويدفعون الحساب ليرحلوا في هدوء..

سادة مهذبون ومتأنقون حتى لو كان التأنق لإخفاء رائحة الجثث التي نقضي معها ليالينا!

أغلب وجباتنا نحصل عليها من المطعم ذاته إلا لو تغلّب علينا الملل، حينها ننطلق في جولات طويلة لنبحث عن مكان جديد يروق لنا كلنا.. والمطعم الذي نفضله يقع في وسط العاصمة في منطقة شديدة الازدحام والصخب ولا بد أنك مررت عليه في أحد الأيام ورأيتنا لكنك لا تذكر..

نجلس دومًا عند تلك الطاولة الضخمة قرب واجهة المطعم الزجاجية، ونتناول كلنا الصنف ذاته في هدوء كأننا نؤدي واجب العزاء.. إنها طاولتنا المفضلة لأنها تتيح لنا الفرصة لرؤية الأحياء وهم في حياتهم الطبيعية..

نرى ذلك الرجل ذا البذلة يصيح آمرًا في هاتفه المحمول، فنتخيل كيف سيكون في قبره حين نخرجه.. نرى تلك الفتاة تعرض للعالم مساحيق التجميل التي تخفي ملامحها، فنبتسم ونحن نحاول رسم هذه الملامح دون مساحيق في مخيلتنا..

نرى ذلك الرجل الضخم الموشوم عاري الجذع يجري عابرًا الطريق، فيتوقف الطعام في حلوقنا وننتفض ذاهلين!!

بعد دقيقة من الذهول الصامت، نتبادل نظرة (هل هو حقًا؟) ليجيب أحدنا علينا:

- لقد.. لقد كان بلا عينين..

-!!

• • •

(5)

رجل ضخم موشوم بلا عينين، هل يمكن أن تكون مجرد مصادفة؟!

بالطبع هي مصادفة، فما الخيارات الأخرى التي نملكها؟؟..

هل تريد أن تخبرني أن الجثة عادت إلى الحياة؟!

كف عن السخف!

الموتى لا يعودون إلى الحياة، ونحن أكثر من نعرف هذا، فأنت لم تعش معهم كما عشنا نحن..

ربما -وفي بعض الأحيان لا أكثر- تحركت جثة بعد أن استخرجناها، لكن من علّمونا هذه المهنة أخبرونا أن هذا طبيعي.. إنها العضلات تضمر أو هو هواء يخرج أو هو الجسم يلتهم نفسه.. لهذا كانت

بعض الجثث تتأوه أو تفتح أعينها أو تقبض على أيدينا، وهي أشياء لو رأيتها أنت لمت هلعًا..

مرة وحيدة استخرجنا جثة وعادت إلى الحياة.. إلى وعيها لو شئنا الدقة، وهذه المرة لا تنسى فلم يمر علينا سواها، ولا نتمنى أن يمر..

كانت جثة عجوز يبدو أن المرض امتص جسده فلم يترك لنا إلا عظامه، وكنا قد حضرنا جنازته لنعرف أنه مات مصابًا بالسرطان بعد صراع طويل لا نتمنى أن يخوضه أحد منا.. المهم أننا استخرجنا الجثة دون أن نعقد آمالاً عظيمة في الحصول على سعر لائق لها، لكنها الأمانة في العمل لا أكثر!.. أخرجنا العجوز وأرسلناه إلى حيث سيتم إعداده، ثم تركناه هناك لدقائق لا أكثر، وعدنا لنجده قد اختفى!

بحثنا عنه ذاهلين، فوجدناه يجوب الأرض حول مقرنا ذاهلاً لا يصدق ما يحدث من حوله، وقبل أن نفقد عقولنا لفرط ذعرنا، استنتج أحدنا تفسير ما حدث..

تشخيص وفاة خاطئ!

حدث بالفعل كما يقولون، ولو راجعت الأخبار والتاريخ لوجدت أن هذه الحادثة تكررت كثيرًا.. يدفنون شخصًا ما حيًا بعد أن ظنوا أنه مات، ليجدوا آثارا على قبره لاحقًا تشي بأنه كان يحاول الخروج.. مجرد آثار لا تعني إلا أنه مات بالفعل الآن وأن الطبيب الذي أعلن وفاته يستحق أن يكون مكانه، وهذا أكثر ما يستفزنا نحن..

أن نجد أطباء على هذه الدرجة من البلاهة بعد كل ما نفعله من أجلهم!

ليلتها هام العجوز قليلاً في الأرض، دون أن يجرؤ أحدنا على اعتراض طريقه، ثم هوى أخيرًا، لنتأكد بأنفسنا من وفاته هذه المرة..

وحين فعلنا، تحول العجوز إلى (منتج) كباقي المنتجات التي نعدها للبيع ونكسب منها رزقنا..

هذه هي المرة الوحيدة التي نذكر فيها أن ميتًا عاد –مؤقتًا– إلى حياته.. فهل الموشوم الأعمى يكرر ما حدث؟؟.. مستحيل!

أولاً مرّت عدة أيام على وفاته ودفنه..

ثانيًا نحن قمنا بفحصه وتنظيفه قبل تخزينه ونحن لا نخطئ كالأطباء الحمقى..

ثالثًا وهذا هو الأهم أننا نذكر جيدًا سبب وفاة هذا الموشوم..

لقد كان هناك ثقب رصاصة في مؤخرة رأسه!.. أي وباختصار شديد.. هذا الموشوم من المستحيل تمامًا أن يعود إلى الحياة.. مستحيل.. مستحيل.. مستحيل..

ما الحل الذي يتبقى إذن؟.. نعم.. إنه موشوم آخر –بالمصادفة– بلا أعين أيضًا –بالمصادفة- وضخم الجثة –بالمصادفة– مرّ أمامنا في ذلك اليوم ليعبث بعقولنا لا أكثر..

نعم.. القصة ستنتهي عند هذا الحد ولن نضيع فيها المزيد من الوقت، وسنعود لعملنا المربح الذي يكفي ربحه لإخراس أسئلتنا و.. و..

ولكننا رأيناه بعد ذلك..

رأينا الحاج (متولي)!

• • •

أولاً دعنا نتفق على نقطة شديدة الأهمية..

الحاج متولي اختفى لكننا لا نعرف يقينًا إن كان مات أم لا.. فقط اختفى..

تذكر هذه النقطة جيدًا..

فقط اختفى!

• • •

رأيناه في المقابر قرب مقرنا ولم نصدق أنفسنا حين فعلنا..

كنا في مقرنا نواصل عملنا بجد واجتهاد كما هي عادتنا، حين فوجئنا بمن يصرخ منا ذاهلاً مرددًا أن الحاج (متولي) ظهر، فتركنا ما في أيدينا وأسرعنا خلفه غير مصدقين..

الحاج (متولي) عاد!.. أخيرًا.. بعد اختفاء طال لعدة أشهر، عاد الوغد الذي كان يسرقنا وقد حان وقت الحساب..

فقط حين رأيناه أخيرًا أدركنا أن خلافنا قد يتأجل قليلاً، لنفهم ما الذي يفعله أولاً..

فهناك وعلى أحد القبور، ربض الحاج (متولي) على ركبتيه، وقد أخذ يحفر القبر بأظافره، وقد حمل وجهه وعيناه نظره جامدة مخيفة!

لم يبد عليه أنه شعر بنا أو اهتم.. لم يبد عليه الخوف أو البرد أو التعب أو حتى الهدوء.. لم يبد عليه أي شيء كأنه فقد مشاعره أو عاد من اختفائه بدونها.. فقط أخذ يحفر بأظافر دامية ذلك القبر كأنه يحفر قبره هو..

نادينا عليه فلم يجب بل واصل الحفر، لتتحول دهشتنا إلى خوف لم نشعر بمثله من قبل.. إن الإجابة تنبت في أعماقنا، لكننا نتظاهر بأنها ليست كذلك.. نتظاهر أننا لا نشعر بها، تمامًا كالحاج (متولي) الذي بدأ في إخراج الجثة من القبر دون أن يشعر بنا على الإطلاق..

ببساطة انتزعها من قبرها، ثم حملها على كتفه ووقف بها ليبدأ

في رحلة الابتعاد عنّا، وهنا لم يعد بإمكاننا الصمت أو التجاهل..

انقضضنا عليه لننتزع الجثة من على كتفه، ولنحاول انتزاعه هو من حالته العجيبة هذه، لكنه ظل يحدق فينا بعينين لا تريان.. لم يقاومنا ولم يحاول حتى أن يعترض أو ينطق.. نظر إلى جثته التي أخذناها منه، ثم تركنا ليعود إلى القبور..

على سطح قبر آخر ربض، وبأصابع فقدت أظافرها بدأ يحفر من جديد!

يمكنك أن تتخيل نفسك مكاننا وأن تخبرنا بما ستفعله حينها.. يمكنك الآن وأنت آمن في دارك أن تفكر وتحلل وتستنتج وتجرّب، فلا خطر عليك ولا أنت منا أو عشت حياتنا.. يمكنك أن تتعقل.. أن تتريث وأن تراجع نفسك..

نحن لم نحظ بهذه الرفاهية.. نحن شعرنا بالذعر ليلتها، فانقضضنا مرة أخرى على الحاج (متولي)..

ودفناه حيًا!!

• • •

(6)

نحن لسنا وحوشًا صدقني، لكننا أدركنا أن من رأيناه في تلك الليلة لم يكن الحاج (متولي)..

نحن لا نبالغ ومن يمتهنون مهنتنا، يعرفون أن الموت هو أقصى درجات المبالغة فلا داع لها.. نحن فقط نعرف أن من رأيناه في هذه الليلة المشؤومة، لم يكن الحاج (متولي) بأي صورة من الصور.. إنه فقط يبدو مثله.. نسخة طبق الأصل منه لا أكثر..

تريد أدلة؟.. كأننا مطالبون بإرضائك!.. الحاج (متولي) لم يكن بهذا الطول أبدًا، ولم يملك في حياته القوة الجسدية الكافية لينبش قبرًا بيديه العاريتين ولا لحمل جثة لا يقدر على حملها إلا ثلاثة منّا.. والأهم من هذا كله..

الحاج (متولي) لم يحمل جسده كل هذا الكم من الحروق التي رأيناه عليها تلك الليلة.. حروق كافية لإبراز عظامه!

لماذا دفناه حيًا.. لأننا حين حاولنا إيقافه مرة ثانية، بدأ يصرخ بصوت لم نسمعه يخرج من حلق آدمي قط.. صوت كفيل بإيقاظ الموتى وجلب الأحياء ليقبضوا علينا..

هكذا تجد أن الخيار كان إما هو وإما نحن.. كان القبر الذي نبشه أمامنا.. كنا على وشك أن نفقد عقولنا.. الأحداث تجري بسرعة لو أمكنك أن تتخيلها.. فقط تكفينا قناعتنا بأنه لم يكن الحاج (متولي) الذي استقر في القبر ليلتها..

الذي رأيناه في تلك الليلة كان -وببساطة- شيئا ما يشبه الحاج (متولي) أو.. أو..

أو يحرّكه..

الواقع أننا نحتاج لبعض الوقت لنفكر ولنحاول أن نفهم..

أرجوك.. اعذرنا وسنعود لك قريبًا!

• • •

بعد يوم كامل من النقاش المستمر، توصلنا إلى أقرب تفسير يصلح لهذا كله..

لكن خروج الحاج (متولي) من قبره أثبت لنا خطأ هذا التفسير!!

• • •

إنه ليس الحاج (متولي) وكا ما حدث أثبت لنا هذه الحقيقة.. إنه جسده -أو جثته- لكنه ليس هو على الإطلاق..

شيء ما يتحكم في جسد الحاج (متولي) الذي مات مرتين حتى الآن، ومن الواضح أن المرة الأولى لها علاقة بتلك الحروق التي رأيناها على جسده..

المرة الثانية كان حين دفناه، لكنها لم تبقه في قبره طويلاً، فلم يكد يمر يوم حتى فوجئنا به يخرج من قبره، كما يحدث في أفلام الرعب التي نشاهدها لنضحك.. لكننا هذه المرة لم نبتسم حتى.. انتفضت قلوبنا رعبًا ونحن نرى الحاج (يخرج) من تحت التراب حاملاً جثة جديدة كانت في قبر مجاور له!

مرة أخرى يستبد بنا الذعر، ومرة أخرى نكاد ننقض عليه لنعيده حيث كان، لولا أن اقترح أحدنا أن نتركه لنرى ماذا سيفعل..

خيار خطير فعلاً، لكن إجابة هذا السؤال تستحق المخاطرة..

هكذا تركناه يحمل جثته ويرحل، لنتتبعه مستترين بالظلام والحذر، محاولين تجاهل أن خطواته أسرع بكثير من خطوات أي شخص عرفناه في حياتنا.. لا أحد يتحرك بهذه الخفة والسرعة..

مرت ساعة كاملة قضيناها في تلك المطاردة، لنجد أنفسنا في النهاية في آخر مكان تخيلنا أن نصل إليه.. عند المخزن الذي نترك فيه الجُثث!

هناك توقف الحاج (متولي) لحظة، قبل أن يشير بيده للقفل على باب المخزن، لينفتح القفل مستسلمًا لإشارة الحاج، الذي دخل المخزن

ليغيب فيه لحظة، قبل أن يخرج منه تاركًا الجثة التي كان يحملها..

وأمام أعيننا الذاهلة عاد أدراجه في اتجاه المقابر قرب مقرنا..

حينها.. حينها فقط..

أدركنا أننا مقدمون على أيام سوداء بلا نهاية!

• • •

هذه المرة دفنا الحاج (متولي) ثم صببنا بعض الأسمنت على جثته، لنضمن أنه لن يعود لينافسنا في عملنا مرة أخرى!

وعند النقطة الأخيرة توقفنا طويلاً طويلاً، ثم أيقنا في النهاية أننا نحمل كلنا الشعور ذاته في أعماقنا..

ما حدث له علاقة بالمشترين الغامضين..

الحاج (متولي) كان يجمع الجثث لهم، ولا بد أنه في مقابر ما يحفر الموشوم الأعمى الآن بأظافره ليمدهم بالمزيد من الجثث.. هذا يفسر الجثث الإضافية التي عثرنا عليها في المخزن والتي نثق أننا لسنا المسؤولين عنها..

الصورة تتضح رغمًا عنا وإجابات أسئلة تظهر، لتلد لنا أسئلة جديدة..

ما يحدث له علاقة بهؤلاء الذين يدفعون كثيرًا ليحصلوا على الجثث.. نحن نثق في هذا، لكن ما العلاقة بالضبط؟؟

هل يعيد هؤلاء المشترون الموتى إلى الحياة ليجمعوا لهم المزيد من الجثث؟

كيف؟؟

ولماذا؟!

ما السبيل لنعرف إجابات هذه الأسئلة، فنحن لن نسألهم ولن ننتظر منهم أن يجيبوا أسئلتنا بصدق؟

ما الحل إذن؟؟

• • •

توصلنا إلى الحل أخيرًا ولهذا ترانا نرقد وسط الموتى!

نعم.. نحن الآن في ذلك المخزن الذي نترك فيه الجثث، نرقد وسطها نتظاهر بأننا منهم ومثلهم، لكننا لنا قلوب تنبض خوفًا وترقب..

وسط الموتى نرقد في انتظار أن يأخذونا من هنا.. أن يأتي المشترون وأن ينقلونا إلى حيث نقلوا الجثث السابقة..

حينها سنعرف ما الذي يحدث بالضبط.. سنرى بأنفسنا ونحن لا نثق إلا بأنفسنا..

لكن.. هل سننجو لنخبرك؟

• • •

(7)

نحن لم نحب هذا الخيار و لم نرض به إلا أننا لم نملك سواه..

أحدنا اقترحه و نحن ناقشناه طويلاً، ثم صوّتنا على أنه الخيار الوحيد الذي نملكه، ثم نفذناه صاغرين.. لهذا اتجهنا إلى مخزن الموتى، ثم رقدنا وسطهم متظاهرين أننا منهم، منتظرين أن يأتي المشترون الغامضون..

المفترض وفقًا لصاحب الإقتراح أنهم سيأتون و سينقلون الجثث

– و نحن وسطها – إلى حيث يعيدونهم إلى الحياة، و هناك سنفهم كل شيء.. سنفهم من هم المشترون و لماذا يبتاعون كل هذه الجثث و من أين يأتون بكل هذا المال و كيف يعيدون الموتى للحياة و لماذا..

ما الذي سيحدث بعدها؟

لا يهم!.. المهم أننا سنعرف أخيرًا سر ما حدث لنا طيلة الفترة الماضية، و لو متنا بعدها فسنموت و على أوجهنا ابتسامة رضا..

لكن التظاهر بالموت شيء و الرقود وسط الموتى شيء آخر!

نحن لا نشمئز من الموتى بالصورة التي قد تشمئز أنت بها، و لا نشعر بذات الرهبة التي كنا نشعر بها في بداية عملنا، لكن فكرة أن ترقد وسطهم تظل منفرة فوق قدرتك على التخيل.. افترض أنك تاجر أسماك.. هل تتقبل فكرة أن تنزع ملابسك لترقد في حوض مليء بالأسماك؟

أرأيت؟.. الفارق هنا أنهم ليسوا أسماكًا بل جثث ذات وجوه تشبهنا و تشبهك، و بعضها بأعين مفتوحة ترمقنا في صمت يجثم على الصدور..

ثم إن الرائحة هنا لا تطاق..

الجثث التي لا يتم إعدادها و التي ترقد في مخزن سيء التهوية، تعاقبنا برائحتها الكريهة و التي لا نتصور أن جثثنا ستصدر مثلها حين نموت.. أضف إلى هذا الظلام و الصمت و لوعة الإنتظار، لتجد أن عقارب الساعة قد أصابها الخبال، و أصبحت اللحظة تمر كل ربع ساعة!

نحن لم نفكر حينها أنهم قد لا يأتون الليلة..

ما عشناه في الأيام الماضية، دفعنا لتنفيذ أول اقتراح قد يؤدي لنتيجة، دون أن يتوقف أحدنا ليسأل.. لكن، ما الذي سيحدث لو لم يأت المشترون الغامضون ليلتها؟؟

هل سنقضي الليل بطولة ننتظر على أمل قد لا يتحقق، لنغادر المكان عائدين إلى منازلنا إلى حيث سنستحم ثم ننتظر اللحظة المناسبة لنعود هنا، و لنرقد وسط الموتى ثانية؟؟

و ماذا لو أتى المشترون حين نرحل؟.. سيضيع انتظارنا هباءً، لكن..

هل سنبقى هنا نتظاهر بالموت، لتمر علينا الأيام دون أن نمارس و لو حقًا واحدًا من حقوق الأحياء؟؟

هل نقسم أنفسنا على ورديات؟.. المشكلة أنه كلما قلّ عددنا كلما ضعفت قوتنا، و نحن لم نحافظ على كوننا (نحن) إلا باتفاقنا و بقائنا معًا مهما كانت الظروف، ثم حتى لو قررنا التضحية، فكيف سيبلغنا من سيكون هنا بما سيحدث لو أخذه المشترون الغامضون معهم؟؟

أعرف أنك تتذاكى الآن و تتساءل.. و لماذا لم تراقبوا المكان من الخارج أيها الحمقى؟!.. لكننا لا نريد أن نعرف إلى أين تذهب الجثث، بل نريد أن نعرف ما الذي يحدث لها؟

لذا أرجوك ارحما من ذك.. و.. مهلاً..

إنهم هنا!

المشترون.. لقد وصلوا..

الخطوات تعالت من الخارج فسمعناها كلنا و تبادلنا النظرات الصامتة، قبل أن نغلق أعيننا مستعدين لحمل لقب (موتى)، إلى أن يتم نقلنا من هنا.. فقط لم نقاوم أن نختلس النظر لحظات أطول، لنرى باب المخزن و هو يفتح ليدخل ذلك الأشيب الذي يمنحنا المال مقابل جثثنا الطازجة، لكنه كان بمفرده..

بمفرده تمامًا..

لا عمال ليساعدوه على حمل الجثث و لا عربات لنقلها و لا حتى أكلة لحوم بشر ليساعدوه على إنها هذه الوليمة الضخمة!

شعرنا بالدهشة حتى خشينا أن تطغى رائحة دهشتنا على رائحة الجثث، لكن أغلبنا شهق في ذهول حين تحدث الأشيب في هدوء ليقول:

- لا داع للسذاجة.. أنا أعرف أنكم هنا..

قالها على الرغم من أننا أخفينا أنفسنا جيدًا وسط الجثث، بل إنه واصل قائلاً:

- أنتم هنا لتعرفوا الحقيقة.. أليس كذلك؟

كأنه واحد منا!

ترددنا قليلاً ثم بدأنا نعلن عن أنفسنا بأن اعتدلنا مزيحين الموتى عن أجسادنا، لنواجه الأشيب الذي ابتسم قائلاً:

- سأجيب على سؤالكم فنحن نملك الكثير و الكثير من الوقت..

و صمت لحظة قبل أن يردف:

- فأنتم لن تخرجوا من هنا..

قالها فالتففنا حوله ذاهلين، لكنه لم يبال بعددنا و هذا أرهبنا نحن أكثر مما توقعنا أن يرهبه هو.. و بصوته البارد واصل:

- تريدون الفهم و هذا حقكم.. أمّا حقي أنا فحصلت عليه لحظة دخولكم هنا!..

ثم إنه جلس و بدا عليه الإسترخاء و هو يقول:

- لكن دعوني أعرفكم بنفسي أولاً.. اسمي هو رأفت حسين و عملي

طوال الخمس عقود الماضية كان ينحصر في مجال واحد.. الهياكل الصناعية.. أتعرفون أي شيء عنها؟

فلن نجبه.. نحن لم نعرف ما الذي يتحدث عنه الأشيب و لا يهمنا أن نعرف..

ما نريده أن نعرفه الآن هو..

ما الذي كان يقصده حين قال أننا لن نخرج من هنا؟!

- توقعت أنكم لن تعرفوا.. سأبسط المعنى و أقول إنها شيء أشبه بالعظام البديلة التي تزرع داخل الجسد بدلاً من العظام التي تهشمت في حادث أو نخرها نقص الكالسيوم أو تلك التي لم يكتمل نموها أو بدأت أعراض العيوب الخلقية في الظهور عليها.. آخذ هذه العظام و أستبدلها بأخرى لا تبلى و لا تلين و لا تتشكل إلا باختياري أنا، لكن الأمر ليس بالبساطة التي أتحدث بها..

و شرد بعينيه ليتذكر، مردفًا:

- استغرق الأمر مني خمس عقود كاملة من الدراسات و الأبحاث و التجارب التي أفنيت فيها عمري كله، لكني لم أكن بمفردي.. كانت معي (رانيا)..

هنا أصابنا السأم و أدركنا أننا سنقضي ليلتنا في الذكريات، ما لم نتمالك أنفسنا و نجبره على إجابة أسئلتنا، لكن لسبب ما لم يجرؤ أحدنا على التقدم من الأشيب ليتخذ هذه الخطوة..

فقط أصغينا له و هو يقول:

- عرفتها في دراستي و أحببتها منذ اللحظة الأولى.. و كنت محظوظًا فأحبتني هي أيضًا، و انتهى بنا الأمر بعد دراستنا زوجان

يعملان في المجال ذاته.. زوجان تمر عليهما السنوات فلا يشعران بها و لا يدركان أنهما يكبرا حتى يحذرهما الكل.. أنتما تكبران.. لو لم تنجبا الآن لن تفعلاها أبدًا.. و هم كانوا محقين في قولهم، و هذا ما أدركته (رانيا) فقررت أن تتوقف عن العمل لتتفرغ لمشروع الأمومة.. وافقتها و رغم أنني أصبحت أعمل بمفردي إلا أنني شعرت بالسعادة.. ما هي إلا بضعة أشهر و سأغدو أبًا.. و من يدري؟.. ربما تمر السنوات أسرع لأجد ابني أو ابنتي تقف جواري تساعدني في أبحاثي التي ستحفر اسمي في تاريخ الطب و إلى الأبد.. لكن الأشهر مرّت أكتشف أن القدر كان يدخر مفاجأة قاسية لي.. ماتت حبيبتي (رانيا) و ابني في رحمها لم يولد بعد..

و عاد الأشيب يقف ليمنحنا ظهره كأنه يخفي مشاعره عنّا، قبل أن يقول بصوت ارتجف من الحزن:

- كان حادثًا من تلك الحوادث التي تمر في لحظة لكنها تأخذ الكثير.. في لحظة واحدة خسرت زوجتي و ابني اذي لم أره أبدًا.. في لحظة واحدة شعرت أنه لم يعد هناك جدوى لأي شيء فعلته أو سأفعله.. رانيا لن ترى ما سأحققه في أبحاثي.. ابني لن يساعدني فيها.. سأموت وحيدًا في النهاية.. ما فائدة أي شيء إذن؟

ثم التفت ليواجهنا مرة أخرى ليشير إلى أكوام الجثث التي تحيط بنا، قائلاً:

- كل واحد من هؤلاء رحل عنا في لحظة أو في ساعات لكننا بقينا نحن لنتجرع مرارة افتقادهم و لنحزن عليهم دون أن يشعروا حتى بنا.. و هذا ما فعلته.. حزنت على رانيا حتى كدت ألحق بها لولا أن أتى ذلك اليوم الذي استيقظت فيه لأشعر بأن حزني أقل.. أذهلني هذا حينها لكنه حدث.. و في اليوم التالي شعرت بأنني أفضل.. ثم مرت الأيام لأجدني

في معملي أواصل أبحاثي بذات الحماس الذي بدأتها به، و رويدًا رويدًا بدأت رانيا تغيب عن ذاكرتي.. شهور طويلة مرّت قبل أن أتمكن أخيرًا من تحويلها لذكرى، و قبل أن أتمكن من التفرغ لعملي حتى.. حتى..

ثم إنه نظر إلينا مباشرة بقسوة، ليردف:

- حتى رأيتها مرة أخرى..

• • •

نحن تجمدنا ذاهلين حين قالها.. و في أعماقنا أدركنا ما يقصده، لكنه لم يبال بنا بل واصل:

- كنت قد بلغت في أبحاثي درجة لم أتخيل حتى أنني قادر على بلوغها.. هياكلي الصناعية لم تعد مجرد بديل مصمت، بل قمت بتطويرها لتعمل كأطراف صناعية بديلة لمن فقدوا أطرافهم أو لمن لم يولدوا بها.. وفي أحد الأيام حملت ما وصلت له إلى صديقي الطبيب الذي تفرغ لتدريس الطب بدلاً من العمل فيه، لأجده في أحد المراكز التعليمية و قد التف طلابه حول مائدة التشريح.. و كان ما رأيته يومها هو الهول ذاته..

نحن نفهم ما الذي يعنيه لكن أحدنا لم يجرؤ على مقاطعته..

- كان أحدهم يحمل ذراع رانيا الذي عملت به معي و ربتت به بحنان عليّ.. جواره وقف طالب آخر يحمل رأسها و قد شطر لنصفين.. و على المائدة أخذ طالب ثالث يكشف أعصاب ساقها بينما قربهم و في وعاء امتلأ بالفورمالين رأيت.. رأيت..

لكنه لم يقو على إكمال جملته و لم نكن لنحتمل سماعها..

و ربما كانت هذه هي المرة الأولى في حياتنا، التي نتمنى فيها أن

نكون فيها مكان الجثث التي تحيط بنا... المرة الأولى التي نشعر فيها بالإنحطاط!

بعد دقائق احتاجها الأشيب ليتمالك نفسه، قال:

- يومها كدت أفقد عقلي لكني فقدت وعيي فحسب أما ذهول صديقي الطبيب الذي لم يفهم إلا متأخرًا.. و حين استيقظت وجدتني أبكي حتى جفَّ جسدي كله، لأقسم في النهاية على ألا يكون لحياتي هدف إلا الإنتقام ممن نبشوا قبر حبيبتي.. من صديقي عرفت كل شيء عن الحاج متولي و عن تجارة الموتى و الباقي لم يكلفني إلا المال و أنا أملك الكثير منه.. هكذا اتصلت به لأعرض عليه شراء الجثث و هكذا تبعته حتى عرفت مكانكم فلم تعد لي حاجة به.. فقتلته..

إذن الحاج (متولي) كان ميتًا كما توقعنا!

نحن كنا نعرف أنه لم يكن طبيعيًا أبدًا و.. لكن مهلاً.. كيف عاد إذن؟!

وكأنما سمع السؤال في عقولنا، قال الأشيب:

- بعد أن قتلته استبدلت هيكله بآخر صناعي يسهل التحكم فيه عن بعد.. تمامًا كما فعلت في جثة الموشوم التي رأيتموها قبله.. كان هذا رهاني الوحيد و قد كسبته.. أن أدفعكم كلكم للمجيء إلى هنا و أن يجبركم فضولكم على التسلل إلى الداخل بعد أن أعبث بعقولكم بما فيه الكفاية.. و هذا ما حدث.. ربحت رهاني و ها أنتم الآن في قبركم الذي دخلتموه طواعية..

هنا تغلب خوفنا على ذهولنا، فصاح أحدنا:

- لن تجبرنا على البقاء هنا..

فأجاب:

- و لن تتمكنوا من الخروج من هنا.. هذا المخزن يستحيل فتحه من الداخل.. جرّبوا و ستجدوا أنني لا أكذب..

- سنقتلك لو لم تفتحه..

فنظر الأشيب لساعة يده و قال:

- بعد دقائق لن يصنع هذا فارقًا.. فالمخدر الذي تعاطيته سيعمل بعد قليل و الجرعة التي أخذتها ستضمن لي أنني لن أستيقظ ثانية أبدًا.. لقد أتممت انتقامي و لم تعد لي رغبة بالخروج من هنا..

- ما.. ما الذي تعنيه؟

- أعني أنكم ستموتون هنا و ببطء.. وسط جثثكم التي دنستم قبورها.. و في النهاية سيأتي أحدهم ليجد المخزن و داخله مفاجأة سترددها كل الألسن طويلاً.. ربما لن يتعرف أحد عليكم لكن جثتي ستدلهم لمنزلي و معملي و هناك سيجدوا تسجيلاً لي شرحت فيه كل شيء.. ستكون حادثة ضخمة و سيتحدث عنها الناس طويلاً.. الكل سيعرف أنه غير آمن حتى في قبره و ستكون هذه هي الشرارة اللازمة للقضاء على أمثالكم.. صدقوني إنها بداية النهاية..

و تثاءب بقوة قبل أن يختم:

- نهايتكم..

ثم بدا عليه الدوار و بدت علينا الصدمة.. ترنح هو قليلاً، قبل أن يقول:

- الآن سأترككم..

ثم تركنا بالفعل و ترك عالمنا كله، ليستقر جسده النحيل أمامنا، نحدق فيه عاجزين عن استيعاب كل ما قاله..

بالطبع حاولنا الخروج من هنا رغم كل ما قاله، لكننا لم نفلح..

حاولنا لساعات..

لأيام..

صرخنا حتى جفّت حلوقنا و ضربنا الجدران حتى أنهكت أجسادنا..

و في النهاية استوعبنا كل ما قاله..

و أدركنا أنها النهاية..

• • •

نحن مرّت علينا بضعة أيام طويلة و نحن هنا..

أغلبنا مات من العطش و الجوع و الرائحة، لينضم إلى الفريق الفائز.. فريق الجثث التي ترمقنا في انتظار..

نحن – من بقى منا حيًا – لم نعد نملك ذكرى واضحة عن كل ما حدث.. ما تبقى في عقولنا الآن هو مجرد مشاهد متفرقة مخيفة.. الأشيب و أمواله.. جثة الحاج متولي و هي تخرج من القبر حاملة جثة أخرى.. جثث من ماتوا منا و هي تتحلل..

مشاهد لم تعد عقولنا تقوى على الربط بينها، و لم تعد في أعماقنا إلا أمنية واحدة..

أن تحل نهايتنا لنرحل نحن أيضًا..

أن نخرج أخيرًا من هنا..

هنا حيث نحتضر ببطء وسط سلعتنا التي تاجرنا بها طويلاً..

نحن الآن نحدق فيهم، و هاهم يرمقوننا الآن مبتسمين بسخرية، ينتظرون أن نلحق بهم إلى حيث لن يختلف مصيرنا كثيرًا عن مصيرهم..

سنموت مهما قاومنا و ستتصاعد رائحتنا مع رائحتهم إلى الدرجة التي ستجذب من يفتح هذا المخزن، ليجد مفاجأة عمره في انتظاره..

سيحققون طويلاً و سيتحدثون كثيرًا و سيطاردون أمثالنا لفترة، ثم سيدفنونا في النهاية، ليأتي من ينبش قبورنا، ليبيع عظامنا لمن سيدفع الثمن..

نحن نعرف نهايتنا و نحن الآن ننتظرها في بطء..

و نحن نعرف أننا نستحقها تمامًا .

• • •



عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

ليلة واحدة

المشهد الأول... ليل داخلي...

المشهد لغرفة نوم بسيطة، يبدو عليها قلة النظافة والترتيب، كأنما هي غرفة نوم أعزب، حيث الملابس ملقاة هنا وهناك، وبقايا طعام جافة على المائدة جوار الفراش، وضوء القمر القادم من النافذة يتيح لنا رؤية هذا كله..

يدخل الأستاذ (علاء) من زاوية الكادر، مرتديًا ملابس النوم المعتادة، يتثاءب بعمق، ويتحرك بخطا ناعسة تجاه الفراش... يتوقف لحظة ليلقي نظرة سريعة على الغرفة، ثم يلوّح بيده بضجر، ويكمل طريقه للفراش... لقد اعتاد هذا المستوى من القذارة، وحين يبلغ الأمر حدًا لا يطاق، سيرسل لتلك البدينة التي نظفت له الشقة مرة، لتسلبه خمس جنيهات كاملة..

يغلق النافذة، وينزع الروب المنزلي ثم يندس تحت الأغطية الثقيلة –يبدو أنه الشتاء– ويفتح المصباح الصغير المجاور له، ثم يبدأ في قراءة كتاب ضخم ذي غلاف صقيل كتب عليه "الفن في التاريخ الإنساني"...

إنه شخص وحيد محبط إذن...

لا أحد يقرأ "الفن في التاريخ الإنساني" إلا إذا كان محبطا ووحيدا..

يمكننا الآن أن نلقي نظرة أوضح على (علاء)... شاب في الثلاثينيات من العمر، خفيف الشعر على نحو ينبئ بصلع قادم لا محالة، يرتدي نظارة ضخمة العدسات ذات إطارعريض، بينما تبدو الشعيرات النامية في ذقنه، كأنما مرّ عليها زمن طويل.. في الواقع، لو

قربنا الكاميرا لزاوية فمه، لرأينا بقايا الطعام على هذه الشعيرات... إذن (علاء) محبط ووحيد ولا يعتني بنظافته جيدًا..

الساعة الآن الواحدة صباحًا، ويبدو أن النعاس قد أصبح حاكم هذه الليلة، لذا يمد الأستاذ (علاء) يده ليلقي الكتاب على المائدة ثم يغلق المصباح، لتغرق الغرفة في الظلام..

تبتعد الكاميرا ببطء، ثم تبدأ في التحرك إلى خارج الغرفة... إلى ممر ضيق مظلم.. ثم إلى الردهة المظلمة إلا من بصيص ضوء قادم من النافذة..

المشهد صامت تماماً.. ثم نسمع صوت قطرات ماء، تصطدم بالنافذة.. قطرات قليلة متباعدة في أول الأمر، ثم الهدير المخيف للرعد، يعقبه سيل من الأمطار يضرب النافذة بحرقة..

ترتفع الكاميرا لتمنحنا مشهدًا بانوراميًا للردهة المظلمة.. ثم..

يضرب البرق بضوئه المكان، لنتمكن –للحظة– أن نرى تفاصيل الردهة، حيث يقف هذان الاثنان!!

تفاصيل.. أي تفاصيل؟؟... إنهما يرتديان عباءات سوداء تغطي جسديهما تمامًا، وتكفلت الظلال بإخفاء ملامحهما، ثم إن المشهد أضيء لثانية واحدة..

يضرب البرق بضوئه من جديد لنجدهما يتحركان... يتحركان تجاه غرفة النوم..

تدور الكاميرا بنعومة لتصبح خلفهما وتسير معهما مهتدية بضوء البرق الذي يومض في المكان من حين لآخر، حتى يقف هذان الاثنان أمام فراش الأستاذ (علاء) الذي يغط في نوم عميق..

يومض البرق مرة أخرى لنرى أحد الاثنين يرفع يده وبها جسم معدني لامع، ثم يختفي الضوء ليغرق المشهد أمامنا في الظلام، ثم نسمع صوت صرخة مكتومة يبدو أنها صرخة الأستاذ (علاء)، ثم...

ثم يسكن المشهد تمامًا..

• • •

المشهد الثاني... ليل خارجي..

يضيء المشهد أمامنا ببطء، لنرى أننا في غابة..

الغابة مظلمة وتبدو مخيفة مقبضة، مع سيل الأمطار عليها، والبرق يلتمع ليضيف إلى المشهد كآبة عجيبة، والموسيقى في الخلفية متوترة، تنذر بالويل ذاته..

تتحرك الكاميرا بنعومة تامة وسط الأشجار والأمطار، وترتفع كطائر إلى أعلى، ثم تهبط لترينا ذلك المشهد العجيب...

على الأرض الطينية الغارقة في المياه، يقف الغامضان بثبات تام، رغم الريح الشديدة التي تعبث بحرملتيهما، وأمامهما يتدلى الأستاذ (علاء) وقد التف حبل غليظ حول عنقه، وطرف الحبل الآخر مربوط في جذع الشجرة... مشنقة!!

الأستاذ (علاء) يقف على مقعد خشبي، قصير الأرجل، مكمم الفم، ويتلوى بحذر، في عينيه نظرة ذاهلة مذعورة..

جسده مبتل... كدمة في جانب وجهه... يداه مقيدتان وراء ظهره... لا يزال يرتدي ملابس النوم التي يبدو أنها لا تناسب هذا الطقس على الإطلاق... كل هذه تفاصيل هامة للمشهد..

تقترب الكاميرا بحركة ثعبانية حتى تملأ أرجل المقعد الخشبي القصيرة المشهد، وقدما الأستاذ (علاء) تجاهدان للثبات فوقهما، مع تصاعد تدريجي في حدة الموسيقى..

فجأة تقتحم قدم أحد الغريبين المشهد لتطيح بالمقعد من أسفل قدمي الأستاذ (علاء)، فيدوي صوت تحطم فقراته العنقية كهدير الرعد، و قد بلغت حدة الموسيقى ذروتها..

الآن تتحرك الكاميرا حركتها الثعبانية المجنونة في اتجاه عكسي، لنرى المشهد الكلي مرة أخرى، مع تغير واضح..

أن الأستاذ (علاء) قد تحول لجثة شاخصة البصر..

ترتفع الكاميرا أكثر فأكثر.. ثم تظلم الشاشة أمامنا ببطء..

وينتهي هذا المشهد..

• • •

المشهد الثالث... ليل داخلي..

يفتح المشهد على وجه الأستاذ (علاء)، لا تبدو عليه أي علامة من علامات الحياة، بل على العكس تمامًا...عيناه شاخصتان.. لسانه يتدلى نصفه خارج فمه... الكدمة في جانب وجهه تنضم لذلك الشحوب المخيف لترسم لنا لوحة وجه شخص ميت...

الكاميرا عمودية على وجه الأستاذ (علاء) لنرى أنه عاري الجذع.. تدخل يد في قفاز أسود إلى المشهد لتدس شيئًا ما في فمه... تبتعد اليد ويعود المشهد لجموده بضع لحظات، ثم يبدأ الدخان في الخروج من فم الأستاذ (علاء)!

الدخان غير كثيف ولا يحمل لوناً مميزاً، يتوقف بعد لحظات، ثم تقترب الكاميرا قليلاً من عيني الأستاذ (علاء).. للحظة يبدو كل شيء كما هو... ثم نرى جفن عينه اليمنى يرتعش..

ثم تبدأ عيناه في الحركة المحمومة!

أيًا كان ما حدث، فلقد استعاد الأستاذ (علاء) وعيه، وهاهو يحرك عينيه في كل اتجاه كأنما يستكشف المكان من حوله..

تبتعد الكاميرا قليلاً لنرى أنه ممدد على فراش معدني قذر، في غرفة ضيقة صخرية الجدران، يتدلى من سقفها شيء أشه بالوعاء يحتوي على مادة مشتعلة تضيء المكان بإضاءة رديئة..

وهكذا نتمكن من رؤيتهما... رؤية الغامضين اللذين بدآ هذا كله..

أحدهما يقف عند ركن الغرفة أمام مائدة خشبية عتيقة، وقد فتح أمامه كتابا ضخما مهترئا، لا يمكننا تمييز ما كتب فيه... أما الثاني فينحني على وعاء معدني ضخم، وضع على حطب مشتعل، في شيء أشبه بالمدفأة، وتغلي بداخله مادة ما..

من الملاحظ أن هذا المشهد صامت تماماً... صامت لدرجة أننا نكاد نسمع صوت حركة عيني الأستاذ (علاء) في محجريهما...

المدقق في المشهد يستطيع تمييز وضع رأس الأستاذ (علاء) بالنسبة لجسده.. يستطيع أن يميز أن هذا الوضع مستحيل تمامًا.. بالنسبة لشخص على قيد الحياة على الأقل!

على كل حال لنترك هذا المشهد، ولنتابع حركة الكاميرا التي تركز هذه المرة على الغامض الأول الذي يقرأ في الكتاب العتيق.. الكاميرا تقف جواره، لذا نراه يهز رأسه بفهم، ثم يخرج من عباءته، لفافة جلدية، يفردها أمامه على المائدة..

ها نحن نرى -بفزع- ما بداخل العباءة... مشرط صدئ.. بضع سكاكين غريبة المظهر، تحتاج إلى جراح ممارس ليتعرف على أسمائها اللاتينية... ثم مسحوق في لفافة أصغر...

يهز الغامض رأسه برضا مرة أخرى، ثم يتناول المشرط ويتجه به إلى الأستاذ (علاء) الذي لا يملك سوى عينيه ليصرخ بهما...

يهز الغامض رأسه برضا مرة ثالثة، ثم يضع نصل المشرط على صدر الأستاذ (علاء) وبدون أن تصحب هذه اللقطة موسيقى تصويرية -لا يحتاج الأمر لمزيد من التوتر- يجذب المشرط على صدر الأستاذ (علاء)..

ثم يظلم المشهد لحسن حظنا!

• • •

المشهد الرابع... ليل داخلي..

هذا المشهد والمشاهد التالية هي ما يسميه السينمائيون (فوتو مونتاج)، أي لقطات متتابعة سريعة... وسيكون الانتقال بين هذه المشاهد بطريقة الإظلام (Fade out) والتنوير (Fade in)... والآن..

تنوير..

الكاميرا تمنحنا زاوية لا بأس بها لنرى جسد الأستاذ (علاء)، مسجى على المائدة، ودماء كثيرة تسيل من تجويف، كان صدره في وقت من الأوقات...

إظلام..

تنوير...

الغامض الثاني الذي كان يعبث في الوعاء، يضع فيه أشياء داكنة اللون –نحن نعرف ما هي– في الوعاء، وقد تلوثت يداه بالدماء..

إظلام...

تنوير...

الغامض الأول، يلف جسد الأستاذ (علاء) بأربطة طويلة من الكتان... يحنطه في الواقع، ولو كان أحدكم قد مارس التحنيط من قبل، فلا بد أنه قد فهم ما يحدث ..

إظلام...

تنوير...

الآن نرى أن الأستاذ (علاء) –سابقاً– قد تحول لمومياء، مازالت عيناها تتحركان بجنون!

المشكلة أننا لا نرى من هما الغامضان بسبب تلك العباءات السوداء العجيبة هذه.. ولا نفهم لماذا يفعلون ما يفعلونه، وما الذي يحدث هنا بالضبط... وهذا هو السبب الرئيسي الذي سيجعلنا نواصل...

هذا هو السبب الرئيسي الذي سيجعلنا نعرف المعنى الحقيقي لكلمة هلع ..

• • •

المشهد الخامس... ليل خارجي..

الآن نعود للغابة، والكاميرا تمنحنا منظور الطائر الذي يعرفه أي رسام.. والمشهد كما تركناه منذ قليل... سيل من الأمطار.. الرياح

تعصف بالأشجار كأنما ستقتلعها من جذورها... الأرض الطينية الزلقة، والغامضان لا يشعران بهذا كله، يحملان تابوتا مغلقا -أعتقد أننا نعرف من في داخله- ويتوقفان أسفل جذع شجرة ضخمة في حجم مبنى من طابقين، ليضعا التابوت أرضًا، ثم ويدون أن يتبادلا أي كلمة، يجثوان على ركبتيهما، ويبدآن الحفر بأيديهما في الطين..

تدور الكاميرا حول المشهد، ليملأ جذع شجرة الشاشة أمامنا للحظات، نعود بعدها إلى الغامضين، لنجدهما ينزلان التابوت في الحفرة، وهو تكنيك سينمائي ذكي لتجنب إضاعة الوقت.. بعد هذا تواصل الكاميرا دورتها ويختفي المشهد مرة أخرى خلف جذع شجرة أخرى، ونعود للمشهد لنجد أنهما يقفان أمام القبر الذي انتهيا منه، والأمطار الغزيرة تغسل أي أثر لما حدث على السطح...

لقد انتهت مهمتهما عند هذا الحد، والآن سيعودان من حيث أتيا...

الآن ترتفع الكاميرا وتحلق فوق الغابة كطائر أسطوري.. الآن نرى أن هذه الغابة تبدو مخيفة بحق.. شيء ما غير طبيعي فيها لكننا لا ندرك ما هو بالضبط.. الآن تظلم الشاشة ببطء، لينتهي هذا المشهد..

• • •

المشهد السادس.. ليل خارجي..

نعود إلى الغابة، لنرى أن الأمطار قد خفت قليلاً، والفجر بدأ يشق طريقه بصعوبة، وسط الغيوم المتناثرة في السماء، تتسلل خيوط الضوء من وسط هذه الغيوم لتعلن مولد يوم جديد...

الكاميرا ثابتة على مكان قبر الأستاذ (علاء) أسفل تلك الشجرة، ولا يصاحب هذا المشهد أي موسيقى على الإطلاق، فلا نسمع سوى

صوت الأمطار التي قلت غزارتها وهي ترتطم بالأرض الطينية اللزجة...

يستمر هذا المشهد الثابت لثلاثين ثانية على الأقل، لجذب انتباه المشاهد، ثم تدخل تلك القطة الصغيرة من يمين الشاشة... القطة صغيرة كأنها ولدت للتو، مبللة ترتجف بردًا، لو رأيتها لفقدت حذرك تجاه هذه الكائنات، ولأخذتها في حضنك، لتطعمها ما شاءت...

القطة تتحرك ببطء، وتصدر مواءً ضعيفًا، وتتقدم أكثر فأكثر، حتى تقف فوق مكان القبر تمامًا، وهنا تتوقف عن الحركة، وتأتي بحركات غريبة، كأنها سمعت شيئًا ما... شيء لا نسمعه نحن...

تقترب منها الكاميرا ببطء لنرى أنها تحرك أذنيها في كل اتجاه، وهي تصدر مواءها الضعيف، ثم.. ثم..

ثم فجأة تخرج يد من الأرض.. يد نحيلة تبرز عروقها ويغطيها الدم والطين، تقبض على عنق القطة المسكينة، وتجذبها بلا رحمة إلى أسفل الأرض!

وتعود الكاميرا للابتعاد، والشاشة تظلم ببطء..

دون صوت..

• • •

المشهد السابع.. نهار خارجي..

يفتح المشهد على الغابة أيضًا، ولكن هذه المرة في مكان مختلف، والشمس المشرقة، تغرق الأرض بنورها، لنرى عائلة لطيفة من أب وأم وطفلتين، يجلسون على مفرش منزلي على الأرض، والأم تخرج الشطائر من حقيبة ضخمة جوارها، لتوزعها على الجميع، وهم يتبادلون الابتسام والضحك..



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

عائلة خرجت للنزهة، لا جديد في هذا المشهد، لكننا نلاحظ أن الكاميرا تركز نوعًا ما على الطفلة الأصغر..

الطفلة هي ملاك صغير يضحك ويتقافز من هنا إلى هناك بسعادة تنشرها بلا حساب حولها مع كل ضحكة تخرج منها..

صحيح أن تركيز الكاميرا يمنحنا إيحاءً صريحًا أن شيئًا ما سيحدث لهذه الطفلة، لكنها الحقيقة للأسف.. شيء ما سيحدث لهذه الطفلة!!

نراها تأخذ الشطيرة من أمها التي تداعب شعرها بحنان، وتقضم قضمة صغيرة، ثم تنقض فجأة على أختها الأكبر، لتدفعها وهي تضحك، قبل أن تنطلق في العدو والأشجار تردد ضحكاتها بسعادة..

تلاحقها الكاميرا بين الأشجار من ظهرها، وهي تجري تلتفت من حين لآخر لتمنحنا إحدى ضحكاتها العذبة..

ثم تتوقف الطفلة والكاميرا عند منطقة أصبحنا نعرفها جيدًا... قبر الأستاذ (علاء)..

عند هذه المنطقة، تجلس الطفلة، على الأرض تلهث، ثم ترفع رأسها لترى المكان حولها..

ثم ولتبدد قليلاً من الصمت الذي أحاط بها، تبدأ الطفلة بالغناء بصوتها الساحر:

- عارف الواد اللي اسمه عادل جاب دكتور..

يتصاعد صوتها بالغناء، ليغطي على جميع الأصوات ونراها تنظر إلى الأرض، مكان القبر بالضبط، وقد بدت الحيرة على وجهها الصغير، وتتوقف شفتاها عن الحركة، لكن صوت غنائها لا يتوقف...

تقترب الكاميرا من وجهها، ثم نراها تهرش رأسها بحيرة طفولية، ثم تنفجر الأرض من خلفها، واليد الرهيبة تخرج مجددًا...(هذه اللقطة تنفّذ بالتصوير البطيء وإلى نهاية المشهد)..

- وعمله إيه؟؟... إيه؟؟

قطع إلى العائلة التي تنتفض وكأنها سمعت صرخة، قادمة من بعيد.. صرخة يعرفون صاحبتها..

- لقي رجليه بقوا زي الفتلة.. بص شوية جوة عنيه..

قطع إلى الأب يجري في الغابة وهو يهتف..

- راح مديله حقنة كبيييييييرة..

قطع إلى الأم تصرخ وهي تحتضن طفلتها الثانية التي تبكي بحرقة...

- عارف اداله الحقنة ليه؟؟

قطع إلى مكان القبر حيث نرى فردة حذاء الطفلة ملقاة على الأرض، وعليها قطرة دماء لم تجف بعد..

- مابيشريش اللبن الصبح..

• • •

المشهد الثامن... ليل خارجي...

المكان الكئيب ذاته في الغابة، دون أمطار هذه الليلة، والكاميرا هذه المرة ترينا القبر من أعلى، على ارتفاع شجرة تقريبًا...

نرى الرمال تتحرك حركة خفيفة في الأول، ثم تزداد الحركة، حتى نرى رجلا غير واضح المعالم يخرج من الأرض زحفًا... بالطبع نحن نعرف من هو، حتى لو كنّا لا نرى ملامحه...

نراه يزحف خارجًا، ثم يزحف مبتعدًا.. إلى أين يذهب؟!

سؤال هام بالتأكيد..

• • •

المشهد التاسع... ليل داخلي..

شقة الأستاذ (علاء) بالإهمال ذاته والقذارة التي كانت عليها حين رأيناها أول مرة، وهي مظلمة إلا من ضوء القمر القادم من النافذة، والكاميرا الآن في الصالة..

تتحرك الكاميرا، متجهة إلى غرفة النوم المظلمة أيضًا، لنرى أن كل شيء لا يزال على حاله، ولنرى أن الفراش خاو، لكن مع حركة الكاميرا الدائرية، نرى ذلك الرجل الجالس على الأرض جوار الفراش، ونتعرفه بصعوبة...

إنه الأستاذ (علاء)، لكن قد نمت له لحية غير منتظمة، واستطال شعر رأسه على الجانبين، وجذعه عار من الملابس، لنرى أنه نحل إلى درجة غير طبيعية، بينما تومض عيناه في الظلام بوميض أزرق غريب...

هذا الشخص (كان) الأستاذ (علاء)..!!

تتحرك الكاميرا حركتها الدائرية مرة أخرى، لنرى الغامضين يقفان عند الباب، يرتديان العباءات السوداء ذاتها... يتقدمان نحوه ببطء واثق مخيف، ثم يقفان أمامه مباشرة..

وبلغة لا تمت للغتنا الأرضية بصلة، وبصوت يبدو كالصدى، يتحدث أحد الغامضين، لنقرأ نحن الترجمة على الشاشة:

- لقد اكتمل تحولك أيها الفاني..

ترى أن (علاء) ينظر إليهما بمقت واضح، دون أن يجيب، بينما يواصل الغامض:

- وأمامك ليلة واحدة حتى تستعيد جميع قواك.. بعدها ستسعى لبناء مملكتك..

وينحني الغامض حتى يكاد يلتصق رأسه بوجه (علاء)، متابعًا:

- بعدها سنأخذ نحن زمام الأمور...

وبالبطء ذاته، يرفع الغامض رأسه، ويستدير مع رفيقه لمغادرة الغرفة، تلاحقهما نظرات (علاء) الكارهة..

- ليلة واحدة..

يقولها الغامض دون أن يستدير، ويغادر المكان، فيقوم (علاء) من مكانه ببطء، ليقف عند نافذة الغرفة..

ومع الضوء الشاحب القادم من النافذة، نرى صدر الأستاذ (علاء)، ونرى تلك الخياطة الشنيعة التي أجريت في صدره...

نراه يمد يده ليتحسسها، ثم يقول باللغة العجيبة ذاتها:

ليلة واحدة..

ثم تتبعه الكاميرا وهو يخرج من الغرفة.. يتجه للصالة.. ثم إلى غرفة أخرى كان بابها مغلقًا طيلة الوقت... نراه يفتح الباب، لتسبقه الكاميرا إلى الداخل، ولنرى نحن تلك الجثة الملقاة على وجهها..

جثة سيدة بدينة، ترتدي جلبابا قذرا، حافية القدمين، ووجهها تجاه الحائط، فلا نرى ملامحها...

لقد كانت هذه السيدة تأتي لتنظف المنزل، لتسلبه خمس جنيهات كاملة، أما الآن..

أما الآن فيمكننا أن نقول إنه قد استرد حقه منها بصورة أو بأخرى...

ونسمعه يردد، وهو يدخل الغرفة، مغلقًا الباب خلفه:

- ليلة واحدة..

• • •

المشهد العاشر... ليل خارجي..

المبنى الذي يسكن فيه الأستاذ (علاء) من الخارج، والأمطار تتساقط بكثافة معقولة، وقد خوى الشارع تمامًا من أي حركة، ونسمع صوت الرياح وهي تحرك الباب الخشبي للمبنى..

يظهر الغامضان عند مدخل البناية، ويتحركان إلى الداخل، دون أن يصدر عنهما أدنى صوت.. ثم يتبعهم المزيد... المزيد من الغامضين...

يتحركون كقطيع منتظم، وموسيقى ناعمة تصحبهم في خلفية المشهد، وكلهم يختفون داخل البناية، فتنتظر الكاميرا قليلاً، ثم تصحبهم إلى الداخل..

نراهم يصعدون السلم، بلا صوت، ثم يدخلون واحدًا تلو الآخر إلى شقة الأستاذ (علاء)، ليقفوا هناك في الصالة المظلمة...

الكاميرا الآن في السقف، لتمنحنا منظورًا أفقيًا للصالة، والغامضون يقفون، فيها، بلا صوت إلا الموسيقى التصويرية، ينتظرون الأستاذ (علاء) -سابقًا- الذي يخرج لهم من الغرفة...

تهبط الكاميرا ببطء، لتعرض لنا الأستاذ (علاء) بعد أن اكتمل تحوله..

بصورة ما ازداد طوله.. وبصورة ما نمت له تلك الأنياب التي تدلت خارج فمه.. وبصورة ما أصبح جسده كله يشع بذلك الوميض الأزرق العجيب..

يتحدث الغامض الأول فيقول بلغته العجيبة، لنقرأ نحن الترجمة:

- الآن أصبحت مستعدًا أيها الفاني... الآن حان الوقت لنعلن عن ظهورنا..

يتحدث الأستاذ (علاء)، ليخرج صوته مغايرًا تمامًا لما اعتدنا سماعه:

- كل شيء معد لاستقبالكم..

- ما الذي تعنيه؟!

تقترب الكاميرا (كلوز) على وجه (علاء)، لنرى أنه يبتسم، وهو يقول:

- أنتم لم تعطوني الخيار.. قررتم ونفذتم دون أن تمنحوني أي خيار..

يرتفع صوت أحد الغامضين هادرًا مخيفًا:

- لقد منحناك الخلود أيها الفاني، وستطيعنا في كل ما نأمرك به..

- حقًا؟!

- لا يوجد لديك خيار آخر..

من الممكن أن تدور الكاميرا طيلة الوقت حول (علاء) والغامض الذي يحدثه، خلال الحوار السابق، حتى تتوقف على (علاء) الذي يرفع يده ببطء، وهو يقول:

- بل يوجد..

نرى أنه يحمل في يده قداحة أنيقة، فيتراجع الغامضون، ويبدو عليهم القلق..

أو أنهم فهموا...!!

تتحرك الكاميرا بسرعة هائلة في الشقة بالطريقة التي اشتهر بها المخرج (ديفيد فينشر)، وتدخل المطبخ.. خلف الموقد، لنرى أن أنبوب الغاز مقطوع ويصدر هسيس مسموع...

وهكذا نفهم نحن..

وبالسرعة الخرافية ذاتها تعود الكاميرا، إلى يد (علاء) التي تشعل القداحة، ليبدأ اللون الأزرق -وبالتصوير البطيء- في الانتشار في المكان...

• • •

المشهد الحادي عشر... ليل خارجي..

نرى المنزل من الخارج، ساكنًا للحظة، ثم تنفجر نوافذ منزل الأستاذ (علاء) فجأة ليخرج لسان هائل من اللهب مصحوبًا بدوي هائل، متجهًا إلى الكاميرا، لتغمر النيران المشهد كله...

ثم يخمد لسان اللهب، لكن النيران لا تزال تتصاعد من نوافذ المنزل...

يتجمد المشهد على هذه اللقطة لثوان قليلة، ثم نرى الغامض الأول، يخرج من البناية بالبطء ذاته والهدوء ذاته.. ثم يتبعه الباقون..

لقد فشلت المهمة، لكن لا بأس...

نسمع أحدهم يقول:

- سنضطر للبدء من جديد..

- بالتأكيد سنفعل..

لنعرف أنها ليست النهاية، لكن الشاشة تظلم ببطء، وتبدأ الأسماء في الصعود على الشاشة بسرعة متوسطة، مصحوبة بموسيقى ناعمة...

• • •



عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice



عصير الكتب
Facebook.com/groups/Book.juice

العشرون دقيقة الأخيرة

" ألن تتوقفي عن قراءة هذه التفاهات يا (ميشكا)؟ "

فلا ترد (ميشكا) وتواصل قراءة تفاهاتها المحببة.. أمّا أمها فتعود للنوم وقد سقطت أسيرة الإيقاع المنتظم، مستندة على كتف أبيها، الذي استند بدوره على نافذة، بدت الثلوج من خلفها وكأنما غزت الكون كله..

(ميشكا) في العاشرة من عمرها لذا فقد يثير اهتمامك أن تعرف أن التفاهات التي تقرأها تقول:

" الجثة الثالثة عثر عليها في أحد الأزقة في موسكوالتي حولها انهيار الإتحاد السوفيتي إلى شبح مجد من أمجاد الماضي.. وكالعادة كانت مذبوحة أمها فتعود للنزيأداة شبه حادة وقد حمل الوجه أقسى آيات الفزع التي من الممكن أن يحملها وجه بشري.. الأمر الذي فسره د . (بوريس ميلانوف) بأن القاتل يفضل أن تتم عملية الذبح ببطء شديد لتعاني الضحية أقصى درجات الألم والرعب وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، لكن باقي التفاصيل التي حملتها الجثة هي التي أكدت أنه قاتلنا الملقب بـ (نازع الأحشاء).. "

لكن هذا لا يعني أن (ميشكا) غريبة الأطوار..

فلنقل – فقط - أنها لها مزاجًا غريبًا في القراءة، وهذا حقها خاصة وأن أطفال هذه الأيام ليسوا أطفالاً بالمعنى الذي نعرفه عن الأطفال.. نحن كنّا أطفالاً يضحكون علينا بـ (العروسة) و(الحاجة الحلوة).. أمّا الآن فلا يكفي الانترنت والقنوات الفضائية والهواتف المحمولة وألعاب الكمبيوتر لملء فراغ هؤلاء الأطفال.. لذا حين يكون عيب (ميشكا) الوحيد هوأنها تهوى قراءة قصص الجرائم والسفاحين، فسنجد أن الأمر ليس بهذا السوء..

ثم إن تلك الصحيفة المسماة (مسرح الجريمة) وكاتبها الأبرز

(ليوباروفسكي) هما الأجدر باللوم مع كل تلك القصص التي ينشرونها بتفاصيل سادية لا مثيل لها في أية صحيفة خرى.. صحيح أن هذا ما يبقيها على رأس قائمة المبيعات، لكن اقرأ معي هذه الفقرة لتفهم ما اعنيه:

" كما وجدنا في الجثة الأولى والثانية تمامًا كان البطن مبقورًا بذات الأداة التي استخدمت في الذبح وهذا ما أثبتته فحوص الطب الشرعي بعد أن عثر الأطباء على أجزاء من نسيج العنق ملتصقة بالغشاء البيرتوني المحيط بالأمعاء..أمَا الأمعاء فكانت تتدلى خارجة بذات التشكيل الرهيب الذي لم يفهم المحققون المغزى منه حتى الآن.. أمعاء ممزقة ومعقودة على بعضها البعض بحيث تبدوكأنها زهرة.. زهرة من الأمعاء البشرية تنبت في جسد ممزق في بشاعة.. ولوأضفنا إلى هذا كله نزع العين اليسرى و.. "

تتذكر أنت الآن أن (ميشكا) في العاشرة من عمرها وهي تقرأ هذه السطور، فأذكرك أنا أنها ليست المسؤولة عن توافر هذا النوع من التفاهات بين يد العامة.. إنه (ليوباروفسكي) وصحيفته (مسرح الجريمة)..

سحقًا له ولصحيفته!

الإيقاع المنتظم والإهتزاز المتواصل لا يجعلان القراءة أسهل بأي حال.. بل إن (ميشكا) بدأت تفرك عينيها كأنما سيخفف هذا من الصداع الذي تشعر به.. وحين مرّ الساقي من جوارها وهويدفع عربته، طلبت منه قدحًا من القهوة فمنحها إياه ذاهلاً بعد أن أقنعته بيدها التي قبضت على بضعة أوراق مالية أخذتها من حقيبة أمها الغافية أمامها..

في العاشرة وتشرب القهوة؟!.. أرجوك.. اقرأ معي ما تقرأه هي الآن وستجد أنه من حقها أن تشرب الخمر لا القهوة!

"الجثة الرابعة كانت في (سيبريا) التي لا تحتاج إلى المزيد من الجرائم لتزيد رهبتها.. وكانت لامرأة هذه المرأة.. امرأة في الثانية والثلاثين تدعي (منيرفا شولوخوف) لكنها كانت أول ضحية يعثر عليها في منزلها.. في غرفة نومها.. الأمر الذي حذر منه د . (بوريس) واعتبره نقلة نوعية في نشاط قاتلنا الذي اعتاد اصطياد ضحاياه في الأزقة المظلمة لا أن يتبعهم إلى منازلهم، مما سيؤدي إلى حالة عارمة من الفزع ستجتاح البلاد كلها بعد أن أصبح (نازع الأحشاء) هوالكابوس الذي ينتظره الجميع خلف كل باب ومع كل دقة جرس..

لا بأس.. سأعترف أن (ميشكا) غير طبيعية، لكنك الآن تريد أن تعرف ما الذي أصاب ضحيتنا الرابعة:

" الجيران هم من اكتشفوا جثة (منيرفا) بعد أن رأوا الدماء وهي تتسلل أسفل عتبة بابها بغزارة غير طبيعية.. وحين اقتحموا المنزل كانت جثتها هناك لكنها كانت معلقة في وضع عكسي في السقف وقد شكلت أمعاءها تلك الزهرة المخيفة بحيث تكون في استقبال من يدخل.. أما الرأس فقد تم العثور عليه في.. في.. يتبع العدد القادم.. "

وهوقول كان كفيلاً بتحطيم أعصابها لولا أنها كانت تملك العدد القادم..

من أهم الدروس التي تعلمتها من هذه الصحيفة ألا تقرأ عدد أبدًا قبل أن تتأكد أنه لا يحمل تلك العبارة البغيضة (يتبع العدد القادم).. في هذه الحالة تؤجل قراءة العدد حتى يصدر العدد – اللعين – القادم!

" ميشكا.. الازلت.. "

تقولها أمها من وسط نعاسها الذي تعود إليه، فتتصلب (ميشكا) للحظة قبل أن تلتقط العدد القادم من حقيبتها بحذر شديد، لتعود لمواصلة الـ..

لكن صرخة حماسية انطلقت مجلجلة من بين شفتيها حين قرأت:

" نحن تنفرد بنشر مواصفات نازع الأحشاء الشهير.. "

وأسفل هذا العنوان وبخط أصغر:

" الضحية الوحيدة التي نجت من الموت تصف لنا ما رأته في تلك الليلة الرهيبة.. "

كانت أمها قد انتفضت مستيقظة من صرختها الحماسية، وكأي أم أدركت الموقف كله في لحظة، لتصيح:

- ألم أقل لك أن تتوقفي عن قراءة هذه التفاهات؟

ثم وبحركة سريعة انتزعت منها الصحيفة..

- أمي.. لا..

صرخت بها لكن هذا لم يزد أمها سوى حماسًا بينما واصل أباها تظاهره بالنوم ليجنب نفسه الجدل.. وبحزم لا نقاش معه قالت الأم:

- والآن اخلدي إلى النوم..

وهي من المعجزات التي يمارسها الأهل منذ زمن..

إنهم يفترضون أنهم قادرين على إصابتك بالجوع والشبع والنعاس واليقظة والخوف والسعادة بمجرد أن يأمروك بهذا!!

- أمي إنني..

- قلت اخرسي وإلا..

ثم إنها طوّت الصحيفة أسفل ذراعها وعادت للنوم، بينما مطّ أبوها - المتظاهر بالنوم - شفتيه في أسف..

مستحيل.. لقد أوشكت منذ لحظة واحدة على معرفة سر (نازع

الأحشاء) الرهيب.. أوشكت أن تعيش ما عاشته تلك الضحية التي نجت منه لتحكي لها هي وحدها ما حدث وأي هول رأت.. أسرار الكون ذاته أوشكت أن تنكشف لها، ثم تأتي أمها لتنتزع هذا كله منها في لحظة..

إنها تستحق أن تنتزع أحشاءهـ.. لا.. لا..

يبدوأنها أسرفت حقًا في قراءة هذه القصص..

لكنها تريد أن تعرف حقًا..

تريد لكنها لن تجرؤ على جذب الصحيفة من أسفل ذراع أمها، وإلا تحولت هذه الأخيرة إلى ما هوأسوأ من (نازع الأحشاء) وهي أكثر من يعرف هذا..

هكذا لم تملك (ميشكا) سوى الدموع الصامتة وأمل أن تسقط الصحيفة من أسفل ذراع أمها بأي طريقة، حتى امتدت يد أبيها فجأة لتجذب الصحيفة ببطء ليناولها لها وهولا يزال يتظاهر بالنوم، وان منحها ابتسامة جانبية، فبادلته إياها بأخرى ممتنة وهي تلتقط منه الصحيفة بحذر..

وببطء شديد فضت الأوراق وعادت تواصل:

" الضحية الرابعة كان اسمها (منيرفا) و..

لا.. لا.. ليس هذا.. (منيرفا) ماتت في شقتها معلقة بوضع عكسي أمام باب شقتها وقد تحولت أمعاءها إلى زهرة مرحبة.. لم تعد تهم الآن!

جرت عينيها المرهقتان على الأسطر حتى وصلت إلى:

" الضحية الخامسة والحيدة التي نجت من الموت كان (فيودور تاركوفسكي).. في الرابعة والثلاثين من العمر وكان ينظف المطعم الذي يعمل فيه بعد انتهاء ساعات العمل، حين دخل (نازع الأحشاء)

مطعمه متظاهرًا أنه زبون، وعلى الرغم من أنه لم يعد استقبال الزبائن بعد ساعات العمل الرسمية، إلا أن (فيودور) كان يشعر بالوحدة، ووجدها فرصة ليؤنس وحدته.. لكنه لم يكن يعرف أنه سيدفع عينه اليمنى ولترين من دماءه ثمنًا لهذا.."

رشفة من كوب القهوة أمامها، ثم:

"وحين دخل (فيودور) إلى المطبخ ليعد العشاء إلى هذا الغريب، فوجيء به يقف خلفه وقد قبضت يده على سكين ضخم ذونصل متآكل لا يزال يحمل آثار دماء جافة.. وقبل أن يجد الفرصة للحركة كان (نازع الأحشاء) يهوي بسكينه على وجهه ليفقد (فيودور) عينه اليمنى ولتتمزق شرايين عنقه نوعًا ما.. لكن العجيب أن (فيودور) قاومه رغم إصابته وأخذ يصرخ كالمجذوبين، ليفرّ (نازع الأحشاء)، قبل وصول بعض المارة الذي جذبهم الصراخ و.."

والذين نقلوا (فيودور) إلى المستشفى حيث أجروا له عملية و.. الخ الخ.. كل هذا مفهوم.. أين الوصف بالضبط؟؟

" وفي التحقيق وصف (فيودور) الغريب بأنه معتدل القامة وعلى درجة من البدانة.. ذوشعر خفيف في مقدمة رأسه يشي بأنه في طريقه للصلع، وأنه يرتدي منظارًا طبيًا ذواطار ذهبي وهناك ندبة خفيفة في ذقنه.. وبهذا يصبح لدينا – أخيرًا – وصف واضح لهذا القاتل الذي روّع روسيا بجرائمه التي.."

لكن (ميشكا) لم تكمل وقد تحول الصداع في رأسها إلى طرقات لا ترحم تهوي بإنتظام على جمجمتها.. لذا أغلقت عينيها بقوة وأخذت تتخيل (نازع الأحشاء)..

المشكلة أن هذا الوصف يليق بأي شخص رأته في حياتها.. الكل

أصبح على درجة من البدانة والكل يرتدون النظارات الطبية هذه الأيام والكل يصابون بالصلع.. حتى أباها بدأ الصلع يغزومقدمة رأسه، ولولا أنه لا يملك ندبة في ذقنه لأبلغت عنه على الفور!

لكن (ليوباروفسكي) كتب كأنما يجيب:

"وصحيح أن هذه المواصفات لا تكفي لتحديد هوية القاتل، لكنها تكفي بالتأكيد لإثارة الشكوك التي قد تجنب المزيد من الضحايا، ولابد أن (نازع الأحشاء) سيخفف قليلاً من نشاطه في الفترة القادمة، بل ربما يقدم على الإبتعاد عن المدن حتى تهدأ الأمور، قبل أن يعود لينتزع المزيد من الأحشاء.. ولقد أكد الدكتور (بوريس) على أن &#تز×××%.. وهذا هو.."

ثم مساحة بيضاء إلى آخر الصفحة وهي من العيوب التي تكررت في صحيفة (مسرح الجريمة) أكثر من مرة، لكنها لم تحتط لها للأسف.. بعض النسخ تحمل عيوب طباعة كتلك التي تطالعها الآن والحل الوحيد أن تحصل على نسخة أخرى وإلا تحول تأكيد الدكتور (بوريس) إلى بعض الرموز الغير مفهومة.. لكن..

من أين لها أن تحصل على نسخة أخرى؟

إنها في قطار يشق طريقه وسط ثلوج تبدووكأنما لا بداية لها ولا نهاية، ولابد أن أقرب بائع صحف يبعد عنها أكثر من ألفي كيلومترًا على الأقل، وهي لن تطيق صبرًا حتى تصل.. فما الحل؟

أخذت تنظر حولها في حيرة لتصطدم عيناها بنسخة أخرى من (مسرح الجريمة) يمسكها أحد المسافرين على بعد عدة مقاعد منها..

ها هوالحل إذن!

صحيح أن أمها حذرتها من مغادرة مكانها أيًا كان السبب، لكنها

تستطيع دومًا التظاهر بأنها ذاهبة إلى دورة المياه، هذا بفرض أن تشعر بها أمها أوأبوها الذي غرق في النوم فعليًا لا تظاهرًا كما كان يفعل منذ قليل..

ثم إن المخاطرة تستحق..

الدكتور (بوريس) بنفسه يؤكد على شيء ما يجب أن تعرفه وإلا..

هكذا غادرت مكانها ببطء شديد ثم اتجهت على أطراف أصابعها إلى ذلك المسافر الذي اختفى تمامًا خلف الصحيفة وهي تبتسم ببراءة.. ستطلب منه النسخة أوستقف أمامه لتقرأها وهي في يده لووصل الأمر.. المهم أن تنتهي قبل أن يضطر أبوها إلى إلقاء أشلائها من القطار بعد أن تنتهي منها أمها..

- عذرًا.. هل يمكنني أن؟

لكنها لم تكمل عبارتها هذه أبدًا..

ففي اللحظة التي نطقتها طوى المسافر صحيفته لترى وجهه لأول مرة..

كان معتدل القامة وعلى درجة من البدانة.. ذوشعر خفيف في مقدمة رأسه يشي بأنه في طريقه للصلع، وكان يرتدي منظارًا طبيًا ذوإطار ذهبي وهناك ندبة خفيفة في ذقنه..

وكانت تلك النظرة الرهيبة المطلة من عينيه أوضح من اللازم..

صدمتها المباغتة جعلته يدرك أنها تعرفته على الفور..

أنها عرفت أنه (نازع الأحشاء) الشهير..

شخصيًا..

• • •

لكن (ميشكا) في السابعة من عمرها برغم كل شيء، لذا تصرفت

كأي طفلة أخرى في السابعة من عمرها..

تجمدت في مكانها وقد اتسعت عيناها بنظرة رعب ذاهلة..

صحيح أنها حاولت التحرك.. حاولت التماسك.. حاولت الصراخ حتى، لكن هذا كله لم يحدث.. فقط ظهر (ليوباروفسكي) في عقلها ليروي لها كيف سيكتب عن جريمتها:

"ولا بد أن الفتاة المسكينة حاولت تحذير أحدهم، لكنهم لم يصدقوها.. من الذي يصدق طفلة في السابعة من عمرها هذه الأيام؟.. هكذا وجدت نفسها في قطار يشق الثلوج في مواجهة نازع الأحشاء الشهير الذي.."

قال هو:

- اجلسي..

"فأطاعته كأنما نومها مغناطيسيًا بنظراته، وانتفخت مثانتها كفم ضفدع في موسم التكاثر، بينما (لوباروفسكي) يواصل في رأسها:

السؤال هوكيف قتلها في القطار دون أن يشعر به أحد؟؟ أين كان والديها حين كان نازع الأحشاء يمزق عنقها بـ.."

وقال هو:

- أنت تعرفين من أنا.. لا داعي للتظاهر بالعكس..

ثم إنه تحسس الندبة في ذقنه، ليردف:

- لا تفكري في أي حماقة، فمهما حدث سيظل هناك وقت كاف لأجز عنقك لواضطررت إلى هذا..

"لكنها كانت عاجزة بالفعل عن فعل أي شيء.. أما هوفطوى

الصحيفة ووضعها جواره ببطء، وأخرج من جيبه لفافة تبغ أشعلها بأناقة، ليدخن في هدوء دون أن ينظر لها حتى.."

أمّا (ميشكا) فقد بلغت مثانتها حلقها، وشعرت بها على وشك الإنفجار، فانتزعت الأحرف من فمها انتزاعًا:

- أنا... لن.. أتحدث.. أبدًا..

- بالطبع لن تتحدثين.. فأنا سأقتلك.. فقط أفكر كيف وأين؟

قالها بهدوء كأنما سألته عن الساعة، فبدأت تشعر أنها ستفقد الوعي.. لكن (ليوباروفسكي) حذرها في عقلها:

"ربما فقدت الوعي، وهذا ما منحه حجة نقلها من مكانها.. ربما زعم أنه والدها وأنه سيأخذها إلى دورة المياة، وهناك ما كان عليه سوى أن يكرر ما مارسه من قبل عشرات المرات.. ولونظرتم إلى الصورة في الأسفل ستلاحظون أن الدماء.."

بالطبع سيضعون صورتها وستراها كل صديقاتها في المدرسة.. ربما سخرن منها كذلك.. ربما قالوا أنها كانت تستحق..

إنها تكرههم جميعًا!!

على أية حالة بعد أن يقتلها سيغادر القطار بكل هدوء دون أن يعرف أحد أنه هونازع الأحشاء الشهير، وربما مر بمدرستها ذات يوم.. صحيح أنها لن تكون موجودة لتشهد المذبحة، لكن الفكرة في حد ذاتها سوف..

- لم لا؟.. سوف أتركك..

قالها فجأة ففغرت فمها بذهول..

- تبدين فتاة لطيفة ولست أشعر أنه يجب عليّ أن أقتلك.. فقط عليك أن تعديني أنك ستعودين إلة مقعدك وستنامين حتى تنتهي هذه

الرحلة.. ستنامين ولن تستيقظين مهما كان السبب.. موافقة؟

فانفجرت (ميشكا) لترد بحماس:

- بالطبع.. سأنام ولن أستيقظ حتى لوانقلب بنا القطار وسأنسى أنني رأيتك وسأتوقف عن السهر متأخرًا و..

- كفى.. كفى.. فقط تذكري.. ربما تركتك أنت وقتلت والديك.. سيدفعان ثمن حماقتك، وستعيشين يتيمة دون أن تجدي من يرعاك.. من يحميك مني.. وحينها.. وحين تخلدين إلى فراشك في أحد الليالي، قد تشعرين بنصلي البارد على عنقك، قبل أن أرسلك في زيارة سريعة إلى والديك في الجحيم..

والآن يمكننا أن نقول أن (ميشكا) ستفقد عقلها في أية لحظة.. الواقع أنه لوقتلها لكان أهون عليها من أن تقضي ما بقي لها من عمر، تستيقظ كل ليلة على هذا الكابوس..

لكنه أشار له بيده الحرة:

- هيا.. انصرفي..

فسالت الدموع من عينيها غير مصدقة، ولم تتحرك..

- هيا قبل أن أغير رأيي..

فوقفت بصعوبة.. ترنحت للحظة.. ثم تراجعت بظهرها إلى مقعدها، لتتكوّر فيه على نفسها ولتنخرط في بكاء صامت مرير..

لقد نجت.. نجت.. نجت.. نجت..

لكنها ستموت لولم تدخل دورة المياه الآن!

ولوفعلت سيقتل نازع الأحشاء والديها، ولوبللت نفسها ستقتلها أمها!

فقط تتمنى الآن لومرت هذه الرحلة في سلام.. حينها ستذهب

إلى مقر صحيفة (مسرح الجريمة)، وستنتزع أحشاء (ليوباروفسكي) بنفسها، قبل أن تشعل النيران في كل شيء.. فقط لوتماسكت دون دورة مياه حتى تنتهي الرحلة..

فقط.. لو.. تمكن...

يقول (ليوباروفسكي) في عقلها:

"ولم تدر (ميشكا) كيف غابت في النوم.. ربما هوالإهتزاز الثابت، ربما لأن خوفها استهلكها عاطفيًا.. المهم أنها نامت.. وأنها حين استيقظت كانت مفاجأة تنتظرها.. مفاجأة قاسية حقًا.."

والمفاجأة كانت أنها فتحت عينيها لتراه أمامها مباشرة!

معتدل القامة وعلى درجة من البدانة.. ذوشعر خفيف في مقدمة رأسه يشي بأنه في طريقه للصلع، وكان يرتدي منظارًا طبيًا ذواطار ذهبي وهناك ندبة خفيفة في ذقنه.. وكان يضحك مع والدها في استمتاع حقيقي، بينما أمها تتابع حديثهما بابتسامة وقورة، ولم تكد الأم تلاحظ الذعر الذي تبدى في عيني ميشكا كأوضح ما يكون، حتى قالت:

- ها قد استيقظت.. لن تصدقي من انضم إلينا أثناء نومك..

نازع الأحشاء الشهير.. نعم إنها تعرفه!!

لكن أمها قالت بابتسامة تتسع:

- الدكتور (بوريس).. إنه يعمل في صحيفتك المفضلة تلك التي اسمها.. اسمها..

مستحيل!

- ألم أقل لك أنها مفاجأة؟.. إنها لا تكف عن قراءة صحيفتكم أيها الدكتور.. على الرغم من اعتراضي أن تقرأها وهي لا زالت في السابعة..

لكن..

لكن الصوت الذي سيطارد كوابيس (ميشكا) إلى الأبد، قاطع أمها:

- الأطفال لم يعودا كما كانوا في الماضي.. إنهم الآن يعرفون الكثير والكثير..

ثم إنه مال على (ميشكا) المرتجفة، ليردف:

- أكثر مما ينبغي لهم أن يعرفونه بكثير..

وهوفي هذا محق... فهي تعرف أنه ليس الدكتور (بوريس).. تعرف أنه أشهر في سفاح في روسيا على الإطلاق.. وتعرف أنه ما دام قد قرر التعرف على والديها فلن تنتهي هذه المعرفة بصداقة أوبزيارات عائلية في المستقبل..

بل ستنتهي بكارثة..

- (ميشكا).. هل لك أن تذهبي إلى عربة الطعام لتحضري لي زجاجة مياه؟.. لقد فرغت زجاجتي..

قالتها الأم فجأة فسادت لحظة من الصمت المباغت، تبادلت فيها (ميشكا) نظرة ذات مغزى مع الضيف الرهيب..

نظرة تساءلت فيها (ميشكا).. هل لي أن أغادر مكاني؟ فأجابها بنظرة.. نعم، لكن تذكري أن والديك تحت رحمتي.. فاكتفت (ميشكا) بهذا الرد وجرت قدميها مبتعدة عن الجميع..

الآن تعود الشجاعة في أعماقها كالعنقاء إذ تبرز من الرماد...

الآن تتصاعد في رأسها أفكار، لم يكن عقلها ليجرؤ على طرحها منذ لحظات من معدودة..

الآن تصل (ميشكا) في أعماقها إلى حقيقة واضحة وصريحة..

يجب أن أتخلص من السفاح.. يجب..

لكن.. كيف؟!

إن كل عربة في القطار فيها رجل أمن يجلس في قسم مغلق في تحسبًا للطوارئ.. رجل أمن مسلح بمسدس تكفي رصاصة واحدة منه لوضع حد للجرائم التي روعت روسيا.. رجل أمن سيبتسم جوارها حين تحتل صورتهما الصفحة الأولى من صحيفة (مسرح الجريمة)، وأعلى الصورة سيكتب بأكبر خط ممكن:

(الفتاة البطلة التي وضعت نهاية نازع الأحشاء الشهير)..

ما بينهما وبين هذا المجد بضعة خطوات، بعدها تطرق على باب رجل أم القطار وبعدها ستحكي له الكثير والكثير، ثم ستخطط معه كيف سيتخلصان من السفاح دون أن تعرض والديها للخطر..

لن يكون هذا سهلاً، لكن من قال أن حياتهما ليست معرضة للخطر الآن..

هكذا حثت الخطى حتى بلغت قسم رجل أمن هذه العربة، وطرقت على بابه، ثم فتحته دون أن تنتظر ردًا، وهي تستعد للإدلاء بأقوالها و.. و..

ورأت عيناها ما في الداخل، لكن عقلها أخذ يستوعبه ببطء شديد.. أولاً هناك ذلك القسم.. ثم الدماء التي تغطي كل شيء.. نعم.. ثم الجسد الذي يتدلى من ساقيه ليتأرجح بانتظام وقد تدلت أحشاءه خارجه.. عظيم.. أحشاءه التي عقدها أحدهم بحيث..

- كنت أعرف أنك ستخلفين وعدك، لذا احتطت جيدًا..

دوى الصوت من خلفها فجأة، فانتفضت في ذعر هائل، وقبل أن

تلتفت، كانت يد قاسية تحيط بفمها، وباليد الأخرى انغرس المعدن الخشن في جانب عنقها..

- لقد خالفت وعدك يا عزيزتي.. والآن يأتي دورك..

• • •

- لقد خالفت وعدك يا عزيزتي.. والآن يأتي دورك..

يقولها فتشعر (ميشكا) بدفء سيتجمد في ملابسها بعد لحظات..

تذكروا (ميشكا) في السابعة من عمرها، وحتى لوكانت في الثلاثين، فمن الذي يملك التحكم في مثانته ونازع الأحشاء الشهير يضغط بنصله الصديء على عنقه؟

- اتفقنا على أنك لن تتحدثي.. لكنك خالفت وعدك.. لكنك ظننت أنني أحمق لن أحتاط لما تنوينه..

قالها لتكتشف (ميشكا) أن لسانها مات في حلقها..

أرادت أن تعتذر.. أن تكذب.. أن تتوسل أن تصرخ، لكن لسانها رقد على فكها السفلي دون حراك..

- لم أرد أن أقتلك.. صدقيني.. أتعرفين لماذا؟.. لأنك أول شخص أتحدث إليه منذ سنوات طويلة.. لم أرد لكنك لم تتركي لي الخيار..

ثم رفع يده بالنصل للحظة فارق فيها عنقها، فأغمضت عينيها في قوة منتظرة أن يخترقه هذه المرة، لكنه لم يفعل..

بل اخترق جانبها الأيمن!

اخترق جانبها في لحظة ثم خرج فلم تشعر بهذا الألم الهائل الرهيب الذي توقعته وانتظرته.. على العكس تمامًا.. شعرت وكأنما وخزها أحدهم ليسبب لها ألمًا طفيفًا، وهذا هوكل شيء.. وللحظة

انقبضت عضلات بطنها قبل أن ترتخي لتسمح بالدماء بأن تسيل من جرحها..

- صغيرتي.. لقد أصبت كبدك.. هذا النوع من الإصابات سيمنحك عشرين دقيقة ستنزفين فيهم حتى الموت لوضغطت على الجرح وعشر دقائق لوتركتيه..

المزيد من الدفء الذي سيتجمد عليها لاحقًا.. لكنه هذه المرة دمها الذي يسيل، دون أن تجرؤ حتى على النظر إليه..

وببطء سحب الرجل أصابعه من على فمها، فتهاوت على الأرض دون أن تنطق بحرف، وقد عجز جهازها العصبي عن احتمال فكرة الوقوف.. فقط أخذت تنظر له وهوينظف نصله بمنديل صغير، قبل أن يدسهما في جيب معطفه، وأسف حقيقي باد على وجهه..

رباه.. الجرح لم يتوقف عن النزف.. ثم إن دمائها داكنة بصورة لم تتخيلها..

- والآن أمامك عشرون دقيقة لتفكري في خطئك.. سأغلق الباب عليك، لكن إياك أن تحاولي الخروج.. لوفعلت سيلحق بك والديك.. تذكري هذا جيدًا قبل أن تقدمي على حماقة جديدة..

وهزّ رأسه في أسف مرة أخرى، قبل أن يخرج من الغرفة ليغلقها عليها، وعلى جثة حارس الأمن التي تدلت أحشاءه جوارها..

وجوارها على الأرض بدأت بركة دماء صغيرة تتكون، ثم بدأت تتسع من حولها ببطء شديد..

في البركة رأت وجه أمها تتساءل في غضب عن سر تأخرها، ثم رأت وجه أبيها يبتسم لها في حنان.. لن تراهما بعد.. شيء من الصعب

أن تدركه الآن لكنه يحدث..

لوحاولت أن تراهما سيلحقان بهما.. الجرح . لا يؤلم لكنه مستمر في النزف بطريقة عجيبة..

أي طفل يتجاوز الخامسة يعرف أنه سيجرح طيلة الوقت، لكنه يعرف كذلك أن الجرح لا يستغرق سوى ثوان معدودة ليتوقف عن النزف بعدها، أمّا هذه المرة...

أمّا هذه المرة ستعرف (ميشكا) أن بعض الجروح تنزف أكثر.. بعضها يقتل بعد عشرين دقيقة..

عشرون دقيقة وستهلك ثم سيصل القطار ثم سيبحث الكل عنها ليجدوا جثتها أسفل جثة حارس الأمن.. ستفقد أمها الوعي حين ترى المشهد، لكن أبيها سيصرخ وسيحاول احتاضنها مرة أخيرة، ليمنعه الكل من دخول الغرفة أصلاً.. البصمات يا سيدي.. لوكنت تريد أن نعثر على قاتل انتك فلا تفسد البصمات..

ثم إنهم لن يضيعوا وقتًا في تخمين هوية القاتل.. أحشاء رجل الأمن فوقها ستمنحهم الجواب..

هكذا ستحتل صورتهما الصفحة الأولى في صحيفة (مسرح الجريمة) وسيكتب (ليو باروفسكي):

"ولابد أن رجل الأمن الشجاع حاول أن ينقذها ليدفع حياته ثمنًا لبطولته.."

لكنه لم ينقذها.. الأحمق سمح لنازع الأحشاء أن يعبث بأحشاءه، لتموت هي من بعده..

الأحمق الغبي!

الآن تصل بركة دماءها إلى بركة دماء حارس الأمن لتشعر بالتقزز..
مجرد فكرة أن تمتزج دماءك بدماء شخص آخر كافية لتصيبها بالتقزز..
ثم كيف تخرج منها كل هذه الدماء؟!

دماء قانية داكنة سيتحول لونها إلى الأسود في الصورة التي ستنشرها (مسرح الجريمة) وربما وضعوا مستطيلاً أسودًا على وجهها، فلا أحد سيحب أن يرى جثة طفلة في السابعة وهذا أسوأ ما في الأمر..

أنها في السابعة!.. السابعة!!

متوسط عمر الإنسان الطبيعي من خمسين إلى ثمانين سنة لم تحظ هي منهم سوى بسبع سنوات، وكل هذا لأن نسختها من (مسرح الجريمة) الجريمة احتوت على بعض الأخطاء المطبعية..

هكذا بحثت عن نسخة أخرى.. هكذا عثرت على قاتلها.. هكذا سينتهي عمرها بعد بضع دقائق..

ترى؟.. كم مرّ من العشرون دقيقة حتى الآن؟

دماؤها تتجمد على أرضية القطار المعدنية وعلى الرغم من البرودة الشديدة، إلا أن قطرات العرق أخذت تتفصد من جبينها لتسيل عليه ببطء مستفز.. لقد بدأت تشعر بالضعف..

والآن ضع نفسك مكانها.. لوتبقت أمامك في هذه الحياة عشرون دقيقة، فما الذي ستفعله؟؟

ما هوآخر شيء ستفكر فيه؟؟

والآن أمامك عشرون دقيقة لتفكري في خطأك.. سأغلق الباب عليك، لكن إياك أن تحاولي الخروج..

لكنها لن تفعل.. ما دام الحقير اللعين قتلها فلن تضيع آخر

دقائقها في الندم..

والآن.. والديها؟.. لا.. هي تعرف أن أمها ستجن وأبيها سينتحر حزنًا عليها.. صديقاتها؟.. لا أحد منهن تستحق دقيقة من الدقائق الأخيرة.. (ليوباروفسكي)؟؟.. فقط لورأته الآن..

ستسغل كل ثانية تبقت لها في تمزيق أحشاءه!

الدماء التي تنزفها بدأت تقل، فهل يعني هذا أن مخزونها من الدماء قد نفذ؟

حاولت التحرك فمزق الألم جانبها وعادت الدماء تنزف بغزارة.. مرحى.. هناك المزيد من الدماء بعد!

ترى.. كم دقيقة يمنحها لك لتر من دمائك؟

ثم.. لماذا ينتشر الظلام من حولها؟.. نعم.. لأنه لا يأتي من الخارج بل من الداخل.. إجابة صحيحة تربح عليها اشتراك مجاني في صحيفة (مسرح الجريمة) لمدة ثلاثة أشهر، ولكن..

إياك إياك أن تتذمر لوحصلت على نسخة ذات عيوب طباعة..

والآن كفى.. كفى..

إنها تضيع دقائقها الأخيرة في الهلوسة بدلاً من أن تركز.. لا وقت لرفاهية الشرود.. ثم إنها..

ياإلهي!!.. لقد نست أن تضغط على الجرح!!!!

عشرون دقيقة لوضغطت.. عشر لولم تضغط.. فكم يتبق لها الآن؟

هكذا تمد كفها لتضغط على الجرح لتكتشف أنها فقدت قدرتها على التألم.. مشكلة جسدها الآن ليس الجرح النافذ الذي اخترق كبدها.. مشكلته أنه لم يعد يحتوي على دماء..

لذا ضغطت على الجرح بكل قوتها، وهذا يعني بعض الثواني

الإضافية.. وكل ما تفعله الآن سيكتب عنه الدكتور (بوريس) آلاف الصفحات حين يعثرون على جثتها..

ربما كتب كتابًا وأسماه (من أجل ميشكا) وسيحمل صورتها وهي ترتدي ذلك الزي المضحك في عيد ميلادها الخامس.. تلك الصورة التي تمقتها والتي ستمنحها أمها للدكتور (بوريس) قبل أن تجن وينتحر أبوها..

سيحقق هذا الكتاب أعلى المبيعات، وسيستضيفون الدكتور (بوريس) في برنامج (صباح الخير موسكو) ليتحدث عنه طويلاً وعن الرغبة في البقاء وعن الطفلة المسكينة التي انضمت إلى قائمة ضحايا نازع الأحشاء الشهير الذي لا يزال طليقًا و..

طليقًا؟؟

بالطبع سيظل طليقًا.. يمكنها أن تقضي عليه الآن لكن والداها هما من سيدفعان الثمن.. لكن..

أبوها سينتحر وأمها ستجن على أية حال، لذا لماذا لا تفعلها؟؟

إنها لا تتخيل أن يتجاوزا صدمة قتلها بهذه الصورة، لذا فما الضرر أن ينضما إليها في العالم الآخر الآن بدلاً من أن تنتظر؟

كل ما عليها الآن هو أن تقوم.. تسير بضع خطوات وهي تضغط على الجرح.. تشير على قاتلها بإصبعها، ثم ستسقط أرضًا لينتهي كل شيء..

تلك البطولة لن تحتاج منها سوى أن تتحرك من مكانها وهو الشيء الذي اكتشفت الآن أنه مستحيل تمامًا..

لم تعد (ميشكا) قادرة على الحركة مع كل ما فقدته من دماء.. لم تعد قادرة سوى على التخيل..

الدماء التي تنسال من بين أصابعها أشبه بالعد التنازلي.. والظلام

ينتشر من حولها أكثر وأكثر..

9 ثوان..

8 ثوان..

لقد نست أنها كانت تريد دخول الحمام!

7 ثوان..

6 ثوان..

آه.. لقد بللت ملابسها.. مشكلتها أن تشر كثيرًا و..

5 ثوان..

4 ثوان..

الظلام يزداد حتى مع محاولتها أن تفتح عينيها بأقصى اتساع..
تلك النظرة التي ستجمد على وجهها والتي سيفسرها الكل بالفزع..

3 ثوان..

ثانيتين..

أمي.. أحبك..

ثانية..

• • •

حين عاد النور ثانية كانت ترقد في مستسفى ما، وكانت أمها تبكي جوارها بينما يحاول أبيها أن يشرح:

- الدكتور (بوريس).. لولم ينقذك لما عرفنا.. هومن تبرع لك بالدماء..

-!!!

لكنه ليس الدكتور (بوريس)!.. إنـ هو.. نازع الأحشاء الشهير!

قاتلها هومنقذها؟؟

هومن منحها دماءه التي ستمنحها من الساعات ما يكفيها لتبلغ الثمانين من العمر؟

ويقول الطبيب وهويقيس حراراتها بينما هي لا تزال عاجزة عن الرد:

- لقد رحل منذ قليل لكنه طلب مني أن أبلغك رسالة.. أراد أن يخبرك أنه لم يتحدث مع أي شخص منذ زمن طويل وأنه لن يفعل.. أنه كان يشعر بالوحدة، لكن الآن.. أصبح لديكما ما تتذكرانه.. تلك الذكرى ستربط بينكما إلى الأبد..

يقولها الطبيب ثم يردف:

- رسالة غريبة حقًا.. لكنه قال أنك ستفهمينه..

فلا ترد (ميشكا)..

فقط تسيل الدموع من عينيها فلا تعرف إن كانت دموع امتنان أم خوف..

• • •



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

D.O.D

اليوم نكون قد أتممنا خمس أشهر في الفضاء، لكني لم أفتقد الأرض أبدًا..

لم أشعر بأي حنين لليابسة ولا للوطن ولا للبحر ولا للجاذبية.. لم أشعر بما يشعر به رفاقي هنا.. لم أشعر بالوحدة!

يقول رفاقي هنا أنني بائس.. من لا يوجد لديه يشتاق إليه هوشخص بائس ووحيد، لكنني أرد عليهم برد واحد منطقي..

أرض تحولت إلى حطام مشع وسماء تغطيها السحب السوداء وبحار ملوثة بمزيج نادر من مخلفات الأسلحة ودماء الجنود، هي أشياء لا تستحق أن أشتاق إليها أوأن أفتقدها.. على العكس تمامًا.. إنني محظوظ لأنني على بعد ملايين الأميال من هذا كله..

صحيح أنني لم أكن قد ولدت بعد أيام الحرب الأخيرة، إلا أنني رأيت كل ما حدث على مجموعة اسطوانات مدمجة يحتفظ بها أبي كتذكار.. مزية التكنولوجيا الحديثة أنك تستطيع الإحتفاظ بسنوات من الحرب والموت والدماء والأهوال، على خمس اسطوانات فحسب، وبسعر خاص بمناسبة ذكري الحرب الأخيرة..

كان أبي ممن عايشوا الحرب، ولم يستطيعوا أبدًا تجاوز ما رأوه.. حالة أسماها العلماء باسم (متلازمة ما بعد الحرب)، وهي تتلخص في التالي.. هلاوس سمعية وبصرية.. اكتئاب حاد.. انفصال عن الواقع.. كوابيس أدت إلى أرق مزمن، وأخيرًا الرغبة في الإنتحار..

لكن أبي لم ينتحر..

حتى بعد وفاة أمي بسرطان الكبد – نتيجة طبيعية للمياه المشعة – لم ينتحر أبي، بل تحول إلى تمثال خزفي لا يفعل شيئًا سوى مشاهدة الحرب الأخيرة على الإسطوانات المدمجة، ذات السعر الخاص ولفترة محدودة..

هكذا قضيت طفولتي.. يتيمًا معزولاً يقضي أيامه في رؤية أهوال حرب لاذنب له فيها ، وبصورة في غاية النقاء مع نظام صوت ثلاثي الأبعاد وكل هذا بسعر - اللعنة على هذه الإسطوانات! - خاص..

بعد هذا تطالبونني بالحنين إلى الأرض.. إنني أعرف أنني سأصبح رائد فضاء منذ أن كنت في العاشرة.. فهذه هي المهنة الوحيدة التي ستمنحني ما أبغيه حقًا..

الابتعاد إلى أقصى حد ممكن..

رفاقي الحمقى هنا قضوا حياتهم مثلي في مستعمرات صحية معزولة عن الإشعاع، يديرها مجلس حكم واحد - لم يعد هناك عدة دول وبالتالي عدة رؤساء - وهذا المجلس أدرك أن من نجوا من الحرب الأخيرة، يتضاعف عددهم بإطراد لن تستوعبه تلك المستعمرات الصحية، وأن الأمل الأخير أصبح هناك.. في الفضاء..

هكذا بدأت رحلات البحث عن أرض بديلة، وهكذا وجدتني على تلك المركبة الفضائية لخمسة أشهر كاملة، نجوب الفضاء البارد، تحيط بنا ملايين النجوم، كأنها أعين تحدق فينا بسخرية..

نعم.. المفترض في النهاية أن نعثر على كوكب بديل، لنتكاثر فيه كالجراثيم قبل أن ندمره في حرب خرقاء لنبدأ رحلة البحث من جديد..

دعك من أن هؤلاء العباقرة لم يروا الصورة الكاملة بعد.. بفرض أننا وجدنا كوكب بديل، فكيف سننقل كل من تبقى حيًا على سطح الأرض إلى هذا الكوكب؟.. أم أنها ستكون أجمل مسابقة في تاريخ الأرض؟

اتصل برقم (...) لتكسب فرصة الحياة على كوكب بديل .. العدد محدود!

الآن حين أتذكر المذابح التي قامت بين الناجين من الحرب، من أجل الحصول على مكان في المستعمرات الصحية، أتخيل ما سيحدث لوكان الصراع هذه المرة على مقعدك في المركبة الفضائية التي ستخلصك من هذا الكوكب نهائيًا، وتذكر.. العدد محدود..

تدخل (إيفيتا) معملي وتتجه إلى النافذة، لتحدق شاردة في بريق النجوم من حولنا.. (إيفيتا) هي عالمة الفلك على هذه المركبة، وهي فرنسية وإن كانت هذه المعلومة لا تهم..

فلم تعد هناك فرنسا!

أتظاهر أنا أنني أقرأ في كتاب ما، لكنها تبدأ الحديث قائلة بملل:

- أتعرف ما هواليوم؟

يباغتني سؤالها، لأكتشف حقيقة أنني فقدت إحساسي بالزمن على هذه المركبة..

ولأنها لا تنتظر إجابة، واصلت:

- أمامنا شهر تقريبًا قبل أن نبدأ رحلة العودة..

- سأفتقدكم قريبًا إذن..

- الرفاق عثروا على تابوت في الفضاء..

- ماذا؟!

صحيح أننا فقدنا اهتمامنا بكل شيء هنا، لكن.. تابوت في الفضاء!

لقد رآه (يوري) مصادفة.. لقد قرر أن نتوقف لإنتشاله..

عجزت عن الرد من فرط دهشتي، ثم قررت أنه من الأفضل أن أذهب لـ (يوري) لأفهم منه، فـ (إيفيتا) لا تهوى الشرح مهما كانت طبيعة الموقف.. لواتجهنا للشمس ستنقل هي الخبر ببرود (يبدوأننا سنهلك)!

في كابينة القيادة وجدت (يوري) – وهوقائد المركبة.. روسي سابق – مع (آرثر) – مساعد القائد.. بريطاني سابق - يتناقشان في حماس عن اكتشافهما العجيب..

- لابد أن الجثة في داخله كما هي.. برودة الفضاء ستحفظها من التلف..

- هذا إن لم يكن التابوت خاويًا..

- لوكان خاويًا سأضعك أنت فيه وأعيده للفضاء.. لن أتجشم كل هذا العناء من أجل لا شيء..

- لن أقاومك.. على الأقل سأخرج من هنا!

قاطعتهما أنا قائلاً:

- هل لي بمن يحكي لي عمّا حدث؟

أشاح (يوري) بوجهه ليتتبع كنزه السابح في الفضاء على شاشة كمبيوتر المركبة، بينمت تطوع (آرثر) بالشرح:

- لقد عثرنا على تابوت يسبح في الفضاء بالقرب منا.. تابوت معدني حديث من تلك النوعية التي كانوا يصنعونها قبل الحرب الأخيرة، قبل أن تبدأ عادة حرق الجثث..

- عظيم.. ولماذا نضيع وقتنا في انتشاله؟

- تابوت ملقى به في الفضاء.. ألا يستحق هذا أن نعرف من فيه؟

أعترف أن الأمر يثير الفضول، لكن لسنا واثقين من خطورته..

هنا ضحك (آرثر) عابثًا، وأجاب:

- وما الذي سنخشاه؟.. التابوت يحوي جثة، ولا أعتقد أن شبح صاحب الجثة سيغضب ويطاردنا..

لكنني قلت:

- مازلت لا أرى ضرورة لهذا..

تدخل (يوري) ليقول بغلظة:

- إنه قراري أيها المصري..

قالها فلم أجبه..

بالمناسبة أنا و(يوري) نتبادل كرهًا عميقًا لا حد له، منذ أن تناقشنا قبل يومين عن دور روسيا في الحرب الأخيرة..

أنا اتهمت حكومته بالغباء وهواتهمنا بالتخاذل، لكن هذا لم يغير من حقيقة أن حكومتينا أصبحا رمادًا مشعًا في مكان ما على الأرض المهجورة.. صحيح أن جدلنا كان بلا طائل منذ البداية إلا المواضيع التي قد تجدها في هذا السجن الفضائي، محدودة نوعًا ما..

هكذا هززت كتفي بمعنى (إلى الجحيم لوأردتم) ثم غادرت القاعة لأعود إلى غرفتي..

(يوري).. (آرثر).. (ايفيتا)... وأنا..

ها أنت قد تعرفت على طاقم السفينة البائس.. الآن تبقى لك أن تعرف ما سيحدث لنا..

• • •

الساعة الآن (3612) ، وهي طريقتنا في تحديد الوقت على المركبة الفضائية.. هذا الرقم يعني أنه مرّ علينا 3612 ساعة منذ أن تركنا الأرض، وهذا الرقم هوالساعة التي أدخلنا فيها التابوت إلى مركبتنا ليصبح عددنا خمسة..

(يوري) هومن خرج لإنتشاله، بينما بقى (آرثر) في الداخل ليحل محله، وليساعده قدر الإمكان، واستغرقت هذه العملية منهما ما يقارب الثلاث ساعات، لكن في النهاية كان (يوري) قد عاد ومعه غنيمته..

(إيفيتا) لم تهتم كما توقعت، أمّا (آرثر) و(يوري) فبديا كطفلين صغيرين عثرا على دمية جديدة، بينما جثم التابوت المعدني أمامها بطوله الذي تجاوز المترين، وبرتاجه الإليكتروني ذوالشفرة، التي هرش لها (يوري) رأسه قائلاً لـ (آرثر):

- شفرة لفتح التابوت؟.. عجبًا..

- لم أر هذا الطراز من التوابيت من قبل..

- أتعرف كيف تحل هذه الشفرة؟

- لا.. لكن العربي يعرف..

قالها مشيرًا إليّ ليفاجأ (يوري) بهذا الموقف، بينما ابتسمت أنا بتشف لأقول:

- كنت أوّد مساعدتكما.. لكنني لن أفعل..

حل الشفرات – أيًا ما كان نوعها – هواية لي منذ أن كنت صغيرًا أحاول ابتكار أي شيء ينسيني حكايات الحرب الأخيرة التي كان يحكيها لي أبي.. والآن هذه الهواية سترد لي كرامتي..

- لا.. العربي لن يمس التابوت..

قالها (يوري) بحسم غاضب، ثم أضاف:

- أنا سأفتحه بأي طريقة.. سأنسفه أوأعيده للفضاء، لكنني لن أطلب من العربي شيئًا..

أجبته ببرود:

- وأنا لا أنوي أن أساعدك حتى لو هددت بالإنتحار..

ثم جلست في ركن القاعة لأتابع ما سيحدث و(آرثر) ينظر لي في لوم.. أشرت له بما معناه (سأفكر في الموضوع لواعتذر)، فهزّ هورأسه بما معناه (لا أمل في هذا)...

هكذا أخذت أتابع محاولات (يوري) لفتح التابوت بابتسامة وقحة، قبل أن أنتبه إلى (إيفيتا) التي وقفت عند باب القاعة الرئيسية، وهي ترمق التابوت المعدني بمزيج عجيب من الكراهية والخوف..

حين شعرت بي، أدرات رأسها تجاهي لتقول بفتور:

- يجب أن تتخلصوا من هذا التابوت..

ودون شرح ابتعدت في الممرات لتغيب فيها.. لكني كنت قد بدأت أشعر بما تشعر هي به..

يجب أن نتخلص من هذا التابوت..

لا أعرف لماذا، لكنني واثق أنه القرار الصائب وان عجزت عن تنفيذه.. شيء ما داخل هذا التابوت غير طبيعي.. شيء شرير..

شيء ينتظر أن يخرج!

أنا واثق من هذا..

• • •

في الساعة 3613 كنت قد بدأت أغيب في النوم في غرفتي، حين طرق (آرثر) الباب فجأة، ليوقظني قائلاً بتوتر:

- يجب أن تساعدنا على فتح التابوت..

احتجت للحظات لأستوعب الموقف، قبل أن أجيب بحزم:

- هذا لن يكون إلا بشرطي و..

- لاوقت لهذا العبث.. لقد تغير الموقف تمامًا..

- كيف؟

- كمبيوتر المركبة التقط نبضات قلب.. نبضات قلب قادمة من داخل التابوت..

-!!!

• • •

حين بلغت القاعة هذه المرة كان (يوري) يجلس جوار التابوت المشئوم كطفل حائر، ولم يكد يراني حتى بادر بالشرح دون أن أسأل حتى:

- يوجد شخص ما حي داخل هذا التابوت.. كمبيوتر السفينة التقط صوت ضربات قلبه.. معدلها بطيء مما يوحي أنه في حالة سبات.. لكني حي.. حي..

- هل حاولت فتحه بطرق عنيفة؟

- بكل الطرق، لكنه لم يستجب لي إطلاقًا..

ثم منحني نظرة (أرجوك افعلها) فاكتفيت بها.. أمّا (آرثر) فتساءل في قلق:

- أواثق من قدرتك على فتحه؟

- إنها هوايتي.. المرء لا ينجح إلا في هواياته..

ثم أشرت لهما بالصمت وبدأت في فحص التابوت..

أمامي رقد التابوت في استرخاء بطوله الذي يبلغ المترين، ووزنه الذي يتجاوز الخمسمائة كيلوجرام، وقد حمل على سطحه نقشًا واضحًا لثلاثة أحرف..

(D.O.D)..

أشرت للنقش مستغرباً، فهزّ (آرثر) كتفيه مجيباً:

- لا أعرف.. فقط أرجوألا يكون اختصار (خطر الموت Danger Of Death)..

لكن (يوري) صاح بعصبية:

- خطر الموت من جسد شخص نائم في التابوت؟

- وهل يبدولك الأمر طبيعيًا؟!.. أتظن أن أحدهم وضع شخصًا حيًا في هذا التابوت وأطلقه في الفضاء دون سبب؟.. ألا يمكن أن يكون مصابًا بمرض ما قابل للعدوى؟

لكن (يوري) أجاب:

- لوكان الأمر كذلك لكان من الأسهل قتله وحرق جثته وهولا يزال على الأرض.. ربما هوهارب.. نعم.. هارب من الحرب الأخيرة..

قلت أنا مفكرًا:

- أتعني أنه ألقى بنفسه في تابوت في الفضاء، على أمل أن تمر مركبة فضائية لإنتشاله؟.. يبدولي احتمالاً أبعد من أن يكون منطقيًا..

- ألديك تفسير أفضل أيها العبقري؟

- لا.. لكن السؤال الآن، هل يستحق إرواء فضولنا المخاطرة بفتح هذا التابوت على الرغم من إحتمالية أنه يحوي خطرًا ما..

قلتها فتبادلنا النظرات وإن كنا نعرف الإجابة مسبقًا... بعد أن تقضي 3613 ساعة في هذا السجن ستجد أن أي مخاطرة هي ثمن بخس للقضاء على الوقت ها هنا..

لوكان صندوق بندورا ذاته فلن نتردد في فتحه..

أشار لي (آرثر) أن أواصل، فبدأت في حل الشفرة بتركيز شديد.. شفرة رقمية هي من تسعة أرقام.. أي أن الإحتمالات لا نهائية..

لكنني تعلمت حل هذا النوع من الشفرات وأنا لازلت في العاشرة.. طبيب أبي النفسي هو الذي نصحني بهذه الهواية.. أخبرني أنها تستغرق وقتًا وتركيزًا، وأنها الحل الوحيد أمامي كيلا أفقد عقلي أمام اسطونات الحرب الأخيرة التي يجبرني أبي على رؤيتها مرارًا وتكرارًا..

أخبرني أنه طالما أحل الشفرات، سيحافظ عقلي على شفرته التي تمنعه من السقوط في هوة الجنون.. لذا فهذه الشفرة ذات الإحتمالات اللانهائية لا تشكل لي تحديًا على الإطلاق..

لكني أشعر الآن أنني أرتكب أكبر حماقة في حياتي على الإطلاق.. شعور لا تفسير له ولا منطق، لكنه يلتهم أعماقي بلا رحمة..

شعور يخبرني أنه لو فتحت هذا التابوت سوف..

ترررررريك!

دوى الصوت المعدني الوقح ليقطع حبل أفكاري وليعلن للجميع أن التابوت أصبح قادرًا على نشر الأهوال الكامنة في أعماقه..

نظرت إلى (يوري) فهز رأسه أن (افتحه.. لكن بحذر!)، فبدأت أرفع الغطاء المعدني ببطء متوقعًا الأسوأ، حتى أنني أغمضت عيني ولم أفتحهما حتى شهق (آرثر) ذاهلاً..

فالواقع أن ما كان ينتظرنا داخل التابوت، قد فاق كل توقعاتنا على الإطلاق..

• • •

كان شعرها أشقرًا.. كان رداءها أبيضًا.. وكان الضوء الأزرق الشاحب المنبعث من داخل التابوت، ينثني عند ابتسامة شفتيها التي ظلت معها حتى النهاية..

كانت يديها الصغيرتان معقودتين على صدرها كأنها تحلم، لكن تلك الإبرة التي انغرست في جانب عنقها أخبرتني أنه لا أحلام هناك.. إنها في حالة سبات صناعي، حيث لا نوم ولا أحلام ولا أمل في الإستيقاظ إلا لو قام أحدهم بإنعاشك..

كانت ترتدي حذاءً أبيضًا نظيفًا يشبه إلى حد ما أحذية راقصات الباليه، وكان طولها لا يتجاوز المتر إلا بسنتيمترات قليلة، وكانت بقع خضراء عجيبة تغطي ساقيها ومنبت عنقها وذراعها اليسرى.. بقع خضراء داكنة ذات حواف بيضاء قذرة وفي مركز كل بقعة كان هناك ثقب تنز منه سوائل صفراء لا أتمنى حتى أن أعرف ما هي.. وكان هناك جدار زجاجي عازل يغطيها ويحافظ على نقاء الهواء في المركبة..

وببطء قال (آرثر):

- يبدو أن توقعي كان صحيحًا.. هذه الفتاة مصابة بمرض ما.. مرض يترك آثارًا مقززة لو جاز لي القول..

لم أعترض على ما قاله، بل أردفت:

- لكن يبدو أننا سنحظى بتفسير على أية حال..

قلتها وأنا أشير إلى شاشة صغيرة في غطاء التابوت تراصت أسفلها مجموعة من الأزرار، فقال (يوري) بعصبية:

- أرنا ما عندك..

أخذت أعبث في الأزرار للحظات.. قبل أن تضيء الشاشة أخيرًا، لتظهر عليها سيدة في الثلاثينيات، غطت البقع الخضراء أكثر من ثلثي وجهها، لتبدو أشبه بالكائنات الفضائية، خاصة مع نحوفها المخيف، وعينها اليمنى التي تورمت لتبلغ خمس أضعاف حجم عينها اليسرى..

وجه جدير بكوابيسك لو أردت أن تحصل عليه!

وبمزيج من الفزع والتقزز، همس (يوري):

- رباه.. ما هذا المرض؟!

فأجابته السيدة في الشاشة:

- (فرانك).. كما ترى لم يعد أمامي الكثير من الوقت.. وأغلب الظن أنني سأكون قد هلكت حين تصلك هذه الرسالة.. للأسف ابنتنا (جولي) التقطت مني العدوى.. كلنا في محطة (B-89) الفضائية أصبنا بالعدوى وأغلبنا لقى مصيره المحتوم بالفعل.. لا أعرف شيئاً عن طبيعة هذا الفيروس سوى أنه يقتل بسرعة، لذا وضعت ابنتنا هنا في وضع التجميد على أمل أن يؤخر هذا من نشاط الفيروس حتى تصل إليك.. لم تكن هناك طريقة أخرى ولو حاولت إرسال ابنتنا بالطرق المعتادة، لما سمحوا لها بأن تبلغ الأرض أساسًا... (فرانك).. ساعدها.. حاول.. ولو لم تتمكن.. (عند هذه النقطة اقتربت من الكاميرا لتملأ عينها المتضخمة الشاشة أمامنا).. لو تتمكن من علاجها.. اقتلها.. لا تدعها تصل إلى هذه المرحلة.. لا أريدها أن تشعر بما أشعر به الآن.. (فرانك).. سامحني..

ثم تراجعت برأسها وهي تمسح دموعًا سالت من عينيها – دموع صفراء بالمناسبة! – وأظلمت الشاشة أخيرًا لنتمكن من التنفس مجددًا ، وكأننا كنا نخشى طيلة الوقت أن نلتقط العدوى منها..

- رباه.. ما هذا المرض؟!

بفزع مطلق هذه المرة كررها (يوري).. وبرعب لا يقل عنه أجاب (آرثر):

- فضاء لا حد له ولا نهاية، لكن حظنا التعس يلقينا لهذا التابوت..

وقلت أنا:

- إذن فأمها أرسلت بها من محطة الفضاء إلى أبيها في الأرض لينقذها، وهذا يفسر محركات الدفع المتصلة بالتابوت.. لكن يبدوأنه اصطدم بنيزك أوقفه وأبقاه معلقًا في الفضاء حتى مررنا جواره..

عند هذه اللحظة دخلت (إيفيتا) القاعة بوجهها الجامد والشرود الدائم الذي يطل من عينيها، لترى التابوت المفتوح ونظرة الخوف في عيوننا.. أعادت نظرها إلى التابوت، ثم قالت آخر شيء كنا على استعداد لسماعه:

- هذه الفتاة.. إنها تتحرك..

انتفض (يوري) وشهق (آرثر) واعتدلت أنا بحركة حادة لأواجه التابوت الذي رقدت فيه الفتاة وقد أخذت أناملها تتحرك ببطء ملحوظ..

" لذا وضعت ابنتنا هنا في وضع التجميد على أمل أن يؤخر هذا من نشاط الفيروس حتى تصل إليك.. "

هذا ما قالته الأم.. لكن الفتاة لم تكن في وضع التجميد حين فتحنا التابوت..

إنها الآن تحرك أناملها، قبل أن تبدأ في تحريك رأسها حركة عصبية مفهومة، فسرتها (إيفيتا) والقلق يشع من صوتها:

- إنها تختنق..

فصاح (يوري):

- تختنق.. كيف؟

أجبته:

- لا بد أن محاولاتك العنيفة لفتح التابوت أفسدت صمام الأكسجين..

حركة رأس الفتاة تزداد قوة وسرعة، وصدرها يتحرك بقوة كأنه يجاهد بحثًا عن هواء يمتلأ به..

وبانفعال حقيقي قالت (إيفيتا):

- إننا لن نتركها تختنق..

الغطاء الزجاجي العازل الذي يمنع وصول الفيرس إلينا، هوالذي يمنع الهواء الآن عن فتاتنا (جولي) والسؤال واضح.. لوحطمنا هذا الغطاء الزجاجي سننقذ الفتاة، لكننا سنصاب بالعدوى وستمتلأ أجسادنا بالبقع الخضراء التي تنز بسائل أصفر كريه، لنموت في النهاية، فهل نكسر الغطاء، أم لا؟؟؟

لوعرفت الإجابة اتصل على (××××0●00)!

- إننا لن نتركها تختنق.. الفتاة تموت..

تكررها (إيفيتا) بهلع هستيري، فنتبادل نحن النظرات، بينما الفتاة تستيقظ ببطء..

صدرها يتحرك بجنون.. رأسها يتقافز يمينًا ويسارًا.. وأنفاسها تتلاحق بصوت مسموع..

وبثورة مفاجئة قفزت (إيفيتا) إلى التابوت، لتهوي بقبضتيها على الغطاء الزجاجي صارخة:

- إننا لن نتركها تموووووووت..

لم يتأثر العازل الزجاجي، لكن (يوري) انقض على (إيفيتا) ليكبلها بذراعيه..

- إننا لن نتركها تمووووووووت..

كقطة شرسة قاومت (إيفيتا) لكن (يوري) كان قويًا بحق.. لقد حملها وتراجع بها بعيدًا عن التابوت، بينما أخذت هي تطوح ساقيها وهي تصرخ بهستريا..

- إننا لن نتركها تمووووووووت..

(D.O.D).. يوم اتخاذ القرار (Day Of Decision)..

لكن (يوري) كان قد اتخذ القرار بدلاً منا.. ستموت!

وفجأة فتحت الفتاة (جولي) عينيها وبدأت في الصراخ بوحشية وقد تحولت حركتها داخل التابوت إلى انتفاضات عنيفة كمرضى الصرع، لدرجة أن الإبرة المغروسة في عنقة تحطمت وإن ظل متصلًا بعنقها، لينثر الدماء على وجهها وعلى العازل الزجاجي ..

الفتاة الرقيقة (جولي) تحولت إلى كابوس مخيف يحمل لنا الموت – لوخرجت – وقد امتزجت صرخاتها الوحشية بصراخ (إيفيتا) الهستيري، لأفقد أنا أعصابي أخيرًا، ولأهجم على (يوري) محاولاً تخليص (إيفيتا) من بين ذراعيه، بينما تجمد (آرثر) في مكانه كتمثال..

وكما قلت آنفًا، كان (يوري) قويًا.. لقد اكتفى بتكبيل (إيفيتا) بذراعه اليسرى، بينما طوّح اليمنى إلى وجهي، لأشعر وكأنما أحد صدمات القدر تهوي على رأسي..

- إننا لن نتركها تمووووووووت..

تصرخ بها الحمقاء ثم تطوح ساقيها ليضرباني في صدري، قبل أن ينهي (يوري) ما بدأه بضربة أخرى في جبهتي مباشرة.. و.. و..

هذه المرة هويت على الأرض.. وكان آخر ما سمعته قبل أن تظلم

الدنيا من حولي، هو المزيج الرهيب لصراخ (إيفيتا) و(جوني).

• • •

حين استيقظت كان أول ما أدركته هو أنني لم أغب عن الوعي سوى لدقائق معدودة..

ثاني ما أدركته هو أن (آرثر) كان يجلس على الأرض جواري وعلى وجهه تعبير ذهول جامد وهو يدفن ركبتيه في صدره..

ثالث ما أدركته هو أنه لم يعد هناك صراخ!

ببطء اعتدلت لينفجر الألم في رأسي وصدري، لأجد أن التابوت لا يزال في مكانه وقد وقف أمامه (يوري) يلهث والمشاعر تتقلب على وجهه بسرعة الضوء.. وحين شعر بي قال:

- انتهى الأمر أيها العربي..

لم أصدق فتحاملت على نفسي ووقفت لأتجه بخطوات حذرة إلى التابوت.. وهذه المرة لن أتمكن من وصف ما رأيته..

سأدع هذا المشهد لخيالك.. أو لكوابيسك!

- أين.. (إيفيتا)؟

قلتها بحلق جاف، فأجاب (يوري):

- عادت إلى غرفتها..

- هل هي بخير؟

- الحمقاء كانت ستتسبب في قتلنا جميعًا..

لكني كررت:

- هل هي بخير؟؟

فهز هو رأسه بأن (نعم)، قبل أن يقول:

- سأعيد هذا التابوت إلى الفضاء.. لا أريد هذا الشيء على مركبتي..

تمامًا كطفل سأم من دميته.. الفارق هنا أن الدمية كانت (جولي).. وأنها الآن جثة ملطخة بالدماء والبقع الخضراء الداكنة..

نظرت إلى (آرثر) فوجدت الدموع في عينيه.. لكنه لم ينطق بحرف..

الساعة الآن 3614 وعددنا في هذه المركبة أصبح أربعة مرة أخرى..

• • •

حين دخلت غرفة (إيفيتا) لم يكن لدي شيء لأقوله.. لم يكن لدي مجرد دافع لرؤيتها سوى أنني شعرت أنه ينبغي عليَّ أن أراها..

كانت تجلس على فراشها تبكي بحرقة، فانتظرت جوارها صامتًا حتى جفت دموعها، ثم قلت:

- أنا آسف..

قلتها ثم شعرت بمدى سخافتها.. أي أسف هذا الذي سيعيد (جولي) للحياة؟

بالطبع لم تجبني بل عادت إلى جمودها الشهير، وإن أطلت المرارة من عينيها كأوضح ما يكون، فأخذت أبحث عن أي شيء لأقوله:

- لقد.. حاولت.. لكن.. ثم.. الفيروس كان..

هنا أدركت أنني أهذي وأنه من الأفضل لي أن أتركها، وهممت بذلك بالفعل، لكنها قالت فجأة:

- كانت لي ابنة في الماضي..

باغتني قولها فتجمدت في مكاني، لتواصل هي شاردة:

- كانت في الرابعة عشر حين تمكنت من مغادرة المستعمرة الصحية التي كنا نعيش فيها.. كانت تريد رؤية الأرض الحقيقية.. شيء ما كان يجذبها بعيدًا عن الهواء المعقم والممرات المعدنية التي كنا نعيش فيها.. بعيدًا عن القبة الزجاجية وعن ذكريات الناجين من الحرب وعن السجن الإختياري الذي ولدت فيه.. في أحد الليالي انتظرت حتى غبت أنا في النوم.. ورحلت..

صمتت لحظة، ثم واصلت:

- كانت تريد البحث عن الأزهار.. عن قطرات الندى.. عن رياح الصيف الدافئة.. لهذا تركتني وهربت من المستعمرة رغم أنني أخبرتها أن قانون المستعمرات ينص على أن من يغادرها، لا يسمح له بدوخلها مجددًا.. لكنها وبعد ستة أشهر حاولت العودة.. وهذه المرة استقبلها حرس المستعمرات ببنادقهم وبقانون منع العودة مهما كان السبب.. حاولت التسلل إلى الداخل، لكن الأمر انتهى بها ببضعة ثقوب في صدرها وبرسالة قصيرة أرسلت لي يخبرونني فيها أنني يمكنني أن ألقي عليها نظرة أخيرة لوأردت.. بالطبع ذهبت لأجد يدها تقبض على شيء ما.. هل تعرف ما هوهذا الشيء..

وعادت الدموع لتسيل على وجنتي (إيفيتا) وهي تردف:

- زهرة..

قالتها فشعرت بروحي تنتفض في جسدي..

الآن فهمت لماذا كانت تحاول (إيفيتا) إنقاذ الفتاة..

الآن فهمت كل شيء

لكني المرة لم أنطق بحرف..

• • •

في الساعة 3616 اقتحم (آرثر) غرفتي للمرة الثانية، لكنني لم أكن على استعداد لأي شيء مهما كان، إلا أن نظرة الفزع في عينيه والرعب الذي أطل من صوته أجبراني على الإصغاء له وهويقول:

- (يوري).. لن تصدق ما أصابه.. كارثة!!

• • •

دعني أشرح لكم حقيقة علمية بسيطة..

حين تكون على الأرض فالهواء الذي يحيط به له وزن وهذا الوزن يضغط على جسدك، والذي يمنع جسدك من الإنسحاق هوأن خلايا جسدك والسوائل فيه لها ضغط آخر يعمل في الإتجاه المضاد.. أي أن الضغط الجوي للداخل وضغط جسدك للخارج.. إذن.. ما الذي سيحدث لوتلاشى الضغط من حولك فجأة؟.. نعم.. أحسنت.. سيحدث لك ما حدث لـ (يوري) تمامًا!

ستنفجر!!

الآن يمكنك أن تقف معي أنا و(آرثر) لتتابع عبر نافذة المركبة الفضائية، تلك الخرقة الممزقة التي تسبح حولها الدماء والتي كانت في يوم من الأيام كان بشري كان روسيًا وكان اسمه (يوري)..

الآن يمكنك أن تصغي إلى (آرثر) إذ يقول:

- لقد كان في غرفة معادلة الضغط، في طريقه للتخلص من

التابوت.. حين تأخر حاولت الاتصال به عبر الشبكة الداخلية لم يرد.. وفجأة وجدته أمامي يسبح في الفضاء جوار المركبة..

عدت أنظر إلى الجثة الممزقة دون أن أشعر بذرة تعاطف واحدة..

- ربما كان حادثًا.. الغرفة فتحت قبل الآوان أوأنه لم..

قلتها ليقاطعني (آرثر) صارخًا:

- ألا ترى أمامك؟.. أين رأس (يوري)؟؟ أحدهم فصل رأسه عن جسده قبل أن يلقيه للفضاء..

-!!

• • •

مهلاً.. مهلاً..

حين جئت إلى هنا كان أقصى ما تخيلت حدوثه، هوأن الفيروس وجد طريقه إلينا بصورة ما، لأرىأنا تلك البقع الخضراء على جسد (يوري) كنوع من العدالة الشعرية، أما أن يقتله احدهم ويفصل رأسه عن جسده قبل أن يلقي به في الفضاء فهذا يعني أن هناك قاتل معنا في المركبة..

وهذا القاتل واحد منّا.. أو.. أوشخص كان في التابوت!

- أين ذهب التابوت؟

سألت فأجاب (آرثر):

- لا يزال في غرفة معادلة الضغط.. من قتل (يوري) لم يمنحه الفرصة ليخرجه..

- هل أبلغت (إيفيتا)؟

- نعم.. لكنها لم تهتم.. لم ترد حتى..

- وماذا عن تسجيلات كاميرات المراقبة؟.. المفترض أن كل جزء هنا يصور ويسجل طيلة الوقت.. لابد أن ما أصاب (يوري) في غرفة معادلة الضغط قد تم تسجيله..

لكن (آرثر) أجابني بمرارة:

- راجعت الذاكرة الرئيسية لكمبيوتر المركبة.. إنها مغلقة بكلمة سر لا يعرفها سوى (يوري).. والأسوأ أنني لا يمكنني رؤية ما يحدث في غرفة معادلة الضغط الآن، فمن قتل (يوري) هشم الكاميرا في الداخل ولا يمكنني فتح الغرفة وإلا خاطرت بإنتشار الفيروس لوكان التابوت مفتوحًا..

آه.. أي أن الطريقة الوحيدة لمعرفة القاتل، هي تلك اللحظة التي ستمر قبل أن يقتلك!

- إنه ليس أنا.. وليس (آرثر).. إذن؟

مهلاً.. ومن قال إنه ليس (آرثر)؟.. والأسوأ من هذا كله..

من قال أنها ليست (جولي)؟!

نعم.. بعد أن ماتت أعادها الفيروس للحياة بصورة ما، فخرجت من تابوتها وقتلت قاتلها..

احتمال يستحق التفكير والتخيل.. إنها الآن تجوب ممرات المستشفى والسائل الأصفر الكريه يسيل منها، باحثة عن ضحيتها القادمة.. وفي هذه الحالة..

وفي هذه الحالة سيكون الحل أن أدخل إلى غرفة معادلة الضغط لأتأكد بنفسي..

- هل تفكر فيما أفكر فيه؟

- الفتاة؟

- بل (إيفيتا) يا رجل.. ألم تر كيف حاولت إنقاذ الفتاة، وكيف منعها (يوري)؟

- ماذا عنك؟

- أتتهمني أنني القاتل؟؟

- لم لا.. لاحظ أنك جئت إليّ دون أن تشك في وهذا يعني إما أنك أحمق، واما أنك القاتل لذا فأنت تعرف يقينًا أنني لست هو..

صدمه منطقي وأخرسه للحظات، قال بعدها:

- كان (يوري) محقًا حين اتهمك بالتخلف.. على أية حال وبما أنني قائد المركبة من بعده، فلقد قررت أن تنتهي الرحلة عند هذا الحد.. سنعود للأرض..

- هل أبلغتهم بما حدث؟

- لا يمكنني الإتصال بهم من على هذا البعد.. لكنني سأفعل فور عودة الإتصال..

لم أجادله في هذه النقطة، بل تركته وقررت العودة لـ (إيفيتا) لأحسم شكي تجاهها على الأقل، لكني ما إن بلغت غرفتها حتى وجدت باب غرفتها مفتوحًا عن آخره..

لكنها لم تكن هناك..

لقد اختفت!

• • •

سأوفر عليكم بعض الوقت وسأختصر لكم جزءً مما حدث..

أبلغت (آرثر) بإختفاء (إيفيتا) فقرر على الفور أن هذا يثبت كونها القاتلة، وانطلق معي عبر ممرات المركبة لنبحث عنها..

كما ترون هذا الجزء لا يهم في شيء.. بل إنني واثق أنكم استنتجتم أننا لم نجدها..

لكن الجزء الذي يهمنا هو أننا حين عدنا إلى القاعة الرئيسية وجدنا أن شاشة كمبيوتر المركبة تحمل لنا رسالة خاصة:

"أنا لا أنتمي إلى هذا العالم.. لم أعد أريد البقاء فيه.. وداعًا.."

على الفور همست (إيفيتا)، لكن (آرثر) صاح في هلع:

- لقد فتحت غرفة معادلة الضغط.. إنها الآن في الداخل..

لكننا لم نجرؤ على الذهاب إلى هناك.. لو كان الفيروس هناك فلن نسرع تجاهه..

هكذا أخذنا ننتظر جوار نافذة المركبة، حتى ظهرت لنا (إيفيتا) أخيرًا وهي ترتدي رداء الفضاء الخاص لتخفي الخوذة العملاقة أكثر من ثلثي وجهها.. كانت تسبح في استسلام تام وعلى ظهرها لم تكن هناك سوى اسطوانة اكسجين واحدة..

بعد ثلاث ساعات إذن سنفقد (إيفيتا) بعد أن ينفذ منها الأكسجين.. بعدها..

بعدها ستتحول إلى جرم سماوي يجوب الفضاء إلى الأبد..

شعرت (إيفيتا) بي وبـ (آرثر)، فاقتربت من النافذة لأتمكن من رؤية عينيها، فلم أجد فيهما سوى تلك النظرة الشاردة التي رأيتها آخر مرة.. حقًا..لم تعد (إيفيتا) تنتمي إلينا..

نظرت تجاهي ثم رفعت قبضتها المضمومة، وبسطتها ليطير ما كان في يدها سابحًا في الفضاء..

زهرة صغيرة ذابلة!

هذا هوما تركته لنا (إيفيتا) قبل أن تسبح مبتعدة عنّا..

سرت قشعريرة باردة في جسدين

سرت قشعريرسسس حين رأيت الزهرة، في حين نظر إليها (آرثر) ببلاهة:

- ما هذا؟

فلم أجبه..

- إنها تهرب.. الحقيرة تهرب بعد أن قتلت (يوري)..

سألته:

- ماذا عن الفيروس؟

كمبيوتر المركبة لم يلتقط شيئًا ما حتى الآن.. لكن التابوت لم في الداخل.. لابد أنها أخرجته معها..

- نجونا إذن؟

صمت (آرثر) لبرهة قلب فيها الأمر في رأسه، ثم أجاب في النهاية:

- نعم.. نجونا..

• • •

عدت إلى غرفتي ونمت واستيقظت بعد أربع ساعات، لأتجه إلى القاعة الرئيسية حيث كانت جثة (آرثر) تنتظرني..

هناك على مقعد القيادة وجدته، ووجدت تلك النظرة الزجاجية في عينيه، وذلك الثقب الغائر في صدره، وذلك التعبير الذاهل على وجهه...

القاتل لا يزال هنا!

على شاشة الكمبيوتر وجدت محاولات (آرثر) لاجتياز كلمة السر التي وضعها (يوري) والتي يبدوأنه لويوفق فيها.. فأزحت جثته من على المقعد وبدأت محاولاتي أنا..

ساعة كاملة أخذت أحاول فيها متوقعًا أن يهجم عليّ القاتل في أية لحظة، قبل أن تفتح لي ذاكرة الكمبيوتر كصدر (آرثر)..

على الفور بحثت في التسجيلات حتى وصلت إلى تسجيل ما حدث في غرفة معادلة الضغط حين كان (يوري) فيها، فضغطت على زر التشغيل وتراجعت بظهري لأرى ما حدث..

هاهو(يوري) يدخل الغرفة وهويدفع أمامه ذلك التابوت المشئوم.. هاهويتركه ويتجه إلى خزانة أردية الفضاء الخاصة وهويعطي ظهره للتابوت.. ها أنا الآن أرى شيء ما ينعكس على سطح التابوت المعدني، قبل أن أظهر أنا على الشاشة لأهجم على (يوري) بسرعة وتلك الأداء الحادة في يدي، لأطير عنقه بضربة واحدة!!

ها أنا أقف أمام جثته والأداة الحادة في يدي تقطر بدمه، بينما تكور رأسه في ركن الغرفة.. أنظر الآن إلى كاميرا المراقبة.. أهوي عليها بالأداة في يدي لينتهي التسجيل فجأة..

ثم ها أنا الآن في القاعة الرئيسية أجلس أمام الشاشة الضخمة أرتجف..

إنه أنا!!

إنه أنا!!

(D.O.D).. انفصام الشخصية (Disorder Of Double personality)..

نتاج طبيعي لمن عاشوا طفولتي..هذا ما أخبرني به طبيب أبي النفسي والذي أصبح طبيبي بعد ذلك.. أخبرني أن كتمان انفعالاتي المتواصل ومحاولتي المستمرة للتماسك، قد يؤديان إلى حالتي هذه بسهولة..

أخبرني أن هناك آلاف مثلي من أبناء الناجين من الحرب الأخيرة وأخبرني أن الحل هوأن أسجن شخصيتي الأخرى - التي تحمل كل عنفي وثورتي - وأن أعزلها بشفرة لأمنعها من السيطرة على جسدي..

لكنه أخبرني أيضًا أنها قد تتمكن من الخروج أحيانًا مع تعرضي لضغوط نفسية عنيفة.. وفي هذه الحالة وبعد أن أستعيد سيطرتي على نفسي يجب أن أفكر في شفرة جديدة لأعزل بها شخصيتي الأخرى وأن أتعامل مع الموقف ببساطة..

لم يحدث شيء.. مجرد أنني قتلت (يوري) و(آرثر) ودفعت (إيفيتا) إلى الهرب إلى الفضاء!

لابد أنها عرفت ومن اللحظة الأولى.. بصورة ما عرفت..

لكنها لم تحاول إيقافي بل تركتني لأنهي ما بدأته.. ولابد أنها الآن تسبح في الفضاء وتبتسم!

الساعة الآن 3620 وأنا آخر من تبق حيًا على سطح المركبة الفضائية التي فشلت في العثور على كوكب بديل، لكنها ستعود إلى الأرض بهدية رائعة..

فها هي تلك البقعة الخضراء الداكنة على ذراعي تمتد من أسفل سترتي لتطل على كفي، وهذا يعني أنه لم يعد أمامي الكثير، لكنني لم أعد أهتم..

الفيروس الذي وجد طريقه خارجًا من التابوت دون أن يشعر

به كمبيوتر المركبة هوالذي سيظل حيًا حين تصل هذه المركبة إلى الأرض، وهومن سيظل حيًا بعد أن يخرج من المركبة ليفني كل الناجين في مستعمراتهم الصحية..

(D.O.D).. يوم المرض (Day Of Disease)..هكذا سيسمونه قبل أن تحين النهاية..

لكنني لن أكون هناك..

ومن بعدي لن يبقى أحد..

فقط سيظل الفضاء يحمل الدليل الوحيد على أنه كانت حياة ما على كوكب الأرض في يوم من الأيام.. دليل وحيد يتكون من زهرة..

زهرة صغيرة ذابلة!

(تمت)

• • •



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

في المقهى ..

(1)

أتذكر هذا الحلم جيدًا وأحاول أن أجد له تفسيرًا يرضيني دون جدوى..

لست من المؤمنين بالأحلام ولا من المروجين لها، فأنا يا سيدي الفاضل رجل لا يؤمن بالخرافات ولا يضيع فيها وقته.. فقط النساء وضعاف النفوس يجدون في أي حلم نحلمه أسرارًا وحكايات وتفسيرات تكفي لتغيّر حياتك كلها ولتنسف كل ما خططت من أجله لولزم الأمر..

لست ممن يثقلون في العشاء فينامون ليستيقظوا صارخين، مرددين أنه كان كابوسًا وأن هذا الكابوس علامة من السماء أتتني كيلا آخذ تلك الطائرة أوأتم تلك الصفقة أوأعود لذلك المطعم.. الحلم بالنسبة لي هومجرد حلم.. نوع من أنواع الترفيه الذي نحصل عليه عند النوم، بل هوأشبه بعرض مسائي تشاهده بمفردك على فراشك كل ليلة.. كأنك تدخل السينما على فراشك وبالمجان، لكن أن تخرج من السينما معلنًا أن هذا الفيلم سيغير حياتك وإلى الأبد، فهذه هي الحماقة كما ينبغي لها أن تكون!

لكن بعض الأحلام يستحق بعض الإهتمام برغم كل شيء..

بعضها يستحق أن يروى، وبعضها لا تجرؤ على تذكره، وبعضها يتكرر بلا انقطاع كل ليلة وهذه هي مشكلتي أنا..

ليلة أمس كانت الليلة الحادية عشر التي يتكرر فيها ذات الحلم العجيب، الذي حاولت البحث عن تفسير يرضيني له، دون جدوى.. أكرر.. الليلة الحادية عشر.. أي أنني لا أبالغ ولا أخالف مبدأي، حين أقول أن هذا الحلم عجيب حقًا، ويستحق بعض الإهتمام..

لا أحد يحلم بذات الحلم احدى عشر مرة متوالية دون أن يشغل تفكيره ولوقليلاً، بل إنك ولوأردت رأيي يا سيدي الفاضل فاسمح لي أن أقول..

لا أحد يحلم بالحلم ذاته أحد عشرة مرة أساسًا!!

في أول مرة رأيت فيها الحلم لم أتذكره.. في الثانية شعرت وكأنني رأيته من قبل، ثم وفي الثالثة وعلى الرغم من نومي كنت موقنًا من أنه ذات الحلم الذي حلمت به في الليلة الماضية..

بعد هذا أصبح الأمر مملاً إلى حد لا يوصف.. أدخل لأنام لأرى ذات الحلم والذي حتى لوكان ممتعًا مثيرًا، فهولا يستحق أن يتكرر كل هذه المرات، فما بالك وهوحلم عجيب لا يثير إلا الفضول؟!

دعني أحكيه لك واحكم بنفسك..

يبدأ حلمي العجيب بي وأنا أسير في ذلك الطريق منكس الرأس كأن هناك ما يشغلني، وهنا تأتي أول ملاحظة.. أنا أرى نفسي من خارج جسدي.. أراني كأنما أرى مشهدًا لي مصورًا بكاميرا سينما شديدة الإحترافية..

المشهد لي في نهار شتوي ضبابي، أسير في ذلك الشارع الشبه خاوفي تلك الساعة المبكرة، بخطوات وئيدة متجهًا إلى واجهة ذلك المقهى الزجاجية.. أعبر الشارع بذات الخطوات اللامبالية، ثم أبلغ الواجهة التي تكثف البخار عليها ليحولها إلى لوحة بيضاء، فأمد يدي لأمسح طبقة البخار كاشفًا عمّا خلف الزجاج، قبل أن ألصق وجهي بالزجاج البارد لأنظر إلى داخل المقهى، لكني ولأنني أرى المشهد من الخارج، لا أعرف ما الذي أنظر إليه داخل المقهى.. فقط أراني من ظهري وأنا أنظر عبر الزجاج.. أنظر وأرتجف!

وإلى هنا يتوقف الحلم، لأستيقظ تملأني الحيرة ويقتلني الفضول..

ما الذي أتى بي في هذا الطريق الذي أثق أنني لم أسر فيه واعيًا قط؟.. ولماذا اتجهت إلى هذا المقهى بالذات؟ وما الذي رأيته عبر واجهته الزجاجية وجعلني أرتجف؟؟

ثم والأهم من هذا كله..

لماذا يتكرر هذا الحلم كل ليلة، كأنني أنام في قاعة سينما لا تعرض إلا ذات الفيلم؟!

في أول مرة لم أتذكر الحلم.. في الثانية بدا لي مكررًا، وفي الثالثة استيقظت لأحكيه لزوجتي فلم تهتم، لكن ومع الليلة السابعة لم تصدقني حتى أقسمت لها أنه يتكرر كل ليلة بذات التفاصيل، ليشغل تفكيرها هي الأخرى، لكنها لم تحذوحذوي وتتوقف عند الحيرة والتساؤل، بل بدأت تبحث عن تفسير له في كتب ومواقع تفسير الأحلام، ليبدأ سيل التراهات في الإنهمار عليّ، خاصة حين حكت زوجتي الحلم لصديقاتها ليتطوعن بتفسيرات لا تقل سذاجة عن ما قدمته لي زوجتي بثقة كأنها بنت سيرين..

أنت تسير في نهار شتوي أي أنك تشعر بالبرد أي الوحدة أي أنك غير راض عن زوجتك لأنها تشعرك بالوحدة!.. أنت تعبر الشارع ببطء أي أنك تتمنى أن تدهسك سيارة مسرعة لأنك غير سعيد في حياتك الزوجية (مرة أخرى).. ثم أنا أتجه إلى ذلك المقهى لأنني أبحث عن بديل عن المنزل وعن زوجتي التي تشعرني بالشتاء، وأنا لا أرى ما الذي يوجد داخل المقهى لأنه لا يوجد بديل لي عن زوجتي وأنا لا أعرف هذا لكن عقلي الباطن يدركه..

الخلاصة أن هذا الحلم يحذرني من أنني لوحاولت ترك زوجتي، فسوف أصاب بالدرن في الشتاء وسأموت بسيارة تدهسني لأنني وغد وأستحق الموت جزاء خيانتي!

كان هذا هوتفسير زوجتي بالطبع.. باقي التفسيرات تتلخص في أنني سأحصل على صفقة جديدة في عملي قريبًا أوسأمر بأزمة صحية خطيرة أوسأرزق بابن أوسأصاب بالعقم أوسأعرف سرًا مهمًا أوسأصاب الخبال لأجوب الطرقات ولأعيش مما سأحصل عليه من مسح واجهات

المقاهي الزجاجية.. وكلها تفسيرات لا بأس بها أبدًا طالما مصدرها صديقات زوجتي العزيزة، وكل ما عليّ فعله في الفترة القادمة هوعدم أكل الثوم في العشاء والابتعاد عن المقاهي..

هكذا قررت أن أنسى موضوع التفسير وأن أتوقف عند نقطة التكرار..

لماذا يتكرر ذات الحلم كل ليلة؟

ومتى سيتوقف؟.. أو..

هل سيتوقف؟؟

• • •

لكنه استمر في زيارتي كل ليلة حتى بات النوم في المساء بالنسبة لي، مجهودًا شاقًا لا أطيق احتماله.. تخيل أن تشاهد ذات الفيلم كل ليلة دون أن تفهم منه شيئًا ودون أن تقدر على تغييره..

تخيل أن تتحول لياليك إلى ذات الروتين مهما فعلت ومهما قاومت.. أيوجد ما هوأسخف من هذا؟

ثم إنه يتوقف كل ليلة عند ذات النقطة تاركًا ذات السؤال معلقًا في رأسي طيلة فترة استيقاظي..

ما الذي أراه داخل المقهى ويجعلني أرتجف بهذه الصورة؟؟

سؤال قادر على التهام عقلك لومررت بما أمر به، وهي رفاهية لا أملكها أنا للأسف!

فهنا في البورصة حيث أعمل، لا يمكن لأي شيء أن يشغل بالك إلا إذا كان له علاقة بالأسهم والأرقام والا فهي نهايتك في هذا المجال والى الأبد..

إنه قانون البورصة الراسخ..

الخطأ الأول هو الخطأ الأخير..

لن أشرح لك عملي بالضبط من باب الرحمة، لكن هل شاهدت أي بورصة في الواقع أو في التلفاز أو على شاشة السينما؟.. أرأيت ذوي البذلات والسماعات في آذانهم الذين يتحركون كالنحل وهم يصرخون طيلة الوقت دون أن يسمع أحدهم الآخر؟؟.. أنا واحد من هؤلاء..

أحمل حقيبتي وأصرخ في البورصة طيلة النهار، ثم أعود منهكًا لأرتجف أمام المقهى في المساء دون ذنب ودون أن أفهم..

فقط حين حصلت على ثلاث دقائق راحة ذات مرة في العمل، حكيت لأحد زملائي عن حلمي العجيب دون أن أنتظر منه تفسيرًا.. مجرد محاولة للتنفيس كيلا تفتك الحيرة بي لوحدي.. لكن زميلي هذا أصغى لي في هدوء تام، ثم قال ببساطة:

- ولماذا لا تحاول الدخول؟

- ماذا؟!!

- حاول دخول المقهى في حلمك.. خوفك يوقظك كل مرة، لكن لو دخلت ستعرف إجابة سؤالك.. جرّب لن تخسر شيئًا..

بالطبع لم يقنعني اقتراحه حينها، بل وجدته ينم عن حماقة لا حد لها..

أولاً أنا لا أملك أي سيطرة على نفسي داخل الحلم، وإلا لما اتجهت إلى المقهى أصلاً.. ثانيًا لو كان ما رأيته جعلني أرتجف، فلماذا أدخل إليه طواعية؟!.. ثالثًا من قال أنني لن أخسر شيئًا؟

ربما أموت في الحلم لأهلك على أرض الواقع.. قرأت عن هذا ذات مرة لكن لا أذكر أين.. شيء عن عقلنا البشري الذي لا يجيد التمييز بين الواقع والخيال في ظروف ما، ليتوقف عن العمل لو اعتقد أن الجسد هلك مسببًا الوفاة.. هذا هو العقل البشري الذي لا نملك إلا الإعتماد

عليه هنا في البورصة، بعد هذا يتساءل الكل لماذا تنهار البورصة فجأة؟!

المهم أنني قررت تجاهل التراجه تمامًا حتى أتى المساء.. حينها قررت أن أجرّب حظي..

سأحاول دخول المقهى في حلمي وليكن ما يكون..

(2)

هكذا بدأ حلمي بي وأنا أسير في ذات الطريق الكئيب بذات الخطوات الوئيدة، وبذات الرأس المنكس في ذات النهار الشتوي الحزين..

رأيت هذا الحلم عشرات المرات حتى حفظت عدد الخطوات التي أخطوها قبل أن أبلغ المقهى.. حفظت عدد الأحجار على جانب الطريق وحفظت طول الظلال.. حفظت لون الجدران ورائحة الشتاء.. وحفظت برودة واجهة المقهى الزجاجية إذ تمسها راحة يدي لتمسح البخار المتكثف عليها، قبل أن ألصق وجهي لأنظر إلى الداخل ولأرتجف..

كما أخبرتك سابقًا أنا أرى نفسي من الخارج في حلمي، لذا لا يمكنني أن أرى ما الذي يحدث داخل المقهى بالضبط، لكني قررت هذه المرة ألا أسمح بهذه النقطة بإيقاظي كما هي العادة، بل سأحاول العمل بنصيحة زميلي بأن أسترخي لأواصل حلمي ولأرى إلى أين سيقودني..

هكذا رأيتني أقف أرتجف أمام واجهة المقهى الزجاجية، فحافظت على هدوئي وقررت التعامل مع (أنا) الذي أراه داخل الحلم، وكأنه شخص آخر لا أعرفه ولا يمت لي بصلة!

استمر المشهد أطول قليلاً مما اعتدت عليه.. أنا رأيت هذا الحلم عشرات المرات حتى حفظت عدد الثواني التي يستغرقها، ويمكنني أن أؤكد لكم أن هذه المرة الفترة أطول.. صحيح أن المشهد شبه ثابت وأن (أنا) لا يزال في مكانه يرتجف لكني أشعر أن شيئًا ما سيحدث هذه المرة..

مرّت الثواني بطيئة لزجة دون أن يتحرك شيء في المشهد، ثم وفجأة ارتد (أنا) إلى الوراء تاركًا الواجهة الزجاجية، وهويملأ صدره بالهواء البارد دفعة واحدة، قبل أن يتنهد بإستسلام ليخطوالى داخل المقهى هذه المرة..

تبعته الكاميرا لحسن حظي، فرأيتني أدخل ذلك المقهى أخيرًا حيث تنتظرني إجابة سؤالي الوحيد، فتسارعت ضربات قلبي وجاهدت كي أسيطر على نفسي كيلا أستيقظ لأفسد هذا كله و.. و..

وفي الداخل لم يكن هناك أي شيء يثير الخوف أوالرجفة!!

على العكس تمامًا وجدتني في ذلك المقهى الأنيق الشبة خاو، أنظر إلى (أنا) الذي اتجه إلى الطاولة جوار الواجهة الزجاجية، ليجلس منتظرًا شيء لا أعرفه وإن بدا عليه مزيج قاس من الخوف والتردد والإنتظار..

وعلى الرغم من دفء المكان وتلك الموسيقى الحالمة التي تنساب فيه، إلا أنه ظل يرتجف وإن حاول إخفاء هذا أمام النادل الذي اتجه إليه بأدب، ليشير له بما معناه (أي شيء) وهوشيء استغربته مني جدًا.. في المعتاد أنا لا أطلب شيئًا إلا بعد تدقيق طويل، فأنا ممن يشمئزون بسهولة ولا يتخلصون من هذا الإحساس لأيام متواصلة لوتذوقت - مجرد تذوق - أي شيء لا يروق لي ولكن من الواضح أن (أنا) في الحلم لن يشرب ما سيأتي به النادل فهوليس هنا ليشرب..

إنه هنا لسبب آخر سأعرفه لو.. لو..

لولم يرن المتبه – عليه اللعنة - جوار فراشي ليوقظني، وليعيدني إلى أرض الواقع محملاً بأسئلة جديدة وبحيرة تتضاعف..

في لحظة كنت في المقهى على وشك أن أعرف كل شيء وفي

اللحظة التالية أصبحت حوار زوجتي على الفراش. أسمعها تسألني بصوت ناعس إن كان الحلم قد تكرر مرة أخرى.

لكني لم اجبها

فقط هشمت المنبه بقبضتي قبل أن أقوم إلى عملي في البورصة!

• • •

قابلت زميلي في العمل فسألني إن كنت رأيت الحلم مجددا، فحكيت له كل ما حدث.. أخبرته أنني رأيت المزيد، فابتسم قائلاً:

ألم أقل لك؟.. كررها الليلة وسترى أكثر..

وهذا ما كنت أنتويه بالفعل، لكن الليل حين تنتظره لا يأتي إلا بعد قرون..

طيلة اليوم وأنا أنتظر أن ينتهي عملي هنا لأعود منهكًا إلى فراشي حيث ينتظرني باقي الحلم، لكن كل ساعة أخذت تمر عليّ كأنها يوم كامل، بينما قرر عقلي التوقف عن التفكير في البورصة والتفرغ لمحاولة تفسير حلمي العجيب..

مديري المباشر لاحظ هذا وشعر بالقلق، فهو يعرف ما قد يحدث لو شردت أو أخطأت، لذا قرر منحي باقي اليوم كأجازة مع تحذير مهذب مفاده أنه لو رآني شاردًا مرة أخرى، فستمتد أجازتي نهائيًا، وسيكون هذا ذنبي أنا لا هو، فلم أعترض..

فقط عدت إلى المنزل لأجلس منتظرًا النوم لتزداد الساعات بطئًا وقسوة..

جرّب أن تنتظر النوم ليلة وانظر إن كان سيأتيك أم لا.. والأسوأ.. حاول ألا تفكر في شيء ما وستجد أنك عاجز عن التفكير في أي شيء سواه..

رأتني روجني في حالة أرقي هذا، فبدأت نصائحها التي لا تنتهي حول اللبن الدافيء والقصص المملة والاسترخاء البدني لدي يساعد على النوم و.. و..

وفي وسط إصغائي لنصائحها، غلبني النعاس فغبت في النوم وعدت إلى المقهى..

• • •

وهذه المرة سأختصر عليك الوقت وسأبدأ من لحظة رؤيتي لنفسي أجلس في ذلك المقهى وحيدًا أرتجف وأنتظر شيئًا ما لا أعرفه..

الموسيقى الناعمة تغمر المكان ولا يوجد إلا (أنا) وتلك الفتاة التي تحتسي قهوتها وهي تتصفح مجلة عن الموضة يبدوأنها لم تفدها بشيء!.. أي فتاة لديها شجاعة أن ترتدي زيًا يمزج الألوان الزرقاء بالخضراء بالصفراء بهذه الصورة، هي فتاة لا تفقه شيئًا عن الموضة وإن قرأت كل ما كتب عنها.. ثم إن.. لحظة.. هناك شخص ما دخل المقهى ويتجه لي..

رجل في منتصف الثلاثينيات هووإن أعطته ملامحه المنهكة بضع سنوات إضافية.. قصير القامة والشعر لكنه ذوذقن نامية وملابس تدل على أنها على جسده منذ أيام.. ملابس لا تدل على ثراء بالمناسبة، وهوليس انتقادًا، لكنك لا ترى رجلاً يرتدي هذه الملابس يدخل مقهى أنيق بهذه الصورة إلا لوكان قد أتى ليلتقي بشخص ما..

شخص هو(أنا) كما هوواضح.

ففي اللحظة التي دخل فيها هذا الرجل المقهى رفع (أنا) عينيه له وقد سرت في جسده انتفاضة واضحة.. (أنا) يخشى هذا الرجل بلا شك وبلا سبب مفهوم.. فقط لواسمر الحلم قليلاً ربما افهم

لم يتحرك (أنا) من مكانه ولم يرفع عينيه عن الرجل الذي اتجه له ليجلس أمامه دون أن ينبس ببنت شفة ودون أن يبادله حتى النظرات.. فقط جلس أمامه ثم أخذ ينظر إلى الأرض في شرود دام للحظات، لم يفعل فيها (أنا) شيئًا سوى أن ينظر له ويرتجف..

من هذا الرجل؟؟

أنا واثق أنني لا أعرفه وأنني لم ألتق به قط، لكن من المؤكد أن (أنا) يعرفه ليخشاه بهذه الصورة، رغم أن ذلك الغريب لا يبدومخيفًا بأي صورة من الصورة..

بل على العكس تمامًا.. هذا الغريب يبدوبائسًا..

ملابسه.. ذقنه النامية.. جلسته المستسلمة وعيناه الشاردتان الحزينتان..

هذا الغريب لا يوحي بالخوف بل بالشفقة!

طال الصمت بينهما للحظات، قبل أن يرفع الغريب رأسه ببطء لينظر إلى (أنا) نظرة مباشرة لا تعني إلا أنه لا داع للإطالة.. نظرة تعني أنه سيفعل ما أتى من أجله هنا..

وببطء لا تخاذل فيه مدّ الغريب يده إلى جيب معطفه القديم، ليخرج منه مسدسًا صغيرًا، رآه (أنا) فأغمض عينيه في قوة دون أن يحاول الهرب أوالصراخ..

وبذات البطء سدد الغريب مسدسه، وهمس:

- سامحني..

ثم أطلق رصاصة واحدة اخترقت رأسي على الفور!!

(3)

لحظتها استيقظت صارخًا كأنما اخترقت الرصاصة رأسي بالفعل!

أخذت أصرخ بلا انقطاع فأيقظ صراخي زوجتي التي هبّت من نومها جواري لتبدأ في الصراخ هي الأخرى دون أن تفهم أوتسأل كأنها تنافسني.. لكني حين توقفت أخيرًا ليبدأ جسدي في الإرتعاش بقوة، توقفت هي الأخرى لتسألني عمّا حدث، فلم أعرف بم أجبها..

حتى لوكانت لدي إجابة، فلم تكن لدي القدرة على النطق بها بعد ما رأيته.. ولحسن حظي لم تطل هي في السؤال، بل أسرعت لتحضر لي كوبًا من الماء، تاركة لي لحظات معدودة لأتمالك نفسي وأحاول الفهم..

هذا الرجل قتلني!.. قتلني!

رصاصته انطلقت في الحلم ليدور كل شيء بالتصوير البطيء بعدها..

الوميض من فوهة رصاصته مع الدوي الحاد.. الثقب ذوالدائرة المخترقة ينبت في جبهتي... دمائي تتناثر من مؤخرة رأسي لترتطم بوجه الفتاة التي لا تفهم في الموضة.. الفتاة تهب لتصرخ بينما جسدي يهوى والنادل يشهق غير مصدقًا..

كل هذا والرجل الذي قتلني في مكانه لم يتحرك، والحزن في عينيه يتضاعف كأنه حزين على قتله لي!

كل هذا دار بالتصوير البطيء - إمعانًا في تعذيبي - ثم أظلم المشهد فجأة لأستيقظ صارخًا..

والآن تعود زوجتي الملتاعة وهي تحمل كوب الماء تنتظر مني تفسيرًا، لكني لن أمنحها ما لا أملكه..

الشيء الوحيد الذي أعرفه أن ما رأيته ليس مجرد كابوس..

ليس كذلك أبدًا..

• • •

بالطبع يمكنك أن تتخيل حالتي حين بدأت عملي في البورصة في ذات اليوم..

كنت قد استيقظت صارخًا في الثالثة بعد منتصف الليل، لكني لم أجرؤ على النوم مرة أخرى.. لهذا قضيت ما تبقى من الليل جالسًا بمفردي أمام التلفاز أصغي لصوت عقارب الساعة وأرتجف محاولاً طرد مشهد قتلي من رأسي دون جدوى، ثم وحين أشارت عقارب الساعة للثامنة، ارتديت ملابسي وانطلقت لعملي ورأسي لا يملأه إلا مشهد الرصاصة وهي تخترق رأسي!

لم يدم يوم عملي طويلاً لحسن الحظ، ففي تمام العاشرة والنصف انتحى بي مديري المباشر جانبًا ليطلب مني تقديم استقالتي.. لقد حذرني سابقًا وهو لا يمنح أحدًا فرصة ثانية أبدًا، لكني رجوته طويلاً ثم حكيت له كل شيء، ليهدأ وليقول:

- مقهى بهذه التفاصيل لا يمكن أن يكون مجرد حلم.. أنت تعرف هذا المقهى جيدًا.. تعرفه وربما تكون قد نسيته.. ابحث عنه فربما يقودك لشيء ما..

ثم منحني أسبوعًا لأتخلص من حلمي أو لأتقدم باستقالتي أيهما أسهل، فلم أجرؤ على لومه.. فقط قبل أن أرحل سألني كيف لم أمت على أرض الواقع، على الرغم من أنني حلمت بموتي حتى النهاية؟

لم أجبه بالطبع ولم يبد عليه أنه ينتظر إجابة.. فقط هززت كتفي، فقال:

- هذا الحلم غير طبيعي بالمرة.. تخلص منه أو ابحث عن عمل جديد..

• • •

لكني قررت التفرغ للبحث عن المقهى..

صحيح أنه يوجد أكثر من ثلاثة وأربعين ألف مقهى في القاهرة

فحسب، لكن البحث بينهم أسهل بكثير من البحث عن عمل جديد وأنت تعرف هذا جيدًا.. ثم أنني أبحث عن مقهى أنيق مما يعني أنني سأستبعد ثلاث أرباع هذا الرقم، وبالتالي سيكفيني الأسبوع في العثور عليه لوكان هذا المقهى في القاهرة.. لولم يكن فهي نهاية عملي في البورصة!

المشكلة أنك حين تخبر زوجتك أنك حصلت على إجازة من مديرك، لتتفرغ للبحث عن مقهى تقتل داخله في أحلامك، فلا تتوقع منها إلا أن تجمع ثيابها لتتركك حتى تجده أوتجد زوجة تحتمل، وبالتالي أصبح مصير عملي وزواجي متوقفًا على عثوري على هذا المقهى.. دعك بالطبع من مصيري أنا شخصيًا على أرض الواقع، فالحلم لم يتوقف عن زيارتي كل ليلة بذات التفاصيل اللعينة، والمسافة التي تفصلني عن الإصابة بالجنون تضيق طيلة الوقت..

بالطبع لم يكن بإمكاني أن أبحث عن قاتل أحلامي، فأنا لا أعرفه على الإطلاق وأثق أنني لم ألتق به من قبل قط.. أي أن كل الإحتمالات تدور في النهاية، لتقود إلى ذات النتيجة..

يجب أن أعثر على المقهى.. يجب..

• • •

كعادتي سأرحمك من كل التفاصيل التي لا داع لها وسأقفز بك إلى لحظة عثوري على المقهى..

حدث هذا في اليوم الخامس بعد أن كدت أيأس وبعد أن كاد كابوسي يفتك بي أكثر مرة.. أنا لم أعد أنام إلا لدقائق معدودة كل يوم وأغلب هذه الدقائق تكون أثناء قيادتي.. صحيح أن النوم أثناء القيادة خطر، لكن أن ترى رصاصة تخترق رأسك وأن تقود سيارتك بسرعة في منحنيات الطريق أخطر!

المهم أنني عثرت على المقهى أخيرًا حين قررت أن أتوقف لأحصل

على أي شيء يمضغ لآكله في اليوم الخامس، لأجدني أشعر بما يشعر به من يمرون بتجربة الديجافو..

أنا كنت هنا من قبل..

هذا الطريق أعرفه..

أعرفه وسرت فيه مرارًا حتى أصبحت أعرف عدد الخطوات التي تفصلني عن واجهة المقهى الزجاجية.. وبعد أن خطوتها وجدتني أرمق المقهى الذي قتلت فيه في أحلامي عشرات المرات!

لكني لم أشعر بالسعادة أوالخلاص بل وجدتني وكما يحدث لي في أحلامي أرتجف!!

لم يكن المشهد كما يحدث بالضبط في أحلامي فالشتاء اقترب لكنه لم يعلن عن نفسه صراحة بعد، ثم إن الساعة الآن تشير للسادسة والنصف مساءً بينما أحداث حلمي تدور بعد الفجر بقليل..

لكني حين تمالكت نفسي لأدخل المقهى، سمعت ذات الموسيقى الهادئة التي سمعتها في حلمي، فأيقنت أنني في المكان الصحيح، ووجدتني مطالبًا بالإجابة على السؤال الوحيد المنطقي..

ماذا بعد؟!!

ها قد عثرت على المقهى، والآن ما الذي عليّ فعله؟!

سؤال – أعترف أنني أحمق – لكني لم أفكر فيه قبل الآن، ولا أستطيع الحصول على إجابته بعقل لم ينم ثلاث ساعات كاملة في خمسة أيام، وبجسد منهك من القيادة وقلة الطعام.. هكذا أتاني الحل من النادل الذي اتجه لي ليشير مرحبًا إلى أحد الطاولات، فهززت رأسي واتجهت إلى الطاولة المجاورة للواجهة الزجاجية، لأجلس حيث أقتل كل ليلة ولأطلب من النادل – الذي لم يكن ذات الشخص الذي أراه في أحلامي بالمناسبة – أضخم كوب من القهوة يملكه..

هنا أقتل وعلى هذا المقعد تحديدًا.. وهاهنا الآن أفكر فيما أملكه من حقائق..

أولاً المكان حقيقي وهذا يؤكد أن ما رأيته لم يكن مجرد حلم.. أنت لا تحلم بأماكن بهذه التفاصيل لتجدها على أرض الواقع، خاصة لو أضفنا النقطة الثانية وهي أنني لم آت إلى هنا من قبل أبدًا..

لم أفقد ذاكرتي وأنا أعرف هذا عن نفسي، لهذا لا تتوقع أن يكون هذا كله جزء من ماض خفي لي، إلا لو ظننت أنني كنت جاسوسًا محترفًا تعرضت لمحاولة اغتيال هنا، لأفقد الذاكرة ولأعيش حياة مختلفة كموظف في البورصة .. نظرية لا بأس بها، لكن ليست قصتنا للأسف!

أتى النادل بالقهوة فبدأت رائحتها الذكية في إنعاشي قليلاً وبدأت أفكاري تنتظم أكثر.. ماذا لو كان هذا المكان مررت به قديمًا أو حتى رأيت صورته في مجلة ما ونسيته لكن عقلي الباطن احتفظ به ليستخدمه كمسرحًا للأحداث في حلمي؟.. تفسير منطقي ويقودنا للسؤال التالي..

لماذا يعذبني عقلي الباطن بحلم عن مقتلي يتكرر كل ليلة؟.. أنا لا أشعر بالذنب تجاه شيء ما لأعاقب نفسي في أحلامي، ثم لو كان هذا لمقهى حقيقيًا كما رأيته في حلمي، فهل الرجل الذي يقتلني برصاصته حقيقي؟؟

هل رأيته هو أيضًا في مكان ما ونسيته؟

ثم والأهم من هذا كله.. هل سيؤثر عثوري على المقهى على حلمي؟؟

هل سيتوقف هذا كله أخيرًا ليتحول كابوسي إلى مجرد تساؤلات سأنساها مع مرور الزمن؟ أم سيكون عليّ أن أحيا كبائس يحلم بموته كل يوم؟؟

يومها لم أعثر على إجابة واحدة مرضية، لكن وبينما أنا غارق

في حيرتي فوجئت بذلك الرجل يقف أمامي مباشرة، وهويقول بصوت سمعته من قبل:

- أنت من أقتله كل ليلة في أحلامي.. أليس كذلك؟

- !!!!!

(4)

هكذا وجدتني أجلس أمام قاتلي الذي ابتسم لي قبل أن يقول:

- وأنا الذي كنت أظنه مجرد حلم..

- !!

- أتسمح لي بالجلوس؟

ودون أن ينتظر ردي جلس على المقعد المواجه لي، ثم أشار للنادل والى كوب القهوة أمامي فيما معناه أنه سيشرب ما أشربه، وهويؤكد:

- بالمناسبة.. ستدفع أنت ثمن قهوتي.. أنا لن أتحمل أسعار مكان كهذا..

ثم استرخى أكثر في جلسته وأشار لي بابتسامته الهادئة، ليقول:

- تبدوكما أراك في حلمي.. خائفًا..

قالها – وهومحق – ليدفع بالغضب في عروقي، فاستجمعت نفسي لأنتزع نفسي من صدمتي ولأسأل:

- من أنت؟

لكني كنت أعرف من هو..

إنه قاتل أحلامي الذي ينسف رأسي برصاصته كل ليلة.. إنه هوولا شك لدي في هذا..

بهدوء أجابني:

- سأخبرك حين تخبرني أنت أولاً.. لقد بحثت عنك طويلاً يا رجل.. عنك وعن هذا المكان.. لولم أجدك لظننت أنني جننت بعد كل هذه الليالي التي حلمت فيها بأنني أقتلك..

- على الأقل أنت القاتل في أحلامك..

- معنى هذا أنك ترى ذات الحلم.. منطقي.. لابد أن هذا ما أتى بك إلى هنا.. حين رأيتك أدركت أنك لست هنا باختيارك.. أنت مثلي تبحث عن تفسير لهذا كله..

قالها فأتى النادل بقهوته وابتعد، ليقبض قاتلي على كوبه براحتيه ليستمد منه الدفء، قبل أن يقول:

- أعتقد أن الحل الذي نملكه هوأن نساعد بعضنا البعض..

- موافق.. كيف؟

- لنحاول إجابة بعض الأسئلة.. أنا أحلم أنني أقتلك كل ليلة وأنت تعاني من ذات الحلم ومن تكراره.. المشكلة الآن أنه لم يعد مجرد حلم.. المقهى حقيقي وها أنا أجلس فيه أمامك، لكن هذا لا يجيب على أول سؤال يشغلني.. هل التقينا من قبل؟.. أعني.. أشعر أنني لا أعرفك على الإطلاق..

فأجبته وقد سرني أن أجد من يعاني مثلي:

- أنا واثق من هذا.. فأنا أذكر من ألتقي بهم جيدًا وأنت لم أرك من قبل إلا في حلمي اللعين..

- لابد أنك مخطيء.. لا يوجد شخص يحلم بآخر لا يعرفه بأدق التفاصيل ثم يجده على أرض الواقع.. نحن نعرف بعضنا العبض وان نسينا هذا الآن.. لكن دعك من هذا السؤال ولننتقل إلى الثاني.. لماذا أقتلك؟

- لما لا تتكرم أنت بإجابة هذا السؤال؟

- لأنني لست بقاتل يا عزيزي.. أنا مدرس فيزياء في مدرسة حكومية وأعتقد أن ملابسي وهيئتي تؤكد لك أنني لا أنتمي لعالمك أصلاً..

ضايقتني ملاحظته فقررت أن أستفزه:

- تقصد الأثرياء؟

- فلنقل عالم من يستطيعون دخول مقهى كهذا دون أن يصابوا بالقلق من أسعاره.. المهم أنه لولا حلمنا المشترك لما التقينا من الأساس، فما بالك بقتلك؟.. أخبرني بشيء واحد قد يدفعني لقتل شخص مثلك؟

لكني لم أملك الإجابة..

إنه محق فيما يقول.. أنا وهونعيش في عالمين منفصلين، ولا يمكن لمن هومثله أن يتعامل مع من هم مثلي إلا لوكنت تظن أننا نعيش في المدينة الفاضلة حيث مدرسوالفيزياء يغامرون بأرباحهم في البورصة التي أعمل فيها..

هذا يعني أن سؤالنا الثاني سيظل بلا إجابة ويبدوأنني أضيّع وقتي هنا رغم كل شيء..

أمّا قاتلي فانتقل للسؤال الثالث:

- متى سأقتلك؟

- في الشتاء.. في نهار يوم شتوي.. لا أعرف اليوم تحديدًا لكني أشعرُ أنه اقترب..

- أنا أيضًا أشعر أنه سيكون هذا الشتاء.. لذا أعتقد أننا لا نملك إلا حل واحد..

سألته وأنا عاجز عن تخيل حل ولحد منطقي لما نحن فيه:

- وما هوهذا الحل؟

- يجب أن نبتعد عن بعضنا البعض وعن هذا المقهى طيلة فترة الشتاء..

- ما الذي تقصده؟

فتردد قاتلي وتلاشت ابتسامته الهادئة من على شفتيه، ليقول بصوت حفرت نبراته في ذاكرتي طويلا:

- عزيزي.. نحن لم نجد إجابة واحدة لأسئلتنا وهذا لا يتركنا إلا أمام خيار وحيد.. أن يكون حلمنا هذا نبوءة.. نبوءة ستتحقق لولم نهرب منها بأقصى سرعة..

• • •

ليلتها قتلت في حلمي مرة أخرى، فاستيقظت في منزلي أصرخ وألهث..

كنت قد عدت إلى منزلي – وإن لم تعد زوجتي بعد – لأنام أخيرًا وهونوم أستحقه بعد عثوري على المقهى اللعين.. لكنه نوم لم يحمل لي الراحة بل ذات المشهد المخيف لقتلي وأنا مستسلم كشاه في أول أيام العيد..

هدأت بعد فترة فأخذت أسترجع آخر ما دار بيني وبين مدرس الفيزياء، الذي ستكون نهايتي على يديه.. وفقًا لنصيحته يجب علينا أن نهرب، لكن وفقًا لمنطقي هذه حماقة أرفض أن أنساق وراءها أكثر من هذا..

أنا لن أترك عملي ومنزلي وحياتي، وأبحث عن مكان لأختبيء فيه من حلم لا منطق له ولا تفسير.. نعم أنا متفق معه على أن هذا الحلم هوللنبوءة أقرب، لكني لن أفعلها.. لن أهرب..

بالطبع لن أخاطر ولن أعود إلى هذا المقهى أبدًا بل ويمكنني الآن تجنبه بعد أن حددت موقعه، لكني لن أدخل في بيات شتوي لأضمن أن حلمي لن يتحقق.. فقط سأظل أعاني من تكراره وهوأمر قد يدفعني للإنتحار قبل أن أقتل!

أنا لم أنم منذ زمن طويل ولم يعد بإمكاني النوم..

والسؤال الآن هو..

هل سأحتمل أكثر من هذا؟

هل؟

• • •

أطول حالة مسجلة لشخص استطاع البقاء متيقظًا بلا نوم هي ثمانية عشر يومًا وواحد وعشرون ساعة.. فقط أصيب صاحبها بالهلاوس السمعية والبصرية وبفقدان جزئي للذاكرة وبضعف عام وبارانويا مزمنة!

المطلوب مني وببساطة هوتحطيم هذا الرقم، لوأردت الذهاب إلى عملي في البورصة دون أن يطارني مشهد قتلي طيلة الوقت.. على الأقل إلى أن ينتهي الشتاء فربما ينتهي الحلم بعدها.. المشكلة الوحيدة أن عملي الوحيد يحتاج لتركيز تام وهوما يمكنني التظاهر به لفترة..

بالمناسبة زوجتي رفضت العودة إلى المنزل لزوج يخاف أن ينام، وأنا أرى أنها تبالغ في رد فعلها هذا.. كأنها لا تشعر بالأمان إلا على صوت شخيري!.. لكني لن أنكر أن وجودها كان يساعدني على النوم أكثر من اليقظة، لذا سأتركها إلى أن ينتهي هذا كله، وبعدها سأرى إن كانت تستحق العودة أم لا..

نظريتي هي أنني سأقتل في الشتاء لوكان الحلم نبوءة، لكني لن أذهب إلى المقهى ولن أنام إلى أن ينتهي الشتاء، وبهذا سأنجوبحياتي وبما سيتبقى لي من عقلي..

كل ما عليّ فعله هوالبقاء مستيقظًا لثلاثة أشهر!

• • •

بعد فترة أخبرني مديري أنه سيفتقدني كثيرًا لكنه مضطر للإستغناء عن خدماتي..

أخبرني أنه احتمل تصرفاتي طويلاً لكنه لا يستطيع أن يدير عمله في البورصة وأنا آتي إليها بملابسي الداخلية لأرقص وأغني كالمجاذيب.. ليس بعد أن نشرت أحد الصحف صورتي وأنا بهذه الحالة على الأقل!

لكن لا بأس..

سأخسر عملي وأكسب حياتي.. صفقة عادلة..

المهم أن أواصل لأطول فترة ممكنة..

• • •

غلبني النعاس اليوم فرأيت الحلم بحذافيره لأستيقظ صارخًا للمرة الألف منذ أن رأيته أول مرة..

أكاد أجن لكنه خطأي.. لم يكن يجب عليّ أن أسمح لنفسي بالنوم..

صحيح أن القهوة لم تعد تجدي وأن المنشطات والعقاقير التي آخذها لأبقى مستيقظًا بدأت تساعدني على النوم أكثر من أي شيء آخر، لكني سأقاوم..

كل هذا سينتهي لومرّ الشتاء على خير..

• • •

أريد أن أنام ولو لليلة واحدة دون أحلام..

ليلة واحدة..

ساعة واحدة..

دقائق معدودة حتى!

• • •

من قال أن هذا سينتهي لو مرّ الشتاء على خير؟!

من يضمن لي أنني لن أقتل في الشتاء الذي يليه؟.. هه؟.. كيف سأستطيع أن أقاوم إذن؟!

هل سأظل مستيقظًا إلى الأبد؟

ولماذا أنا بالذات؟

لماذا يحاول أي شخص قتلي وأنا لا ذنب لي في شيء؟.. لا يوجد أي شيء بيني وبين مدرس الفيزياء هذا، فلماذا فعلها؟؟

هل يعاني هو أيضًا حياة بلا نوم أم إنه يستمتع بكل ليلة يحلم فيها بأنه يفجّر رأسي؟؟

الوغد القاتل!.. هو السبب في هذا كله.. تركني أدفع له ثمن قهوته، ثم سيأتي اليوم الذي يقتلني فيه بندم مفتعل، وهو يردد:

- سامحني..

يقولها ثم.. يحرّك ثلاث أو أربع عضلات في يده.. يتناثر مخي على كل شيء في المقهى اللعين!

سيقتلني ثم سيعود لحياته العادية كمدرس فيزياء في مدرسة حكومية، يقامر بما يتبقى من مرتبه في البورصة!.. لكن لا..

لن أسمح له..

الحل المنطقي كان أمامي منذ البداية وأنا الذي تجاهلته طويلاً..

نعم.. إنه الحل المنطقي والوحيد الذي أملكه..

سأقتل مدرس الفيزياء هذا قبل أن يقتلني!

(5)

إليك كل ما تحتاج إليه لتقتل مدرس فيزياء يعمل في مدرسة حكومية..

سكين حاد فالمسدس يعني ضوضاء تجذب الأعين.. أداة فتح أبواب وهي أداة يمكنك الحصول عليها لوقضيت بعض الوقت في مقاهي هي النقيض التام للمقهى الذي سأقتل فيه.. هناك ستجد خبراءً في فتح الأبواب المغلقة.. وأخيرًا قفازات طبية يمكنك الحصول عليها من أي صيدلية لوكنت تريد الإحتفاظ ببصماتك لنفسك..

بعد هذا تأتي الخطة وكلما كانت بسيطة أقرب للسذاجة، كلما كانت أفضل!

التحذلق يفسد أي عملية قتل، وكل محاولة لتنفيذ الجريمة الكاملة تبوء بالفشل، لأن من يحاول تنفيذها متحذلقون اعتقدوا أنهم أذكى من أي يلجأوا لخطط ساذجة لينفذوا جريمتهم.. أمّا أنا وبعد أسابيع من عدم النوم، فلا أملك حتى القدرة على التخطيط لجريمة متحذلقة تودي بي إلى حبل المشنقة..

كنت قد عرفت اسم مدرس الفيزياء حين التقيته، وكان هذا يكفيني لأعرف المدرسة التي يعمل بها، فلا تنسى أن عدد المدارس في بلادنا أقل بكثير من عدد المقاهي!.. بعد أن حددت موقع مدرسته بدأت في مراقبتها حتى رأيته يخرج منها فتبعته دون أن يشعر إلى أن عرفت أن يعيش، ليقودني إلى ذلك الحي الفقير الذي يليق بمدرس فيزياء يعمل في مدرسة حكومية..

لكني كنت حسن الحظ، فلم أجده يعيش في واحدة من تلك الأحياء الصاخبة التي يملأها المارة ليل نهار، بل كان المبنى الذي يعيش فيه للإنعزال أقرب، وحتى حارسها العجوز كان من النوع الذي ينام بعد صلاة العشاء تاركًا – بضمير مرتاح – البناية عرضة للصوص والقتلة والمغتصبين..

هكذا انتظرت أمام البناية في الليلة التي قررت أن أتخلص فيها من كابوسي، إلى أن ساد الظلام والصمت، لأغادر سيارتي حاملاً كل ما يلزمني لأقتل قاتلي..

وبالطبع كنت أرتجف طيلة الوقت..

لا.. لم يكن ترددًا فأنا واثق من أنني لا أملك حلاً بديلاً، لكني كنت أخشى انكشاف أمري، لينتهي بي الأمر في السجن دون أن أقتله.. حينها سيرافقني حلمي في سنوات سجني إلى أن أجنّ أو أهلك..

على الأقل يجب أن أقتله قبل أن أسجن، وليحدث بعدها ما يحدث..

دخلت البناية فلم أسمع إلا شخير حارسها العجوز، لأواصل طريقي إلى الدرج الذي تراكمت عليه الأتربة والقاذورات.. ومع كل خطوة كنت أخطوها كانت خفقات قلبي تدوي في رأسي بصورة خشيت معها أن توقظ كل من ينامون الآن في البناية..وفي الطابق الثالث وقفت أمام باب شقته الذي حمل اسمه، فأخذت ألهث لفرط الإنفعال واللهفة..

خلف هذا الباب ينام قاتلي الآن يحلم بأنه يفجر رأسي بلا رحمة، ولابد أن هذا يمتعه إلى أقصى حد.. تخيل أن تكون مدرس فيزياء فقير يعيش في بناية كهذه، ولديك الفرصة لقتل ثري مثلي – مقارنة به على الأقل – كل ليلة.. لابد أن هذا سيمنحك متعة لا توصف!

لكن لا بأس.. لينام وليحلم وليقتلني للمرة الأخيرة، فهذه الليلة سأقتله أنا وأضع حدًا لهذا كله..

ارتديت القفاز الطبي ثم أخرجت أداة فتح الأبواب لأبدأ في التعامل مع رتاج الباب بحذر وأنا ألصق أذني به، لأتأكد من أنه لا صوت في الداخل.. سيتم كل شيء بسرعة.. سأدخل.. أتسلل لغرفة نومه.. أغرس السكين في صدره.. ثم سأفر لأنعم بحياة سعيدة هانئة بلا أحلام..

لكن مهلاً..

ماذا لوكانت زوجته ترقد جواره؟

ماذا لوشعرت بي؟

ماذا لورأتني أغرس سكيني في قلب زوجها؟؟

تخيل ردة فعلها حينها..

مرة أخرى الحلول البسيطة هي التي تجدي.. لوشعرت بي سأقتلها هي الأخرى!

هكذا مرت علي بضع دقائق وأنا أعبث بالرتاج بالطريقة التي تعلمتها ممن ابتعت هذه الأداة، إلى أن تعالت التكة المميزة، فأدرت مقبض الباب وفتحته ببطء وحذر..

في الداخل كان الظلام في انتظاري يبادلني النظرات.. وكانت هناك تلك الرائحة التي تميز بيوت الفقراء عن سواها.. رائحة مزيج عجيب من رائحة الثوم ومساحيق الغسيل والغبار والتعاسة..

خطوت بحذر إلى الداخل ثم توقفت لأصغي إن كان أحدهم شعر بي أم لا.. لا أحد..

تقدمت أكثر و أنا أتحسس طريقي لأنتبه إلى أنني - ولحماقتي - لم أحضر شيئًا أضيء به طريقي، فأخذت أتحسس طريقي في الظلام متمنيًا ألا أسقط شيئًا ذودوي دون أن أنتبه..

كانت عيناي قد بدأتا تتكيفان على الظلام نوعًما، لأدرك أنني أقف

في صالة ضيقة يتناثر فيها الأثاث رديء الصنع رخيص الثمن.. أمامي تمتد ردهة تقود لعدة أبواب مغلقة، خلف أحدها يرقد قاتلي.. كأنني في برنامج مسابقات!

خلف أحد الأبواب ينتظرني كنز البرنامج، فهل سأختار الباب الصحيح أولاً؟

بدأت أخطو متقدمًا في حذر شديد، وأنا أرهف السمع طيلة الوقت، حتى بلغت الباب الأول فقبضت على رتاجه وأدرته ببطء شديد حتى انفتح ليكشف لي عن مطبخ ضيق تنبعث منه روائح عجيبة منفرة.. ليس الباب الأول إذن.. لنتقدم إلى الباب الثاني ولنأمل أن يكون حظ المتسابق أفضل هذه المرة..

مرة أخرى أقبض على الرتاج وأحبس أنفاسي، قبل أن أبدأ في إدارته ببطء و.. و..

وهذه المرة شعرت بتلك اليد الضئيلة تقبض على ساقي، قبل أن يتعالى صوت طفولي ناعس يقول:

- أبي؟

انتفضت على الفور وكاد قلبي يتوقف هلعًا، قبل أن أدرك أن من يقبض على ساقي هذا، هو طفل لا يتجاوز السادسة من العمر بأي حال من الأحوال.. طفل رفع صوته فجأة ليقول:

- أبي.. أشعر بالعط..

لكنه لم يكملها.. لم أمنحه الفرصة ليفعل..

بسرعة انحنيت عليه لأضع راحتي على فمه كاتمًا صرخاته، التي تأخرت حتى فهم ما يحدث بالضبط.. أنا لست أباه.. أنا شخص ظهر له في الظلام والآن أنا أقيده وأكتم فمه.. لذا لك أن تتوقع كم حاول أن يقاوم..

جسده كله أخذ يتلوى، وبدأ يركلني بساقيه وهويحاول عضّ يدي التي تغلق فمه بأسنانه الصغيرة، فحملته وتراجعت به إلى داخل الغرفة، محاولاً بالكاد السيطرة عليه، وإيجاد حل للموقف الذي أصبحت فيه..

لقد انكشف أمري!

طفل في السادسة من عمره كشف أمري وأفسد خطتي تمامًا، والآن يجب أن أخرسه لوأردت الخروج منه هنا حيًا، لكن كيف؟

كيف يمكنك أن تخرس طفلاً ينتظر اللحظة التي أبعد فيها يدي عن فمه ميلمترًا واحدًا، ليملأ الليل بصراخه؟

كيف يمكن..

لكن صوت مدرس الفيزياء تعالى فجأة من خارج الغرفة يقول:

- أتريد شيئًا ما؟

• • •

أعترف أنني كدت أبلل سروالي في هذه اللحظة!

للحظة فقدت السيطرة على جسدي كله، وتحولت لتمثال يقبض على طفل وينتظر أن يدخل مدرس الفيزياء عليه ليراه بهذه الصورة، ليقتله كأبسط رد فعل من حقه اتخاذه..

للحظة أغمضت عيني وانتظرت نهايتي، وفي اللحظة التالية تعالى صوت امرأة تقول:

- دعه ينام..

فأجابها صوت مدرس الفيزياء:

- حسبت أنني سمعته..

- كنت سأسمعه أنا لوفعل.. دعه وإلا فسيبقى مستيقظًا طيلة الليل ولن ننام نحن حينها..

قالتها ثم ساد الصمت للحظات، قبل أن أسمع صوت خطوات مدرس الفيزياء يبتعد، لتعود لي القدرة على التنفس من جديد، ولأنهار على ركبتي لفرط انفعالي..

نجوت..

نجوت ولومؤقتًا، والآن عليّ أن أجد طريقة لأقنع بها الطفل ليخرس حتى أغادر منزله.. سأخرج من هنا ولن أعود أبدًا.. سأترك أباه يقتلني في أحلامي كل ليلة فقط لوصمت حتى أبتعد ما فيه الكفاية..

هكذا همست في أذن الطفل، أقول:

- الآن سأتركك.. لكن لوحاولت أن..

لكني وفي هذه اللحظة انتبهت إلى أن الطفل لم يعد يقاومني!

انتبهت أنه تحول إلى مجرد ثقل على ذراعيّ.. مجرد جسد لا حياة فيه!!

أزحت يدي عن فمه الضئيل لأجد أنني كنت أكتم أنفاسه طيلة الوقت دون أن أنتبه إلى هذا، و الآن.. الآن لم تعد لهذه المعلومة جدوى..

لم يعد لأي شيء أي جدوى..

• • •

بعد هذا قدت سيارتي مبتعدًا ومشهد جثة الطفل شاخص العينين ينتظرني في أي جهة أنظر إليها..

وحين ابتعدت ما فيه الكفاية، توقفت لأبدأ في الصراخ بلا توقف..

صرخت.. صرخت.. صرخت..

وحين فقدت القدرة على الصراخ اكتشفت أن حافظتي سقطت مني..

في غرفة الطفل!

• • •

الآن أنا أسير في ذلك النهار الشتوي الحزين أتجه إلى المقهى..

أحفظ عدد الخطوات التي تفصلني عن واجهته الزجاجية، وها أنا أخطوها للمرة الأخيرة..

الآن يبدوكل شيء واضحًا لي ولم أعد في حاجة لمن يفسر لي حلمي.. مدرس الفيزياء لم يبلغ الشرطة وهذه رسالة واضحة.. إنه يريدني هناك..

في المقهى..

أبلغ الواجهة الزجاجية فأقف أمامها وأنا أتذكر كيف بدأ هذا كله..
كل ما كان عليّ فعله هوالإبتعاد عن المقهى!

أنظر عبر الواجهة الزجاجية وأرتجف رغمًا عني.. لكنه ليس في الداخل.. لم يأت بعد..

بالطبع..

أتنهد ثم أدخل ثم أجلس ثم ألوح للنادل.. ثم أنتظر..

خلفي تجلس تلك الفتاة التي لا تفقه في الموضة فأعرف أنه اليوم الموعود، وأحاول أن أتوقف عن الإرتجاف..

كل ما كان عليّ فعله هوالهرب..

الآن يظهر مدرس الفيزياء بثيابه الرثة وبتلك النظرة الحزينة في

عينيه.. نظرة من فقد ابنه و منيه ان يقتل قاتله ليتمكن من النوم حتى لوانتهى به الأمر في السجن.

يجلس أمامي ثم تشرد عيناه الحزينتان بينما أرمقه أنا وارتجف.

إنه يعرف أنه لم يكن ذنبي.. يعرف أنه الحلم اللعين الذي دمّر حياتي وحياته..

يعرف أنه لولاه لما كنّا هنا ولكان ابنه لا يزال حيًا..

يعرف لكن..

لم يعد لهذا كله جدوى الآن..

أنا وهونعرف ما الذي سيحدث الآن..

يرفع مدرس الفيزياء عينيه أخيرًا ليمنحني نظرة وداع، ثم يهمس:

- سامحني..

وببطء لا تخاذل فيه مد يده إلى جيب معطفه القديم، ليخرج منه مسدسًا صغيرًا، رأيته فأغمضت عينيّ في قوة دون أن أحاول الهرب أوالصراخ..

حولي تنبعث الموسيقى الحالمة فلا أسمع سواها حتى لحظة النهاية..

على الأقل حيث سأذهب لن تكون هناك أحلام..

ولن يكون هناك مقهى..

• • •

عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice

الفهرس

حكايات الموتى



عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice



أفكار كثيرة طازجة، وحبكات لا يمكن التنبؤ بها.. دعك من صفة تروق لي كثيرا وهي الجرعة الأدبية العالية.. لا يمكن أن تقارن هذه القصص بالأسلوب الخبري المسطح لكتاب رعب كثيرين.. بهذا احتفظ بسحر الرعب وإثارته، لكنه كذلك أعطى القارئ سحر الأدب وتعبيرات يتوقف عندها كثيرا..

أحمد خالد توفيق





عصير الكتب

Facebook.com/groups/Book.juice